حنين الصَّايغ

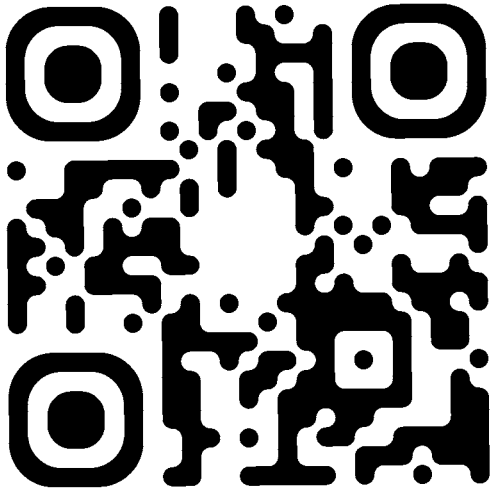
ثمرةُ النَّار

مكتبة

رواية



دار الآداب



سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

ثمرة النار

ثمرة النار
حنين الصايغ / روائيَّة لبنانيَّة
الطبعة الأولى عام 2025
ISBN 978-9953-89-788-2

مكتبة
t.me/soramnqraa

دار الآداب للطباعة والنشر والتوزيع

للمزيد من المعلومات عن دار الآداب الرجاء زيارة
موقعنا www.daraladab.net
يمكنكم التواصل معنا على البريد الإلكترونيّ:
info@daraladab.net
rana.adab@gmail.com

حنين الصايغ

مكتبة
t.me/soramnqraa

ثمرة النار

رواية

دار الآداب

إهداء

نحن النساء نحبُّ أمَّهاتنا بطرقٍ لن يعرفن عنها شيئًا،
نشعر بالذنب، ما حيينا، حِيال الحيواتِ التي لم يعِشنَها
إلى كلِّ الأمَّهاتِ اللَّاتي لم يكُنَّ
إلى كلِّ الأمَّهاتِ اللَّاتي لن نكونَهُنَّ أبدًا...

هذه الرواية من نسج خيال الكاتبة، لا تمتُّ إلى الواقع بصلةٍ إلَّا بقدر ما تسمح به مرآة الأدب في عكس صورة الحياة. شخصيَّاتها، أحداثها وأماكنها وُلِدت بين سطور الحكاية وتعيش فقط في حدودها، فإن صادفتَ فيها ما يشبه الحقيقة، فذلك لأنَّ الخيال كثيرًا ما يسرق ملامحه من الحياة ويُعيد تشكيلها على هواه...

مكتبة
t.me/soramnqraa

1

قرية عينصورة، جبل لبنان 2022

سحبت نبيلة يدها اليمنى من المعجنة ومدَّت جسدها للوصول إلى إبريق الماء لتغسل يدَيْها من بقايا العجين. لقد أصبحت تحبُّ عملها أكثر منذ أن بنى لها عليٌّ هذه الغرفة المجاورة للمنزل وصنع لها طاولةً خشبيَّةً كي تعجن وهي واقفة، بدلًا من الركوع على ركبتَيْها اللتين أصبحتا تؤلمانها بعد أن تخطَّت الستِّين. ولكن من ينظر إلى وجهها المستدير وخدَّيْها المرتفعَيْن وعينَيْها الواسعتَيْن، يظنُّ أنَّها لا تزال في منتصف الأربعين. فوق الطاولة مباشرةً شبَّاكٌ كبيرٌ يطلّ على فناء المنزل ويسمح لنبيلة بمراقبة مدخل ورشة زوجها التي كانت في السابق إحدى غرف المنزل قبل أن يُسدَّ الباب القديم ويُفتَح آخر بمواجهة الطريق. وقفت

بقامتها المربوعة التي تميل إلى الاكتناز وراء الشبَّاك تتأمَّله يجلس فوق كرسيِّه القماشيّ القابل للطيّ، لاحظت أنَّه يرتدي الطاقيَّة الصوفيَّة السميكة بدلًا من طاقيَّته البيضاء الرقيقة. لا تحبُّ نبيلة تلك الطاقيَّة الصوفيَّة التي طالما أثارت حنقها لأسبابٍ لم تفهمها أبدًا. كانت في السابق تجادله بحِدَّةٍ حين يرتديها في الربيع: «بتبيِّن ختيار بس تلبسها، ما بقى في برد روح اشلحها». وكانت أيضًا تنهره باستمرارٍ كي يحلق ذقنه: «يا علي دقنك صار أبيض بس ترخيه بتبيّن شبه المرحوم أبوك».

لكنَّها اليوم، وبعد خمسةٍ وأربعين عامًا من الزواج تهذَّبت توقُّعاتها تجاهه وتقلَّصت رغبتها في تغييره. بعد عُمرٍ من محاولات التوافق غير الناجحة والتغاضي عن الخلافات، التي من فرط ما طالت لم يعد أحدٌ منهما يعرف متى ولماذا بدأت، أصبح عليٌّ الثابت الوحيد في حياتها اليوميَّة. حوَّلت نظرها عنه وعادت إلى المعجنة، رسمت بإصبعها سيفًا ثم غرست أصابعها الخمسة فوق كتلة العجين، وهو رمزٌ للحدود الخمسة في العقيدة الدرزيَّة. اقتطعت قطعةً كبيرةً من الكتلة، قالت «بسم الله» ورفعتها بكلتا يدَيْها لتمدَّها فوق الطاولة المرشوشة بالطحين، ثم قبضت على رأس الكتلة بيدٍ وراحت تقتطع منها كراتٍ صغيرةً بيدها الأخرى.

في الخارج، غطَّى نيسان الحقول المجاورة بالأزهار البرِّيَّة، وحاصر القبح الذي انتشر بكثافةٍ في أحياء القرية. أجبر الفقر أهل الضيعة على استغلال المساحات المحيطة ببيوتهم لبناء غرفٍ من أحجار الباطون وتأجيرها للَّاجئين السوريِّين والعُمَّال الموسميِّين الذين تحوَّلوا إلى مقيمين دائمين. كثرت حول تلك الغرف

الشوادر وألواح التوتياء والبراميل الصدئة، وانتشرت حبال الغسيل والنفايات. لكنَّ الربيع لا يرى التشوُّه ولا ينشغل بتصنيف المنازل إلى جميلٍ وقبيح، بل يفعل الشيء الوحيد الذي يقدر عليه، يغزو كلّ الزوايا ويزحف بأزهاره فوق الخرائب وأكوام النفايات. وكما الربيع، لم تُهدِر نبيلة طاقتها في مقاومة ما لا يمكن تغييره، بل تكرَّست لخلق ما يُزهِر ويُبهِج. وبدل أن تُحصي ما تساقط منها من ثمار، مضت تعمّق جذورها في رحم الأرض. فقد كانت تعلم بحكمتها الفطريَّة أنَّ ما يُفقَد فوق الأرض، لا يُمكن تعويضه إلَّا في العمق.

أعدَّت نبيلة نفسها للخسائر منذ الصغر. «ما تتكبَّروا على النعمة لأن رح يجي وقت ننحرم منها»، هذا ما كانت تقوله لبناتها الأربع حين يعترضن على الطعام. كانت تتوسَّل إلى أمِّها لتتحمَّل والدها الذي زاد تعنُّته في الكبر قائلةً «أبي ضيف بيناتنا، ما تقسي عليه، مش رح يعيش للأبد».

في آخر أيَّامه، حين كان أبوها مستلقيًا في المستشفي الحكوميّ ذي الجدران المدهونة بالبويا الزرقاء اللمَّاعة، كان يرفع رأسه عن الوسادة كلّ خمس دقائق، ويسأل نبيلة «إنتِ سَمَر؟» تُجيبه بصوتٍ هادئ «لا يا بيّي أنا نبيلة»، فيسألها «إيمتى رح تجي سمر؟»، فتُجيبه «بعد شوي». كرَّر السؤال نفسه مرَّاتٍ لا تُحصى، وأجابته بالهدوء نفسه في كلِّ مرَّةٍ سأل فيها. لم تُخبره أنَّ أختها سمر لن تأتي أبدًا، ولا سألته لماذا تأخَّر سؤاله عنها لأكثر من ثلاثين عامًا. مات بعد شهرَيْن من خروجه من المستشفى.

نبيلة، التي كانت خبيرةً في ابتلاع الغصَّة لحماية الآخرين من

الألم، كانت تعرف ما عجز معظم الأشخاص عن معرفته: إنَّ الجميع مثقلون بالخيبة والارتباك، وإنَّ الحياة أسرع من أن يراجع المرء نفسه، أسرع من أن يتعلَّم من خطئه، فبينما ينشغل بإصلاح أخطاءٍ قديمة، يقع منوّمًا في أخطاءٍ لم يكن يعرف عنها شيئًا.

رصَّت كرات العجين بشكلٍ دائريٍّ في وعاء الألمنيوم المستدير وغطَّته بخرقةٍ مبلولة. سوف تنتظر ساعتَيْن قبل أن تبدأ بصناعة مائتي رغيفٍ من الخبز على الصاج، فقد وصلتها طلباتٌ كثيرةٌ هذا الأسبوع. في الخارج كانت أزهار عصا الراعي البرِّيَّة التي تنبت في الأصص الفخَّاريَّة المحيطة بالفناء تتراقص وراء عليّ، مرَّةً في الأصص ومرَّةً أخرى من خلال ظلالها على الأرض. راقبت ظلَّ زوجها أيضًا وهو ساكنٌ فوق كرسيِّه القماشيّ. لا شيء يتحرَّك في ظلِّه سوى كُمّ قميصه الفارغ الذي يتمايل مع نسمة الهواء.

لطالما خافت نبيلة على عليٍّ من لدغات الأفاعي وأوصته أن يتفحَّص جزمته قبل أن ينتعلها خشية أن يكون قد اختبأ فيها أحد العقارب. لطالما حذَّرته من مشاوير الصيد عند الفجر بعد أن أُصيب بعض الصيَّادين جرَّاء إطلاق النار على بعضهم بعضًا بالخطإ بدل قنص العصافير. حذَّرته من كلِّ شيءٍ إلَّا من مخاطر استخدام الجرَّار الزراعيّ اليدويّ. «الحمد لله بعده طيِّب»، قالت نبيلة باكيةً حين أخبروها على الهاتف أنَّهم اضطرُّوا لبتر ذراع عليٍّ بعد أن علق كمّه بين شفرات الجرَّار وهو يحاول إزالة حجرٍ من طريقه.

كانت الحياة أسهل عندما كان لعليٍّ ذراعان، فقد كان

يساعدها على حمل أوعية العجين إلى غرفة الخبز حيث تتكدَّس أكوام الحطب بجوار موقد الصاج، وينقل معها كومة الأرغفة الكبيرة إلى غرفة العجين حيث تقوم بتوضيبها، وكان أحيانًا يصبُّ لها المتّة وهي تقطِّع الخضار أو تدقّ السمَّاق. ولكنَّ الأهمّ من كلِّ هذا أنَّها كانت تسمح لنفسها بتوجيه الانتقادات له حين يقصِّر معها، وبتصويب قراراته حين يخطئ. فكَّرت وهي تكنس بقايا الطحين من فوق الطاولة: كم من السهل أن تناكف شخصًا تراه ندًّا لك، وكم يصبح الأمر صعبًا عندما ترى الآخر ناقصًا أو أقلّ شأنًا منك بأيِّ شكل. أدركَتْ قبل شهرٍ واحدٍ من عيد زواجهما الخامس والأربعين أنَّ تلك الخلافات أيضًا كانت رفاهيَّةً لم تعد في متناولها الآن.

حين اقتربتْ منه لاحظتْ أنَّه يغطّ في النوم. أمعنت النظر في وجهه، جبينه المرتفع، أنفه الرفيع، شاربه الذي طغى البياض عليه. متى أصبح هذا الوجه الثابت الوحيد في حياتها اليوميَّة؟ أنزلت نظرها إلى يده الخشنة المرتاحة فوق ركبته، ولاحظت أنَّ تقوُّس خنصره قد ازداد مع العمر. شعرت برغبةٍ في لمس تلك اليد التي تعرفها جيِّدًا، أرادت أن تقول «يلعن أبو الزعل يا عليّ، خلِّينا نعيش يومَيْن على رواق»، أن تتغاضى عن كلِّ ما لم تقله وكان يثقلها لسنوات. ملأ نيسان قلبها بشعور البدايات الجديدة. ربَّما أصبحت قادرةً على الغفران لأنَّها لم تعد تريد منه شيئًا، لقد قبِلته أخيرًا كما هو وكفَّت ـ منذ عدَّة سنوات ـ عن محاولاتها لاختراق عالمه الذي تخيَّلته يتمحور حول الكابلات والبراغي والعزقات. قرَّبت يدها من يده أكثر وقبل أن تلمسه فتح عينَيْه.

«حكيتي معي؟» سأل مذعورًا.

أرجعت نبيلة يدها في لمح البصر. «كم مرَّةً قلت لك ما بقى تلبس هيذي الطاقيَّة؟ ليك ما أحلاه الطقس دافي» قالت، ثم أضافت بنبرةٍ ودِّيَّة «بتِجي نشرب متَّة قبل ما يتخمَّر العجين؟» فهزَّ رأسه موافقًا.

وصلت الهواتف الجوَّالة إلى القرى منذ حوالى عشرين سنةً وبثَّت القلق في أوساط رجال الدين. في البدء مُنع المشايخ من اقتناء الهواتف، ولكنَّ تأخُّر وصول شبكة الهواتف الأرضيَّة إلى القرى الجبليَّة حتَّم على الرجال اقتناء الهواتف النقَّالة من أجل أعمالهم. أصبح معظم الذين يعملون في تركيب الجفصين وتلبيس الحجر وورش الكهرباء يعتمدون على اقتناء هواتف للتواصل مع الزبائن والمتعهِّدين. كلّ هذا حدث من دون مواجهاتٍ مع شيخ الضيعة، ومُرِّر عن طريق المداراة والمغمغة. في مساء أحد أيَّام الخميس المخصَّص للعبادة وقف ريدان ـ شيخ المجلس المتشدِّد ـ وطلب من الرجال الذين يحملون الهواتف أن يغادروا:

«يلِّي معو تلفون يتفضَّل بلا مطرود» قال وهو يجول بنظره على الحاضرين، وعندما وقف أكثر من نصف المشايخ واستعدُّوا للمغادرة، غيَّر رأيه وطلب منهم أن يعودوا إلى أماكنهم وشرح لهم أنَّ هذه الهواتف تمكِّن صانعيها الغربيِّين من التنصُّت على قراءاتهم من كتاب الحكمة المقدَّس، وأنَّ إقفال الهاتف لا يكفي كي يمنع التنصُّت. لذا فقد طلب منهم فصل البطَّاريَّة عن الهاتف بشكلٍ

كاملٍ حتى يستأنف القراءة. هزَّت نبيلة رأسها عندما أخبرها عليٌّ بما حدث:

«إنت بتعرف إنُّو هذا الكلام مش مظبوط، صحّ؟» سألتْ عليًّا بنبرة استجواب.

«ليش مش مظبوط؟ صار لنا ألف سنة محافظين على سرِّيَّة ديننا، طبيعي بَدّهم يعرفوا شو مكتوب بكتُبنا» قال وهو يعدِّل طاقيَّته.

«مين هم يا علي يلِّي بدن يعرفوا؟ ممكن حدا يسمِّي الجهة يلِّي داوشة حالها بالاختراعات حتى يكشفوا أسرار ديننا؟» قالت بانفعالٍ وهي تضع يدَيْها على خاصرتَيْها.

«إذا إنتي نسيتي التاريخ أنا ما نسيت، ولا بنسى روح المرحوم أخي»، قال وكان يرمي إلى التاريخ الحافل بالاضطهاد والتهجير الذي تعرَّض له الدروز منذ ألف عام، وإلى استشهاد أخيه الوحيد عماد والتمثيل بجثّته في الحرب الأهليَّة اللبنانيَّة.

همَّت بالدفاع عن وجهة نظرها، لكنَّها صمتت فجأة. انتظر عليّ قليلًا، ولمَّا لم تقل شيئًا أضاف:

«قولي إنُّو بيهمّك تعترضي وارتاحي وريحيني» قال باستعلاءٍ وهزَّ رأسه مستنكرًا قبل أن يغادر الغرفة.

لم يكن هدفها الاعتراض بقدر ما كانت تريده أن يتحرر من مخاوف الماضي وقيوده. فهي، شاءت أم أبت، أصبحت امتدادًا له. لم يكن قد مضى على زواجها عدَّة أشهرٍ عندما قالت أمّ زوجها لأحد الضيوف «ما رح تمشي بلا أكل، هلَّق مَرَتْ علي

بتجهّز غداء». للوهلة الأولى لم تدرك أنَّها الآن أصبحت زوجة عليّ وكفَّت عن كونها نبيلة. ربَّما غُرست بذرة الاعتراض داخلها في تلك اللحظة، لكنَّها لم تنبت إلَّا بعد سنوات. أدركت أنَّها ـ إن كانت ستصبح امتدادًا له ـ فعليها أن تحوِّله إلى ما يرضيها.

غضَّ شيخ الضيعة وجواسيسه النظر عن موضوع الهواتف النقَّالة لعدَّة سنوات، لكنَّ انتشار الهواتف الذكيَّة أعاد الموضوع إلى الصدارة. لقد أدخلت تلك الهواتف الصورة والصوت إلى بيوت المشايخ الذين حُرِّم عليهم اقتناء التلفاز منذ دخوله القرى في نهاية السبعينيَّات. «الخلاعة والإباحيَّة نفسها يلِّي تفادوناها بالتلفزيون هلَّق صارت متاحة بجيب كلّ شيخ» قال الشيخ ريدان غاضبًا، وبدأت إثر كلامه حملة مراقبة أجهزة الراوتر فوق سطوح المنازل والكابلات التي تنسلّ من على السطوح بطريقةٍ خفيَّةٍ ليتمّ وصلها بالمودم داخل البيوت.

حصل عليّ على أوَّل هاتف جوَّال كهديَّةٍ من صهره المغترب الذي تزوَّج ابنته الثانية وهاجر معها إلى الولايات المتَّحدة. قبل صدور قرارالمشايخ بمنع الهواتف الذكيَّة في 2013، كان عليٌّ قد أدمن مشاهدة فيديوهات خطوط الإنتاج على يوتيوب. «ليكِ كيف بيصنعوا البوظة تعي شوفي يا نبيلة»، كان يهتف ببهجةٍ وهو يراقب ألواح البوظة تتشكَّل وتنحدر على الأحزمة لتنتقل إلى آلةٍ أخرى، تُغرز خشبةٌ في جنب كلِّ لوحٍ فتأتي مئات الملاقط المعلَّقة ببكرةٍ علويَّةٍ ليمسك كلّ ملقطٍ بخشبة، تمرّ بعدها ألواح البوظة فوق خزَّان شوكولاتة، تنخفض الملاقط لتنغمس بالشوكولاتة، ينقل السير المتحرِّك الملاقط لتأتي أخيرًا مرحلة تعبئتها وختْمها.

وهكذا تعرَّف عليٌّ على صناعة كلّ ما لا يخطر ببال قرويٍّ من الموادِّ الغذائيَّة والمعدَّات ـ ابتداءً بالصغيرة اليدويَّة حتى تصنيع السيَّارات والطائرات. واستفاد أيضًا من هذه الڤيديوهات في تطوير ورشته، إذ تعلَّم كيف يصنِّع قطعًا مفقودةً من بعض الإلكترونيَّات أو الاستعاضة عنها بحيلةٍ ما. كما استمتع بالجلوس مع أحفاده ومشاهدة الرسوم المتحرِّكة معهم في ليالي الشتاء الطويلة.

جنَّ جنون نبيلة حين أخذ عليٌّ مقصّ البستنة واتَّجه إلى سطح المنزل في إحدى الليالي وقطع السلك الذي يزوِّد المنزل بخدمة الإنترنت. حين دخل إلى المطبخ كان شيءٌ من علامات الغرور يتجلَّى على وجهه: «الحمد لله ربِّ العالمين ألهمني أقوم بالعمل الصحيح»، قال بعد أن تنحنح وجلس على الكنبة باستقامةٍ كأنَّه محاربٌ عاد لتوِّه منتصرًا من الجبهة.

«أنا شريكتك أو خادمة بالبيت يا علي؟» سألت نبيلة بهدوءٍ لا يُشبه الغليان الذي كانت تشعر به.

«شو قصدك؟» قال وقد تخلَّى عن شيءٍ من الفخر الذي كان ظاهرًا على وجهه حين دخل.

وضعت نبيلة كوز الكبَّة الذي كانت تليِّنه بين أصابعها وانتفضت واقفة: «ما فكَّرت إنُّو عندي بنات بالغربة بدِّي اتطمَّن عنهن وأسمع صوتهن؟ ما خطر عبالك تسألني عن رأيي من باب اللياقة قبل ما تقصّ السلك؟ شو هالتجاهل بحقِّي يا علي؟» سألت ثم حدَّقت بالأرض مطوَّلًا.

«المشايخ قالوا كلمتهم ونحنا علينا بالسمع والطاعة. انتي شيخة وعارفة إنَّ العمل بالرأي والقياس لا يجوز».

هكذا كانت تصدر القرارات في القرية بشكلٍ اعتباطيٍّ بين ليلةٍ وضحاها، لكنَّ الكثير منها كان إمَّا يُنسى وإمَّا يُتحايل عليه، لأنَّ كلَّ القواعد التي تُفرض برقابةٍ خارجيَّةٍ يتمُّ خرقها حين تغيب هذه الرقابة. غسلت نبيلة يدَيْها وجلست تتذكَّر سهرات منتصف التسعينيَّات حين كانت هي وعليٌّ يطاردان الحبّ وأحلامه الورديَّة في المسلسلات المكسيكيَّة المدبلجة، فيقصدان منازل الأصدقاء والجيران الذين يمتلكون تلفازًا كي يتابعوا تلك الحلقات. تأخذ نبيلة ابنتَيْها الصغيرتَيْن أمل وسناء وتعود بهما نائمتَيْن ومحمولتَيْن، واحدةٌ على كتفها والثانية على كتف عليّ، فيما تنتظرهما ابنتاهما الكبيرتان أسمهان ونرمين في البيت.

لم تكن تعلم حينها أنَّها ستحنّ يومًا ما إلى تلك الليالي. اجتاحتها موجةٌ دفينةٌ من الحزن الممزوج بالخوف حين فكَّرت أنَّ تلك السهرات ربَّما كانت ـ على بساطتها ـ أجمل ما حظيت به في حياتها، كأنَّها اكتشفت للتوّ نسخةً قديمةً من عليٍّ لم تنتبه إلى وجودها إلَّا حين غابت: هل حقًّا كان يحرص زوجها على مشاهدة تلك المسلسلات مثلها، أم أنَّه كان يفعل ذلك لأجلها؟ تذكَّرته وهو على عتبة الأربعين حين كان أكثر مرحًا وعفويَّةً وأقلَّ رعبًا من سلطة المشايخ.

ناولته نبيلة آنذاك مئة دولارٍ أستراليّ، «هذا المبلغ اعطتني ياه أختي سمر كرمال نشتري تلفزيون صغير أبيض وأسود» قالت لعليٍّ بشيءٍ من الرجاء وأضافت «إذا حدا من المشايخ عرف بنقول

التلفزيون لأسمهان». كانت ابنتهما الكبرى قد بلغت الخامسة عشرة عامًا وأصبح من حقِّها، بحسب الأعراف، أن تختار مسلك الدين وتصبح شيخةً أو تظلّ جسمانيَّةً فتتحرَّر من التقشُّف الذي يفرضه المشايخ على أنفسهم.

تفادت نبيلة الصدامات مع الأعراف والقوانين دومًا عن طريق تخطيطٍ ذكيٍّ لمشاريعها وإيجاد حلولٍ مسبقةٍ لكلِّ المشاكل. تردَّد عليٌّ في القبول في البداية، ثم قال «بس بلا ما نحطّ أنتين هوائيّ عالسطح» قال بنبرةٍ نقلته من موقع المأمور إلى موقع الآمر في لحظة. ابتسمت له «إيه ما بيأثّر». وهكذا أصبحا يُغلقان الستائر ويجلسان مع بناتهما على الأريكة الخشبيَّة ويشاهدون المسلسلات اللبنانيَّة والبرامج الترفيهيَّة حين يسمح الطقس بذلك. كانت أسمهان هي المسؤولة عن وضوح الشاشة فتربط أنتين التلفاز بسلكٍ معدنيٍّ أو تضع عليه قطعةً من ورق الألمنيوم وتتجوَّل في الغرفة حتى تتَّضح الصورة كما نصحتها إحدى صديقاتها. أحيانًا كانت تضطرّ إحدى البنات أن تظلّ واقفةً وهي تمسك بالأنتين طوال الوقت كي تحافظ على وضوح الصورة. لكنَّ تلك الفرحة لم تدم طويلًا.

في العام نفسه، وقُبَيْل عيد الأضحى بأيَّام، مدَّت نبيلة سفرة العيد ووضعت عليها الكعك والمعمول الذي استغرق تجهيزه عدَّة أيَّام، كما أتى عليٌّ بالفاكهة من حقله، وقامت بناتها بطيِّ المناديل القماشيَّة ـ التي احتفظت بها نبيلة منذ زفافها ـ وساعَدْنها في التحضير استعدادًا لزيارة المشايخ.

كان للشيخ أبو طاهر ـ شيخ المنطقة الجليل ـ والذي ذاع

صيته بين جميع اللبنانيِّين ـ مكانةٌ عاليةٌ في وجدان نبيلة. اعتادت أن تقصد منزله وهي صغيرةٌ ليشفيَها من «متلازمة السؤال» كما كان يقول ضاحكًا. كان عطوفًا معها وأجابها عن كلِّ أسئلتها بحكمةٍ وبكثيرٍ من الصبر. لا تزال حتى هذا اليوم تتذكَّر إجابته التي طالما تردَّد صداها في داخلها حين قصدته وهي في الرابعة عشرة لتسأله عن علاقة فنجان القهوة بأقدار البشر.

في ذلك الوادي العميق حيث وُلدت نبيلة وكبرت، لم يكن المستقبل موجودًا إلَّا في قعر فناجين القهوة خلال جلسات النساء الصباحيَّة. عدلت أمّ أسعد كرسيَّها وأزاحت طرف المنديل عن فمها حتى توضِّحَ كلامها وهي تقرأ الفنجان لوالدة نبيلة. لكزت نبيلة شقيقتها سمر بكوعها كي تصمت وتصغي حين همَّت أمّ أسعد بالكلام. فمنذ تنبَّأت أمّ أسعد بالفيضان الكبير الذي اجتاح القرية قبل خمس سنوات، أصبح الجميع يصغي إليها، حتى أولئك الذين لا يؤمنون بالتبصير وقراءة المستقبل. «في غيمة سودا فوق بيتكن يا مهيبة! الله يستر»، مدَّت رأسها وأشارت برأس إصبعها الملتوي إلى بقعةٍ سوداء في الفنجان. كانت نبيلة تصغي باهتمامٍ وترقُّبٍ جعلا قلبها يخفق بشدَّة. لم يُبهرها شيءٌ في عالم الكبارِ بقدر ما أبهرتها كلمات قارئات الفنجان.

أن نرى المستقبل بعَيْن البُنّ هو أمرٌ ساحرٌ وغامضٌ يشبه ترتيبنا للنجوم في السماء لتطابق رسمةً في أذهاننا. مهما لمعت النجوم لا يمكنها أن تُرينا ما لا نعرف. بجملهنَّ المقتضبة ونظراتهنَّ التي تفكّ الصور وتجدِّل المعاني، كانت قارئات الفناجين في نظر نبيلة خارقاتٍ ومبهرات. يخلقن أقدارًا من وحل

المخاوف، ويُخرجن من كلِّ فنجان ـ بحكم الكياسة ـ خبرًا أبيضَ أو اثنَيْن.

«في حمامة بيضا عم تحوم فوق راسك» قالت أمّ أسعد.

«هذي روح المرحومة أمّي مين غيرا؟!» ردَّت مهيبة وهي تهزّ رأسها؛ أو «في رِزقة جايتكن بالطريق بسّ في قدّامها إشارتَيْن». الإشارة هي يومٌ أو أسبوعٌ أو سنة.

الانتظار ملح القرويِّين ووعد من لا حيلة له. حين انتهت أمّ أسعد من قراءة الفنجان مدَّت يدها وقالت لمهيبة «اضمري»، فطبعت مهيبة إبهامها في الفنجان وزمَّت شفتَيْها على أمنيةٍ في بالها. الضمرة هي الفرصة الأخيرة لاستنطاق البنّ وتوسُّله. هكذا كانت الجارات يلقِّمن بعضهنَّ الأمل بيدٍ ويقلِّبن النار تحت مخاوف بعضهنَّ باليد الأخرى.

قبل أن تخرج أمّ أسعد، استغلَّت نبيلة انشغال والدتها مع بائعٍ متجوِّلٍ في الخارج لتطلب من قارئة الفنجان أن تقرأ لها فنجانها. اتَّفق النسوة في القرية على أنَّ قراءة الفنجان يجب أن تكون للكبار فقط، لكن نبيلة توسَّلت إليها ووعدتها أنَّها لن تخبر أحدًا. بعد تردُّدٍ لم يدم طويلًا، أخذت أمّ أسعد الفنجان وألقت عليه نظرةً خاطفةً ثم قالت «قدَّامك طريق طويل، وبهالطريق رح تلتقي بطير ما إلو إسم، راسه أبيض وجناحاته سود»، هذا كلّ ما تمكَّنت من قوله قبل أن تعود مهيبة من الخارج وتضع أمّ أسعد الفنجان من يدها.

في المساء، دوَّنت نبيلة في دفترها الصغير: «طير ما إلو

إسم، راسه أبيض وجناحاتو سود». بدت لها الجملة كمطلع أغنيةٍ لفيروز، وتساءلت كيف لأمٍّ أسعد الأمِّيَّة أن تصوغ جملةً كهذه، ثم تساءلت ما إذا كانت تلك الجملة، مثل النجوم في السماء، تمنحنا ما نعرفه فقط. شَغل طائر البنّ ذاك بال نبيلة وما شغل بالها أكثر هو انجذابها إلى قراءة الفنجان.

أمام باب شيخ المنطقة عدلت نبيلة منديلها وشَدَّت جانبَيْه بربطهما تحت عنقها. تردَّدت قبل أن تطرق الباب ثمّ أغمضت عينَيْها وكزَّت على أسنانها وطرقته. أطلَّت الستّ أمّ طاهر من الرواق بابتسامتها المرحِّبة وعينَيْها اللطيفتَيْن: «أهلًا حبيبتي نبيلة اتفضَّلي فوتي. كيفا إمِّك؟ بكن شي؟». لم تكن نبيلة تقصد هذا المنزل إلَّا لتأتي بالفواكه التي ترسلها أمّها لبيت الشيخ من أجل أن تحطَّ البركة في الموسم أو لتطلب من الشيخ أن يرقي مريضًا في عائلتها على حبَّة فستقٍ أو كسرة خبز. وقفت نبيلة متلعثمةً ثم قالت «قاصدة حضرة الشيخ بو طاهر بسؤال». ابتسمت أمّ طاهر «حضرة الشيخ عم يقرا فَرْضُه.. انطري شوي هلَّق بيخلص».

جلست نبيلة في الرواق الإسمنتيّ وراء صحن الحلوى الذي وضعته لها أمّ طاهرٍ وبلعت ريقها. كان هناك رفاهيَّةٌ غريبةٌ على نبيلة في بيت الشيخ حيث النسمات الربيعيَّة تسرح وتحثُّها على النوم. البيت هادئٌ ونظيف، لا يشبه الغرفة الوحيدة التي يتألَّف منها بيتهم والأشبه بحفرةٍ لا ترى الشمس صنعها خِلدٌ أعمى في أسفل الحائط. ربَّما السبب هو غياب الأطفال عن بيت الشيخ، فكَّرت نبيلة. فالشيخ أبو طاهرٍ لم يكن أبًا يومًا لأنَّ طاهرًا غير موجودٍ إلَّا في كنية الشيخ، ولأنَّ زواجه من أمّ طاهرٍ هو «جيزة

نظر». ستفهم نبيلة لاحقًا عندما تتزوَّج أنَّ زواج النظر لا يتضمَّن علاقةً جنسيَّة، وهو نهج من اختاروا الآخرة من الأجاويد وتركوا الدنيا بمالها وبنيها للآخرين.

قطع صوت طَرَقات عصا الشيخ أبو طاهرٍ على الأرض أفكارها. حين أطلَّ من الغرفة الجوَّانيَّة حيث يقضي معظم ساعات نهاره في التعبُّد وقراءة كتاب الحكمة، وقفت نبيلة وشبكت كفَّيْها «كيف حال حضرتك؟ بَدِّي صفو خاطرك» تمتمت وهي تنظر إلى الأرض. «اتفضَّلي يا بنتي شو بتريدي؟». شعرت نبيلة بالحرج وكأنَّها أدركت للتوِّ أنَّ السؤال الذي جاءت من أجله غبيٌّ وتافه. أرادت أن تخترع سببًا آخر لزيارتها لكنَّها فشلت. «تكلَّمي يا بنتي» قال الشيخ بهيبته المعهودة. تلعثمت قليلًا «بدِّي أعرف إذا الفنجان بيُصدُق حضرة الشيخ؟» ابتسم أبو طاهرٍ ومسح على لحيته البيضاء الطويلة.

«الفنجان لا يكذب ولا يقول الحقيقة. هو قطعة خزفٍ تحمل لنا أيّ سائلٍ نسكبه فيها. من يكذب هم البشر ومن يُصدِّق الكذبات هم البشر أيضًا» قال وقد رفع جاجبَيْه كأنَّه راضٍ عن جوابه. وقفت نبيلة تعلن نهاية زيارتها وكأنَّ الجواب كان شافيًا.

«هل هذا كلّ شيءٍ يا ابنتي؟» سألها أبو طاهر. هزَّت نبيلة رأسها.

«الله يطوِّل بعمرك يا شيخ بدنا صفو خاطرك».

انسحبت من الغرفة وانتعلت خفَّها البلاستيكيّ الرخيص الذي تركته عند العتبة وعادت إلى المنزل.

تعلَّمت نبيلة منذ ذاك الربيع أن تهجر السؤال في منتصفه. أن تحمي ما تحبّ بهشِّ الأسئلة عنه. السؤال، ذلك الصيَّاد الذي كاد أن يخطف طائرها الأبيض ذا الأجنحة السوداء، كاد يقتل الطائر قبل أن تجد له اسمًا. فهمت يومها أيضًا أنَّ الشيخ أبو طاهر إنسانٌ حكيمٌ وأنَّ داره براحٌ آمنٌ لتفرغ من جيوبها الأسئلة التي تجمعها عبر الأيَّام.

ظلَّت نبيلة لسنواتٍ عديدةٍ تتذكَّر تلك الزيارة لبيت الشيخ ولا تعرف لماذا توقَّفت عن طرح الأسئلة. تعلَّمت من الشيخ الحكيم أنَّ بعض الأسئلة يجب أن تبقى بلا إجابات، هكذا ظلَّت أسرار الفنجان والنجوم حيَّةً في قلبها فقط.

في عيد الأضحى سنة 1994 كان الفرحُ طائرًا يرفرف بين ضلوع نبيلة وهي تراقب من النافذة وفد المشايخ بلفَّاتهم البيضاء وهم يطوفون على بيوت مشايخ الحيِّ لمباركتها. توسَّط الوفد الشيخ أبو طاهر بلحيته البيضاء الطويلة وعباءته السوداء التي تغطِّي قامته النحيلة وظهره المقوَّس. تأبَّط ذراعه اليمنى الشيخ ريدان، خليفته المنتظر، وأمسك بيده اليسرى شيخٌ آخر من أقربائه.

هرعت نبيلة تطلب من عليٍّ ملاقاتهم عند مدخل الفناء، ووقفت هي أمام باب البيت عاقدةً يدَيْها أمامها، تحت منديلها الطويل، متمتمةً العبارات التي ستستقبلهم بها منتظرةً أن تحطّ البركة في بيتها. لكنَّ وفد المشايخ تجاوز بيت عليٍّ مثل سرب طيورٍ مهاجرٍ حادَ عن مساره. «لا تواخذونا يا جماعة، تأخَّر الوقت والشيخ تعبان شوي»، همس أحد المشايخ لعليٍّ محاولًا مواساته. كانت تلك آخر زيارات الشيخ أبو طاهر الذي اعتكف

في منزله بعد ذلك حتى مماته بعد أن تجاوز المائة عام.

علموا لاحقًا أنَّ هذا كان العقاب الذي أنزله الشيخ ريدان بعليٍّ ونبيلة لتجرُّئِهم على اقتناء تلفاز. كان وقتها يتصرَّف كإلٰهٍ ويتحكَّم في معظم قرارات أبي طاهر الذي نأى بنفسه عن النقاشات والصراعات. لا أحد عرف من وشى بهم ولا اشتكت نبيلة للشيخ أبي طاهر أنَّ الشيخ ريدان تغاضى عن وجود التلفاز في منازل بعض أقاربه المشايخ ولم يمانع زيارة الشيخ أبو طاهر لتلك المنازل.

ظلَّت نبيلة لسنواتٍ تقول إنَّ عدم زيارة الشيخ أبو طاهرٍ لها قبل مماته هو غصَّة حياتها الكبرى. لكنَّها اليوم يمكنها أن تضحك على هذه الفكرة، لأنَّها أدركت أنَّ صمتها وجُبنها كانا مصدر غصَّتها. ستفهم لاحقًا أنَّ الألم الحقيقيّ لا يأتي من الآخرين بقدر ما يأتي من اهتزاز صورة المرء أمام نفسه حين يتخاذل في الدفاع عنها، وستدرك أيضًا أنَّ ما جرى لأختها سمر وهبها صوتًا وإرادةً وشخصيَّة. تخجل نبيلة بعد كلّ تلك السنوات من مواجهة نفسها بهذه الحقيقة.

2

احتفظت نبيلة بفنجان القهوة المقلوب في الثلّاجة لعشر سنوات. كان آخر فنجانٍ ارتشفته شقيقتها سمر في آخر زيارةٍ لها من أستراليا. لا زالت تذكر العَكَر الذي رأته في قعر الفنجان في ذلك النهار وكيف تظاهرت أمام عيني سمر الزرقاوَيْن المليئتَيْن بالترقُّب والأسئلة أنَّ الفنجان «أبيض» ويَعِدُ بكلِّ خير.

«طريقك مفتوح يا إختي وكلّ شي مسهَّل إذا الله راد»، قالت وهي تنظر إلى قعر الفنجان محاوِلةً إخفاء قلقها. كانت قد تعلَّمت حيلة التظاهر هذه في صغرها يوم اكتشفت أنَّ في قعر فنجان القهوة يصبح للحلم لجام، وتتحوَّل القارئة إلى فارسة.

منذ طفولتها كانت نبيلة تقرأ الفناجين لأختَيْها وصديقاتها سِرًّا بعد أن تعلَّمت تلك المهارة من الساعات التي أمضتها وهي تصغي خلسةً إلى النساء وهنَّ يقرأن الفناجين. وبعد أن يغادرن كانت تأخذ فناجينهنَّ بحجَّة غسلها وتدرسها لتقارن ما سمعته بطلاسم

البنِّ المتداخلة. ولفرط ما كانت تتحقَّق نبوءات فناجينها أصبح الجميع يخاف من حدسها.

«يا بنت تعي لهون بدِّي أقصف عمرك» قالت أمّها مهيبة وهي تشدّ نبيلة من أذنها، وأضافت:

«شو شفتي بفنجان أبو سامي؟».

أطرقت نبيلة ولم تقل شيئًا. فهي لا تعرف مَن مِن أختَيْها أخبرت أمَّها أنَّها بعد زيارة أبو سامي الخاطفة لوالدها قلبت فنجانه وقرأته قبل غسله، وأنَّها رأت فيه مصيرًا أسود.

«سامحيني كنت عم إتسلّى. عمِّي أبو سامي جويِّد، الله ما بيقدِّر يصرلو شي» قالت نبيلة معتذرة.

كان مطر تشرين الأوَّل قد أخرج الحلازين من باطن الأرض وراح الرجال الذين يسترزقون من موسمه القصير يسرحون في الجبال المجاورة ليملؤوا سلالهم بها ويبيعوها لمحبِّي هذه الأكلة. لكنَّ أبا سامي خرج منذ الصباح ولم يعد. فتفرَّق رجال القرية للبحث عنه في الحقول والأحراش المجاورة قبل أن ينسحب الشعاع الأخير من شمس تشرين الضعيفة.

أنارت قناديل الكاز الحرش المقابل لضيعة تلِّ الخرُّوب وبدا الجبل الغارق في الظلام مثل قطعةٍ هاربةٍ من سماءٍ وفيرة النجوم. عاد المطر ينهمر بغزارةٍ ليبتلع أصوات الرجال وهم يندهون على أبي سامي بحرقة. وقفت نبيلة على سطح البيت تحت المطر مطوَّلًا. كلّ هذا القلق لم يشكِّل عازلًا بينها وبين جمال منظر الجبل المرصَّع بعشرات الفوانيس؛ المنظر الذي لن يتكرَّر أبدًا، والذي سيعيش في ذاكرتها ما حييت. أغمضت عينَيْها وهمست

«سامحني يا بو سامي. الله يرحم روحك».

في الصباح استفاقت الضيعة على خبر وفاته. عثروا عليه في الحرش بفمٍ مفتوحٍ يملؤه الماء، وسلّةٍ تفرّ منها الحلازين. عوقبت نبيلة بحرمانها من لمس فناجين القهوة، على الأقلّ في وجود والدتها.

حدسها الذي أنبأ بالموت مرَّة، أنبأ بفرح إحدى جاراتها مرَّةً أخرى وبولادة طفلٍ لامرأةٍ كانت عقيمًا مرَّةً ثالثة؛ وهكذا تهافتت عليها الجارات وأتين بها إلى بيوتهنَّ بحججٍ مختلفةٍ لصرف نظر والدتها عن السبب الحقيقيّ لتلك الزيارات.

زاد الطلب على نبيلة في مواسم الزيتون والعنَّاب حيث تأتي أسراب العمَّال السوريِّين لمساعدة الأهالي في حصاد محاصيلهم، ويتبع ذلك قصص حبٍّ تعصف بالقلوب النديَّة لفتياتٍ لم ينظر إلى عيونهنَّ أحدٌ من قبل. قصص حبّ، عمرها من عمر الموسم، تعطي لوجع الفتيات القديم مبرِّرًا، فيحوِّلنَها إلى حكاياتٍ صامتةٍ ترافقهنَّ طول العمر. تُسكِن كلٌّ منهنَّ حبيبها في حكايتها وتَسكُن هي في بيت رجلٍ غريبٍ يختاره لها والداها.

ومع ذلك، فَتَحْن صدورهنَّ للريح وسمحن للحبِّ المستحيل أن يرفعهنَّ إلى السماء ليصطادهنَّ الفراقُ في آخر موسم العنَّاب وينزلهنَّ على أسفلت الواقع مثل طيورٍ جريحة. تزامنت نهاية الموسم في تشرين مع تمارض كثيرٍ من الصبايا اللواتي لازمن الفراش لتفريغ دموعهنَّ بعيدًا عن مراقبة الأمَّهات والأعمال

المنزليَّة التي لا تنتهي. تظاهرن بالبرد والصداع، امتنعن عن تناول الطعام، وبكين أوجاعًا لا دليل عليها سوى تلك الحرقة التي لا تسكِّنها الأقراص المهدِّئة ولا يشفيها عشب الطيُّون. للحزن طقوسه التي يجب أن تأخذ مداها، ولنبيلة أساليبها الماكرة في تخفيف تلك المصائب العابرة.

تحت قنديل الكاز المطفَإ في غرفتهم الصغيرة، اعترفت سمر لأختها الصغرى نبيلة بأنَّها أيضًا تعيش قصَّة حبّ، وطلبت منها أن تقرأ لها الفنجان حين تذهب أمّهما إلى المرملة لتصنع الخبز في الصباح. سحبت نبيلة جسدها من تحت البطَّانيَّة واتَّكأت على كوعها.

«انتي كمان يا سمر علقتي هالعلقة؟ ما بتعرفي إنّ كلّ السوريِّين بيمشوا بسّ يخلص الموسم؟ أمِّي بدها تقبرك!».

رفعت سمر يدها ووضعتها على فم نبيلة لإسكاتها «لا يا مهبولة. يلِّي بحبّه درزي، وبدنا نتجوَّز» همست سمر في سواد تلك الغرفة الغارقة في عتمة وادٍ سحيق.

«بحبّه وبدنا نتجوَّز» جملةٌ أشبه بنجمةٍ سوف تلمع في فم كلِّ فتاةٍ ستخبر قصَّتهما في السنوات المقبلة؛ جملةٌ ستصبح تعويذةً لجلب غرائب الدنيا وشياطينها على كلِّ فتاةٍ تنطق أو تفكِّر بها.

في تلك البقعة من الأرض كان الحبّ كالماء يتسرَّب من البساتين مع مواسم الزيتون والعنَّاب، ومن الشبابيك المفتوحة حين تنسلّ أنغام الأغنيات من غرف شباب الحارة وتلقي بتعويذة عشقٍ في أذن صبيَّةٍ لم ينتبه لوجودها أحدٌ من قبل.

«أنا وعيونك الحلوة، نعيش قصَّة غرام حلوة

حرام نسكت على قلوبنا، حرام الشوق يدوّبنا»

تصيبها الكلمات في مكانٍ مؤلم وُلِد مع هذا النغم في اللحظة نفسها، كأنَّه سهمٌ جاء من شبَّاكٍ بيت الجيران ليُغرَس في جرحٍ لم تكن تنتبه لوجوده. هكذا اكتشفت سمر الحبّ كوجعٍ دفينٍ ولذيذٍ يأتيها على شكل أغنياتٍ عبرَ شبَّاك المطبخ حين تقف لتغسل الصحون.

بدأ الأمر منذ شهرٍ حين طلبت منها أمَّها أن تذهب إلى الجارة أمّ معروفٍ وتأتي لها بكاسة «رَوْبة لبن». لم تنظر سمر في المرآة قبل أن تغلق الباب وراءها. فلجارتهم شابَّان اختارا أن يحذوا حذو والدهما ويصبحا من الأجاويد، فحلقا رأسَيْهما ولبسا الثياب السود. هذا التخلّي عن الوسامة والالتزام بالدين كان بالنسبة لمراهقةٍ في عمر سمر وجمالها إلغاءً فوريًّا لأيِّ احتمالٍ للرومانسيَّة. لكنَّها حين طرقت باب الجارة، فتح لها شابٌّ أسمر طويل القامة شديد الوسامة، فارتبكت. وقفت أمامه للحظاتٍ شعرت خلالها كأنَّها فوق خشبة مسرحٍ وجمال هذا الشابّ يتكاثر على هيئة جماهير تنتظر منها أن تقول شيئًا. تنتظر منها بثيابها الرخيصة وحذائها المهترئ أن تتكلَّم لتبرِّر وجودها أمام الباب في هذا الهندام المتواضع. راحت عيناه تطوفان فوق وجهها محاوِلتَيْن التغلُّب على التعويذة التي لجمت لسانه. فتخيَّل نفسه نحلةً تحوم حول دبق عينَيْها الزرقاوَيْن وتحاول جاهدةً أن تمتصّ السكَّر من دون أن تنزلق إلى داخلهما وتلقى حتفها.

«أهلًا سمر تفضَّلي» جاء صوت الجارة أمّ معروفٍ كي يقطع عليهما هذا الصمت المُربِك. فألقى بنظرةٍ خاطفةٍ عليها قبل أن يعود إلى الداخل. «هذا إياد ابن أختي، جاي يزورنا من حاصبيًّا» أكملت الجارة لتوضِّح لسمر سبب وجود هذا الغريب. ولكنَّ سمر كانت بحاجةٍ إلى إيضاحاتٍ أخرى، لأن يخبرها أحدهم ماذا جرى للتوّ، لأن يتوقَّف تكاثر الأسئلة في رأسها: كم عمره؟ ما سرُّه؟ لماذا أثَّرت نظراته فيها بهذا الشكل؟ والسؤال الأهمّ، إلى متى سيبقى؟

لم تُخبر سمر أختَيْها بكلِّ هذا في الأسبوعَيْن الأوَّلَيْن. اكتفت بصوت عبد الحليم الذي يأتي عبر النافذة لينقلها إلى عالم بَنَته في خيالها، إلى بيتٍ في حاصبيًّا تعيش فيه مع إياد حياةً بعيدةً عن الضيعة، حياةً تسمح لعينَيْه بالتهام وجهها كلّ يومٍ دون خوف. مدفوعةً بالشوق إلى رؤيته، صارت تقوم بالأعمال المنزليَّة الخارجيَّة التي كانت تتجنَّبها سابقًا، فتسقي أحواض الورد أمام الباب وترشّ الماء فوق تراب الفناء وتنشر الغسيل فوق الحبال. وكذلك راحت تهتمّ بمظهرها وتسدل شعرها الطويل على ظهرها فيظهر الجزء الأكبر منه من تحت المنديل الصغير الذي تُجبرها والدتها على وضعه فوق رأسها.

أخبرت الجارة أمّ معروفٍ جميع نساء الحيّ عن ابن أختها إياد الذي أرسلوه إلى منزلها ليتأثَّر بولدَيْها ويتقرَّب من الدين. «أختي ما عرفت تربِّي» تقول أمّ معروفٍ لمهيبة بغطرسة، وتكمل «إبنها إياد بعيد عن الدين ولاحق الأحزاب. بعتولي ياه ليتأثَّر بولادي، بس مقضِّيها يسمع أغاني ورافض يسمع وعظ».

تظاهرت سمر بالانشغال وهي تستمع إلى هذه المعلومات عن الشابِّ الذي خطف قلبها وأدخلها في دوَّامةٍ من المشاعر لا تعرف كيف تتعامل معها. باتت الآن تعلم أنَّه مشاكسٌ وعنيدٌ وأنَّه يفضِّل أغاني عبد الحليم على الاستماع إلى الوعظ، وأنَّه بدل أن يتقرَّب إلى الله اختار أن يتقرَّب إليها وينشغل بها ويراقبها من وراء الشبابيك والستائر. يا لتلك الورطة الجميلة! ماذا لو غادر غدًا؟ ماذا ستفعل سمر بتلك الزوبعة التي عصفت بقلبها، وكيف لإحساسٍ بهذا الجمال أن يحمل المقدار نفسه من الوجع؟!

فوجئت سمر حين رأته منتصبًا بقامته أمامها عند عين الماء في الضيعة. شهقت حين اقترب منها وكادت أن تنزلق على أحجار الممرِّ الرطبة المؤدِّية إلى النبع. كانت الشمس تميل نحو الغروب، ومعظم الفلَّاحين الذين يعملون في الحقول على طريق النبع كانوا قد عادوا إلى بيوتهم. ولكن إياد حافظ على المسافة بينهما كي يحميها.

«كنت بانتظارك» قال بلهفةٍ وقد اختلط صوته بخرير المياه، وقبل أن ينتظر جوابها أكمل «رح فِل بعد يومَيْن، بس رح أرجع مع بيّي لاخطبك» صمت قليلًا وانتظرها لتقول شيئًا، ولكن رؤيته عن كثبٍ من دون سابق إنذارٍ أخرستها، فركَّزت نظرها على المياه المتدفِّقة من النبع.

«بعرف إنِّك بتحبِّيني متل ما بحبِّك. ما تقولي شي» قال قبل أن يُدير ظهره ويغادر.

بقيت هي متسمِّرةً في مكانها تحدِّق بنقطة التقاء الماء المتدفِّق

بالحوض الحجريّ القديم في الأسفل وكأنَّها اكتشفت النهر للتوّ.

في المساء تحت قنديل الكاز، اعترفت سمر لنبيلة بكلِّ شيء، وفي صباح اليوم الثاني حلَّ الجحيم ضيفًا عليها. استفاقت سمر في الثامنة صباحًا على يد أمّها تسحلها من شعرها لتخرجها من فراشها الأرضيّ حيث كانت تنام وسط أختَيْها. ثم جلست مهيبةُ على الأرض وراحت تلطم وجنتَيْها وتصيح «جبتيلي العار الله لا يوفّقك» ثم تصفع سمر وتصرخ بها «شو بدِّي قول لأبو ذوقان؟ بنتك عم تتحدَّث مع شباب على العين؟».

انزوت البنات الثلاث في ركن الغرفة المظلمة واستمرَّت مهيبةُ في تأنيبها لثلاثتهنَّ معًا: «البنات همهن للممات. إذا بشوف واحدة منكن برَّا الباب يا ويلها» ثم أغلقت باب الغرفة وخرجت إلى الحقل. حضنت نبيلة أختها سمر التي كانت غارقةً في دموعها، فتحوَّلت دموع الخوف والغضب إلى دموع حزنٍ هادئٍ وعميق.

تلك القرى البعيدة وسط الجبال التي يصفها سكَّان المدن بأنَّها هانئةٌ ومطمئنَّة، لا تُظهر قسوتها إلَّا لساكنيها. فبدل القاضي الواحد هناك قضاة، وبدل الوظيفة هناك وعورة الأرض ومزاجيَّة الفصول، وبدل غياب الألفة هناك غيابٌ للخصوصيَّة، وبدل عين الله الرحيمة هناك عيونٌ بعدد سكَّان القرية كلّها مكرَّسةٌ لترصد وتجلد وتحوِّل فريستها إلى مادَّةٍ ترفيهيَّةٍ تلوكها الألسن في ليل القرى الطويل.

والحبّ في القرى ظاهرةٌ خطيرة. فهو أشدّ خطرًا من الغيبة والنميمة، وأكثر تهديدًا للسلم الأهليّ من الطمع والتعدِّي على ممتلكات المستضعفين من الأرامل والقطايع، وأكثر شرًّا من الحكم على الآخر وإقصائه. الحبّ هو ذلك السرُّ القديم في النفوس والذي يذكِّر من يعيشون وفق كُتيِّب إرشاداتٍ بأنَّهم ما عادوا أحياءً منذ زمن، فيسرعون إلى ضبطه والتبليغ عنه بحججٍ تبدأ بالعادات والتقاليد وتنتهي عند الله.

أقبل إياد على مهيبةَ وهي تصنع الخبز في المرملة وحيَّاها. فجفلت حين رأته ورفعت سَتْحة منديلها لتغطِّي فمها بالكامل، ثم قطَّبت جبينها وردَّت التحيَّة بإيماءةٍ من رأسها. اقترب منها أكثر وجلس على الأرض قبالتها.

«قاصدك بموضوع خالتي أمّ ذوقان».

«أنا ما عندي صبي اسمه ذوقان، ابني اسمه إبراهيم، وهلَّق مشغولة» قالت بجفاء.

ابتسم ونظر في عينَيْها نظرة تحدّ: «أنا إياد عبد القادر ابن جمال عبد القادر وطالب القرب من بنتك سمر».

توقَّفت مهيبة عن تقليب النار إلى يمينها وعدَّلتْ جلستها. «ما عندي بنات للجيزة ووقفتك مع سمر على العَيْن خلِّتنا على كلِّ لسان. روح اسمع وعظ وتأدَّب وانتبه لدينك». قالت مهيبة بنبرةٍ عدائيَّةٍ وأكملت تشكيل الأرغفة.

تصارع الغضب مع الحزن في وجدان سمر في الأيَّام التي تلت تلك الحادثة. غاب إياد وغابت معه أغاني عبد الحليم

وشادية وعاد صمت الريف إلى بدائيَّته التي لا تتَّسع سوى للأصوات الأصليَّة: ضربة معولٍ فوق حجر، نقيق ضفادع، عطاس رجالٍ في البعيد، نباح كلب، صفيق راحتيْ امرأةٍ ترقِّق رغيفًا فوق طبليَّةٍ خشبيَّة، أزيز ذبابة، وصمتٌ ممتدٌّ من بدايةٍ لم يعد أحدٌ يذكر أوَّلها.

في المساء طبخت مهيبة دجاجةً اختارتها من بين دجاجاتها كقربانٍ لتكفِّر به عن عنفها وتُعيد تجميل صورتها كأمّ. لربَّما كانت تطعم الصوت المؤنِّب داخل رأسها ليصمت قبل أن يتحوَّل إلى شعورٍ بالذنب. فليس لتلك المشاعر متَّسعٌ في حيوات نساء القرى. الشعور بالذنب رفاهيَّةٌ وهو عارضٌ جانبيٌّ للتفكير، والتفكير عارضٌ جانبيٌّ للفراغ والكسل. أمَّا من تستيقظ في الخامسة صباحًا لتعجن وتحمل أوعية العجين فوق كتفها لتخبزها في الحرش، ثم تعود إلى الحقل لتنكش وتعشب وتسقي الزرع، فليس عندها وقتٌ للتفكير وتحليل المشاعر.

في جوٍّ من الصمت الثقيل قسَّمت مهيبة حصص الدجاج على بناتها بالتساوي، ووضعت لأخيهم إبراهيم ذي السنوات الستّ الكمِّيَّة نفسها التي وضعتها لأخواته. ولكنَّه رفض تناول الخبز مع حصَّته وحالما انتهى منها مسح فمه بكُمِّه وتوجَّه إلى سمر باكيًا ومشيرًا إلى حصَّتها. استغلَّت سمر انشغال والدتها في الخارج وابتسمت له «تعال يا حبيبي، كرشك الصغير ما شبع من الحصَّة نفسها يلي لازم تشبِّعني؟ تعال لطعميك» وما أن اقترب منها حتى لفَّت كفَّها بجلدة الدجاجة وفركت وجهه بها. علت ضحكات سمر وأختَيْها واختلطت بصوت بكاء إبراهيم الذي هرب باحثًا عن أمِّه.

جاء إبراهيم بعد كلّ تلك السنوات ليكشف غياب العدل في بيتهم. كانت البنات مظلومات، لكنَّهنَّ لم يكُنَّ مُدركاتٍ لذلك، فالظلم كان النهج الوحيد الذي عرفنه، والذي عرفته أمَّهنَّ من قبلهنَّ وبنات الجيران من حولهنّ. ولكنَّ معاملة أمَّهنَّ لإبراهيم أظهرت لهنَّ نهجًا آخر. فتبيَّن أنَّ اللطف صار ممكنًا وتربية طفلٍ من دون تعنيفٍ جسديٍّ ممكنًا أيضًا. فإبراهيم كان مخرِّبًا وعنيدًا وعنيفًا مع أولاد الجيران ولكنَّه لم يتلقَّ صفعةً واحدةً من أمِّه ولا من أبيه الذي، وبحسب زوجته مهيبة، لم يتوان عن ضرب ابنته الرضيعة نجاة في يومها الأربعين على هذه الأرض. وكان ذلك بحجَّة أنَّها كانت تبكي من دون توقُّفٍ ومن دون سبب.

لا تعلم نبيلة لماذا أخبرتهنَّ والدتهنَّ بأنَّ أبا ذوقان وبعد مرور شهرٍ على ولادة ابنته نجاة قد قام بصفعها على ظهرها عدَّة مرَّاتٍ بينما كانت تحمِّمها في قِدْرٍ صغيرٍ كانت تستخدمه فيما قبل لنتف الدجاج. ولا تعلم لماذا أقحمت أمّها كلمة «الدجاج» في هذه المشكلة العائليَّة الخاصَّة؟ ألم يخطر ببالها أنَّها ستطبخ لهنَّ دجاجةً في كلِّ مرَّةٍ تعنِّف فيها إحداهنّ؟ هل الدجاج في هذه العائلة يرمز إلى العنف، أو إلى المصالحة متمثِّلةً في حصصٍ من لحم الدجاج مقسَّمةً بالتساوي في أطباق الشوربة؟ هذا ما كانت تفكِّر فيه نبيلة في كلِّ مرَّةٍ تشمّ رائحة المرق تملأ البيت، وتختلط مع روائح البهارات.

لم يمض يومان حتى جاءت الجارة أمّ معروفٍ إلى دار مهيبة طالبةً أن تحدِّثها على انفراد. فرحَّبت بها مهيبة وسحبت لها كرسيًّا من القصب، ثم نادت على نبيلة كي تعدّ لهما القهوة. تكدَّست

البنات الثلاث أسفل النافذة المطلَّة على الفناء، ورحن يسترقن السمع.

«ابن أختي إياد إلو خاطر بسمر بنتك. أنا شهادتي فيه مجروحة، بسّ الشبّ معدنو طيِّب وأهلو سمعتهن منيحة وناويين يعمرولو طابق فوق بيتهم».

قطَّبت مهيبة جبينها «ابن أختك ما فات من الباب. لحقها للبنت على العين وخلّى الكلّ يحكو عليها، لو بيهمّه أمرها ما اتصرَّف هيك!».

«بعدو صغير وطايش بس نيَّته مصروفة عالخير. أنا بعرفه متل ما بعرف ولادي. شو قلتي؟ بيجي مع أهله؟» سألت أمّ معروف.

«أنا ناوية خلِّي سمر تلبس منديل كبير وتصير شيخة، وهالشبّ مالو نصيب عندنا. بسّ أنتِ أهلا وسهلا فيكِ البيت بيتك».

نهضت أمّ معروفٍ من مكانها مقطَّبة الجبين. «بخاطرك»، قالت لمهيبة قبل أن تستدير وتغادر الفناء ويتبعها منديلها الطويل مرفلًا.

كانت تلك حيلةٌ معروفةٌ في القرى الدرزيَّة. إذا تقدَّم أحدهم لصبيَّة، ومال أهلها إلى رفضه، يغيِّرون زِيَّها لتصبح شيخةً فيجنِّبون بذلك أنفسهم حرج الرفض. والعكس كان يحدث أيضًا. عندما أصبحت سمر في الخامسة عشرة من عمرها كان يجب عليها أن تصبح شيخةً مثل أمِّها وشقيقتها نجاة وهذا يعني أن تستبدل المنديل الصغير، الذي يغطِّي جزءًا بسيطًا من قبَّة رأسها وينسدل حول عنقها، بمنديلٍ كبيرٍ يكاد يلامس الأرض، وأن تستبدل

فساتينها الملوَّنة التي تصل إلى منتصف الساق بثوبٍ أسود يلامس الكاحل، وأن تلتزم بقراءة كتاب الحكمة وتجتمع مع الشيخات في المجلس لتأدية الفروض. ولكن ما أنقذ سمر من هذا المصير هو نفور والدتها من ابن عمِّها الشيخ الذي بدأ يحوم حولها منتظرًا أن تتمِّم دينها ليتقدَّم لخطبتها. «الزواج بين الأقارب بيجيب العداوة» كانت مهيبة تكرِّر في كلِّ مرَّةٍ تطرح إحداهنَّ فكرة زواج أبناء وبنات العمّ أمامها.

الحيلة التي صبَّت في مصلحة سمر في السابق تنال منها اليوم. مهيبة التي حرصت على إرضاء الجيران والأقارب، حاولت أن تحمي مشاعرهم عن طريق الهروب بابنتها من خيار الدنيا إلى خيار الدين ذهابًا وإيابًا كابن آوى حائرٍ لا يدري أين يدفن دجاجته.

«لا أظنّ أنَّ أمِّي انتبهت أنَّ لابنتها مشاعر أيضًا. ليس للدجاجة مشاعر. ونحن كلّنا دجاجاتٌ في هذا المنزل وسط قفصٍ سحريٍّ لا يكفُّ عن التكاثر. المنزلُ قفص. الفقرُ قفص. القريةُ قفص. لبس زيِّ الدين قفص، وخلعه قفص. سلطة المشايخ قفص. هذا الدفتر الذي أكتب فيه قد يصبح أيضًا قفصًا.» كتبت نبيلة في دفترها الصغير.

رفعت مهيبة المجرفة فوق كتفها حين سمعت وقع خطواتٍ تقترب من ورائها. انقبضت أساريرها حين اتَّضح لها أنَّ الجسد المندفع في هشيم الحقل كان لإياد. لقد ظنَّت أنَّها بحيلتها تلك تخلَّصت من إياد إلى الأبد!

«يعطيك العافية خالتي إمّ إبراهيم»، قال وقد تدارك الخطأ الذي وقع فيه في المرَّة السابقة حين ناداها بأمِّ ذوقان.

هزَّت برأسها ردًّا على تحيَّته وانشغلت بتعديل ستحتها فوق فمها.

«أنا مستعدّ أحلق راسي الليلة وأطلب ديني من شيخ الضيعة الخميس الجاي. مستعدّ أمشي بأيِّ طريق إذا كانت بآخره سمر».

«إنت ما عندك كرامة يا ابني؟ أنا قلت كلمتي وما رح أرجع عنها» قالت مهيبة بتحدٍّ ورمت بالمجرفة فوق تراب الحقل.

«الحقّ عليّ أنا لأنّي عم أحكي مع نسوان» تمتم إياد ممتعضًا وغادر.

كلّ هذه الأخبار كانت تصل للجارة أمّ معروفٍ وتلفّ على الحيِّ قبل أن تجد طريقها إلى سمر التي أصبحت تقضي أيَّامها في البكاء والالتصاق بالراديو والسماح لأغانيه بأن تكوي جراحها على مهل.

«الإنسان ما بيقدر يهرب من نصيبه» قالت أمّ معروفٍ وهي تردّ الستحة على فمها.

«يلِّي مقدره الله تعالى بدّه يصير» أكَّد صهرها أبو إياد بعد أن أخذ مباركة أبي ذوقان بزواج سمر من إياد. كان أبو إياد قد أتى من حاصبيًّا نزولًا عند رغبة ابنه الذي فهم بذكائه الفطريّ أنَّ حضور والده مع وفد من المشايخ من حاصبيًّا لطلب يد سمر سيهمِّش قرار والدتها التي ستضطرّ إلى الصمت أو التراجع عن رفضها في حضرة الرجال.

تردَّدت عبارة القبول بالنصيب والقضاء والقدر على ألسنة

أغلب المشايخ والشيخات بصيغٍ مختلفةٍ واتَّفق الجميع أنَّهم هنا ليتمِّموا ما كتبه الله على جبين العروسَيْن منذ ولادتهما لأنَّ الإنسان ليس سوى واسطةٍ لتحقيق إرادة الله وليس له قولٌ أو فضلٌ في ذلك.

ودَّعت أمّ إبراهيم الضيوف على عتبة باب بيتها المتواضع محاولةً إخفاء علامات الكدر والانهزام التي صبغت وجهها وجعلت ملامحها تبدو أكثر قسوة. وحين أغلقت الباب خلف آخر الضيوف استغلَّت غياب أبي ذوقان الذي ذهب للسهر عند أخيه وانفجرت في وجه سمر مثل قنِّينة مشروبٍ غازيٍّ رُجَّت بقوَّة «فكرك رح تتوفَّقي إذا أنا مش راضية عنك؟» ثم شدَّت أذن سمر وأخذت تصرخ فوق رأسها «الله ما رح يقَدِّر تتوفَّقي. هذا شبّ أزعر آخذ عقله الأحزاب والسياسة».

لم تستطع مهيبة أن تعترض على زواج سمر، لقد انقضَّت إرادة الرجال على صوتها انقضاض مناقير الطيور على آخر حبَّة تينٍ على الشجرة. ولكنَّها اختارت أن تعاقب سمر. عاقبتها مرَّتَيْن. مرَّةً لأنَّها لم تستطع التحكُّم في مصيرها ومرَّةً أخرى لأنَّ ابنتها ظنَّت أنَّ بإمكانها أن تصبح سعيدةً في زواجٍ ترفضه أمُّها.

ربَّما تكون سعادة سمر بخطبتها لإياد في الأسابيع القليلة التي تلت الزيارة، هي الفرحة الأكبر والأكثر نصوعًا التي ستشهدها نبيلة في حياتها. هذا الترف المركَّب من الإعجاب والوقوع في الحبِّ والزواج من المحبوب هو حالةٌ دخيلةٌ على تلك القرى. حالةٌ أحدثت بلبلةً وسط الصبايا والشبَّان وكأنَّها دعوةٌ إلى دينٍ جديدٍ يعد بخلاصٍ لم ينَلْه أحدٌ من قبل. كلُّهم يريدون هذا

الحبّ، يريدون إصرارَ إيادٍ على زواجه بحبيبته الجميلة، يريدون عَقبةً وُجِدت فقط ليتخطَّاها العاشق، تجعلُ الوصولَ إلى المراد أكثر عذوبةً وإثارة.

ولكنَّ الأحداث والأخبار في تلك القرى لا تلبث أن تتنحَّى لتفسح الطريق لأخبارٍ أخرى. الحياة الرتيبة والاعتماد على الآخرين كمصدرٍ للتسلية والتشريع يجعلان من كلِّ خبرٍ مهما كان تافهًا ـ كتبادل إيادٍ وسمرَ بعض الكلمات عند العَيْن ـ حدثًا عظيمًا وقضيَّةً تخصُّ الجميع ومناسبةً لتعزيز الأواصر ونبش القيم وتلميعها قبل إعادتها إلى رفِّ الترابط الاجتماعيّ.

تراجَع خبر الخطبة إلى الصفوف الخلفيَّة وأفسح المجال لأخبار الاشتباكات التي تدور في بيروت. كان ذلك في منتصف السبعينيَّات، وأهل القرى الجبليَّة النائية كانوا يتعاملون مع الأخبار القادمة من العاصمة بطريقتَيْن: إمَّا بالنكران لأنَّ مقامات أولياء القرية سوف تحميهم من أيِّ عدوان، وإمَّا بالرضا والتسليم لأنَّ دورهم كأقلِّيَّةٍ قادمٌ لا محالة، ولأنَّهم أصحاب كلمة الحقّ ومن الطبيعيّ أن يستمرَّ اضطهادهم عبر التاريخ. في كلتا الحالتَيْن كان الإيمان هو المعضلة والمخرَج.

أمَّا الحزب في الجبل فقد شملت خططه ما هو أكثر ضمانًا من الإيمان وبدأت القيادات بتدريب الشبَّان المنتسبين في مراكز بعيدةٍ عن الأعين وسط الجبال وتجهيزهم تحسُّبًا لأيِّ تطوُّراتٍ قد تُقحِم الجبل في المعارك الآخذة بالتوسُّع. وهكذا بدأ إيادٌ بالتغيُّب عن قرية خطيبته وعن أهله لأسابيع. وعاد ذلك الخوف الذي تملَّك سمر منذ بداية ذيوع علاقتهما ونيَّته في خطبتها.

«تمالكي نفسك ما تخلّي إمّي تشمت فيكي» تذكّرها نبيلة وهنَّ يصنعن الكبَّة ويكوّرنها بين الأصابع حين ترى دموع سمر تنحدر بالتزامن مع بداية أغنيةٍ حزينةٍ على الراديو. ولكنَّ مهيبة لا تفوّت فرصةً لتذكّر سمر بأنَّها أساءت الاختيار «أخذ الوعد وزَبَلِك، كيف بس تصيري عنده؟» تشدّ عصبتها التي تربطها فوق المنديل لتثبيته وتكمل «مش عامل قيمة لا إلك ولا لأهلك! لو شاري بقرة كان سأل عنها».

ولكن سمر لم تكن قد لوَّثتها تلك الحِيَل والتكتيكات التي تحكم علاقات الأفراد في ذلك المجتمع بعد، خاصَّةً علاقة المرأة بالرجل. لم يكن يقلقها قيمتها في نظَرِه بقدر ما كانت خائفةً عليه. تسلَّلت إلى منزل جارتهم أمّ معروفٍ لتستقصي أخباره، «دخلك يا خالة إمّ معروف اعرفيلي شي عنه. صار له أسبوعَيْن ما طلّ ولا بعت خبر مع حدا»، قالت سمر وهي تتَّكئ على باب الجارة تحت غطاء الظلام.

«خلّي إيمانك بألله كبير يا سمر، البنزين صار شحيح وما حدا عم يجي من حاصبيَّا هالأيَّام. رح ضوِّي شمعة وادعيله» قالت أمّ معروفٍ وهي تتصنَّع التفاؤل. ولكنَّ خالته كانت تعرفه جيِّدًا. تعرف تهوُّره وولاءه للحزب وأفكاره الثوريَّة التي طالما تعارك مع والدَيْه بسببها. وقد علمت لاحقًا في تلك الليلة ـ من ابنها ـ أنَّ إيادًا يتدرَّب مع الحزب في موقعٍ يبعد حوالى نصف ساعةٍ عن قرية سمر.

لم يمض يومان حتى وصل إلى قرية تلِّ الخرُّوب خبر الحادث الذي تعرَّض له إيادٌ أثناء التدريبات بعد أن انفجرت قنبلةٌ

عن طريق الخطإ وأصيب عددٌ من الشبَّان، لكنَّ إصابة إيادٍ كانت خطيرةً وحالته غير مستقرَّة. هذا كلُّ ما عرفوه وكان كافيًا لسمر كي تهجَّ من المنزل وتتوجَّه إلى حرش الصنوبر البعيد لتقف تحت واحدةٍ من أطول أشجاره وتجعر بصوتٍ أقرب إلى العواء منه إلى الصراخ، قبل أن تخلع منديلها الصغير وتنهار على ركبتَيْها باكيةً شاتمةً تارةً ومتضرِّعةً إلى الله تارةً أخرى كي يُعيده حيًّا. «خلِّيه بسّ يعيش يا ربّ العالمين. مش ضروري يحبّني ولا يتزوَّجني، بدِّي بسّ يعيش، بترجَّاك»، تشبك يدَيْها وتتضرَّع باكية. تفاوضت سمر في حرش الصنوبر مع ربِّها وتذلَّلت له ثم أفرغت دموعها وعادت إلى المنزل قبل أن يحلّ الظلام بقليل.

توسَّلت نبيلة إلى أمِّها أن تترك سمر في حالها. «حرام يا إمِّي بكفِّيها يلِّي هي فيه اتركيها الليلة بسّ». في اليوم التالي شكَّل المشايخ وفدًا لزيارة إيادٍ في المستشفى وكان أبو ذوقان الذي ارتدى ملابسه الرسميَّة ووضع اللفَّة على رأسه في مقدِّمة الوفد. اجتمعت النسوة في دار أمّ معروفٍ وسادت الحارة حالةٌ من الترقُّب الذي يتخلَّله الكثير من عبارات الرضا بمشيئة الله والتسليم لأحكامه.

استغلَّت سمر غياب أمّها وجاءت إلى نبيلة وفنجان القهوة في يدها. «شوفي لي الفنجان شو بيقول يا نبيلة؟ دخلك رح إخوث!». صفنت نبيلة التي ما زالت في الرابعة عشرة من عمرها واستشعرت جدِّيَّة الموقف الذي وُضعت فيه. «يا سمر تبصير الفنجان للتسلية واللعب، ما رح نعرف مصير إياد منه. خلِّينا نضوِّي شمع وندعي له أفضل». ولكنَّ سمر أصرَّت وبكت وعلا

بكاؤها وهي تقول لنبيلة إنَّ فنجانها صدق في أكثر من مناسبة، وإنَّه لولا خوفها ممَّا قد يكشفه الفنجان لما رفضت طلبها.

عرفت نبيلة بحكمتها أنَّ الإنسان اليائس مستعدٌّ لتصديق أيِّ شيءٍ وأنَّه بإمكانها الآن أن تقنع شقيقتها بأنَّ كلّ شيءٍ سيكون على ما يرام. فخرائط البنّ تطاوعها؛ إذا بحثت عن حمامةٍ بيضاء ستجد واحدةً وإذا بحثت عن غرابٍ أسود ستجد غرابًا. هي تفكّر فقط وخرائط البنّ تتقاطع وتتشابك وتستجيب لأفكارها. لقد كشفت اللعبة، لكنَّها اختارت أن تستمرّ فيها. هي لعبةٌ تمنحها اليد العليا في مكانٍ لا صوت لها فيه ولا إرادة. لعبةٌ تمكّنها من الآخر الذي يجلس أمامها بشيءٍ من الهشاشة أو التسليم، لأنَّه يؤمن أنَّ مصيره بين أصابعها. فلا يتوانى عن إظهار عورة خوفه لتطبطب عليها أو أن يلوّح بآماله على استحياء كي تتنبَّأ بتحقيقها. ولكنَّ الأمر يختلف مع سمر، ماذا لو لم يَنْجُ إياد؟ كيف تستطيع اللعب بمشاعر وأعصاب أختها التي تحبُّها، وتخاف عليها بقدر ما تخاف على نفسها؟

لو كان للخوف قدرةٌ على ردِّ الأذى وحماية أنفسنا ومن نحبّ، لما أُصيب أحدٌ بسوء. لكنَّ الخوف هو سليل العجز. القبول أمام العجز يصبح تواضعًا، والرفض في حالة القوَّة يُدعى شجاعة. ولكن مِن زواج العجز والرفض وُلِد هجينٌ اسمه الخوف. للكلمات قدرةٌ عظيمةٌ على تجسيد هذا الخوف عبر تحويله من شعورٍ إلى صورة. في الطفولة اتَّخذت حكايا الجدَّات مهمَّة تحويل هذا الخوف المبهم عند الأطفال إلى قصص. معظمها عن رجالٍ غرباء، يشبهون الوحوش، يمرُّون بالقرى،

يرهبون النساء ويطلبون الكثير من الطعام. كانت نبيلة في السادسة من عمرها عندما أخبرتها جدَّتها قصَّة الغول الذي فاجأ امرأةً وهي تصنع الخبز وحدها في فناء البيت، أمَرَها أن تخبز من دون توقُّفٍ وجلس وراءها يأكل كلّ ما تصنعه. فأكل حصَّة زوجها وأطفالها وحصَّة والدَيْها العجوزَيْن وهدَّدها بأن يقذف بها إلى النار المتَّقدة تحت الصاج إذا ما توقَّفت عن إطعامه. راح جوعه يتجدَّد مع كلِّ رغيفٍ يأكله، وأخذت يداها تتخدَّران، وبدأ العجين ينضب. لكنَّها كانت طوال الوقت مشغولةً بالتفكير، فخطر لها أن تدحرج كتل العجين الأخيرة بالملح بدلًا من الطحين، وحين أكلها الغول شعر بالعطش. فأعطته قدحًا متصدِّعًا وأرسلته للبئر كي يشرب على أن يعود ليكمل أكله. انحنى الغول على حافَّة البئر وأخذ يحاول استخراج المياه مرَّاتٍ ومرَّاتٍ من دون جدوى، إلى أن أُصيب بالإعياء وهوى إلى قعر البئر وهلك.

هكذا عن طريق الكلمات دخلت معظم الصور واستوطنت في رأس نبيلة. صورة امرأةٍ تحترق تحت الصاج والرغيف الذي صنعته ينضج فوقه. صورة جسد الغول يطفو على صفحة ماء البئر. صورة أبي سامي ممدَّدًا تحت المطر والحلازين تخرج من فمه، صورة أختها نجاة وهي حديثة الولادة بجسد دجاجة. كلّها صورٌ حيَّةٌ ترافقها في طريقها إلى الوادي، تنام معها في فراشها الأرضيّ وتتغذَّى على خيالها النهم الذي لا يتعب من خلق الصور.

ذاك المساء عاد الرجال من زيارة إيادٍ بصورةٍ جديدةٍ ستضاف إلى الصور التي تقطن رأس نبيلة. «خسر المسكين رجلَيْه الاتنين. كان عم يتململ مثل الدودة بسرير المستشفى ويهذي بإسم سمر»،

قال والدها لوالدتها وهو يخلع حذاءه. «ما رح نجوِّزها نصّ زلمة، بتتعتَّر كلّ حياتها»، قالت مهيبة بصوتٍ مرتجفٍ وهي تتصنَّع اللامبالاة بمصير إياد. ولكن قصَّة إيادٍ لن تكون عابرةً كغيرها من المآسي. سوف تعيش قصَّة حبِّه في الحكايات فقط ككلِّ الأشياء الجميلة في تلك البلاد التي تحارب الحبّ وتسمح بالتباكي عليه، التي تمنع الحياة وتبارك الحداد عليها. سيبقى إيادٌ فكرةً عن التمرُّد ورفض الطاعة، عن حبٍّ سعى إليه بكلِّ ما أوتي من صبرٍ وحِيَل، عن لحظات فرحٍ سحبها من بين أسنان السبع قبل أن يفقد ساقَيْه وترسله إحدى الجهات السياسيَّة إلى بلادٍ بعيدةٍ باردةٍ لتركيب أطرافٍ اصطناعيَّةٍ وتلقِّي العلاج الطبيعيّ والتدرُّب على العيش بنصف جسد. سيبقى إيادٌ أيضًا في قلب سمر التي ستُجبَر على الزواج من أحد المغتربين. ستتذكَّره وهي تكنس ورق الشجر من أمام بيتها المتواضع في أستراليا، وهي تسمع صرخات المرضى في المستشفى الذي تعمل فيه كعاملة نظافة، وهي تمشي في الغابة وتتذكَّر حرش الصنوبر في تلِّ الخروب، وفي كلِّ مرَّةٍ تسمع فيها عبد الحليم. ستبدو كلّ الذكريات بعيدةً وغير حقيقيَّةٍ كظلٍّ بعيدٍ أو حلمٍ مشوَّش. ما عدا الألم. الألم سيبقى حاضرًا وراسخًا، سيصبح له ألف صوتٍ وعشرات الأيادي والكثير من الروائح. ولكنَّه سيبقى بلا قدمَيْن.

مكتبة
t.me/soramnqraa

3

حاولت نبيلة إبعاد أصابع أطفالها الدبقة عن ذلك الفنجان الذي استمرَّت في نقله من رفٍّ إلى رفٍّ أعلى في باب ثلَّاجة الفرجيدير القديمة، ولكنَّ الأصابع الفضوليَّة ظلَّت تمتدّ مستعينةً بالوقوف على رؤوس الأصابع والعربشة على ظهور بعضهنَّ البعض للوصول إلى الفنجان الغامض. فنجانٌ أبيض مقلوبٌ مزيَّنٌ بورودٍ زهريَّة اللون. داخل الفنجان آثارٌ لخطوط بنِّ باهتةٍ تشبه متدلِّياتِ وصواعد الكهوف. وبينما كانت ابنتاها الكبيرتان تتنازعان الفنجان للتظاهر بقراءته، انزلق من بين أياديهما وتحطَّم.

لعشر سنواتٍ كانت نبيلة تطالع هذا الفنجان لتصبِّر نفسها على غياب أختها. خلال تلك السنوات الثقيلة أخرجت منه مئات المصائر والتأويلات. كانت تحدِّق في البقعة السوداء في قعره وتقول لنفسها «لولا هيذا العكر بـ أرض البيت كان قلبي بيرتاح». ولكنَّ البقعة السوداء ظلَّت تشغل بالها حتى أتى اليوم وأراحتها

بناتها من جحيم التآويل، ومن عذاب أن تقرأ مخاوفها في فنجانٍ صار أشبه بالمرآة.

بكت نبيلة بصمتٍ وهي تكنس الخزف المتهشِّم عن أرض المطبخ وصرخت في أسمهان ونيرمين لتأخذا سناء وأمل الصغيرتَيْن بعيدًا عن الشظايا. كان لا بدَّ من حادثٍ ملموسٍ وتأنيبٍ حقيقيٍّ حتى تتبلور فكرة الخالة الغائبة عن أذهان بناتها اللواتي لم يرَيْن تلك الخالة ولم يسمعن صوتها ولم يحصلن منها على أيِّ حبَّة ملبّسٍ أو قطعة شوكولاتة.

غياب سمر كان حجَّة كلّ نساء العائلة للبكاء. كانت في السادسة عشرة من عمرها حين قرَّر أبو ذوقان تزويجها من الشابِّ المغترب الآتي من قرية رويسة البلّان المشهورة بأعمال البناء وتجارة الصنوبر وبكثرة المغتربين. وقد وعد العريس الذي يكبرها بخمسة عشر عامًا أن يسمح لها بزيارة أهلها كلّ خمس سنواتٍ وبإرسال المكاتيب مع المسافرين من وإلى أستراليا.

ولكن بعد زيارتها الأولى بدا واضحًا أنَّها ليست على ما يرام. فقد خسرت حسَّها الفكاهيّ وأصبحت متردِّدةً في الكلام، فكانت تدرس ملامح وجه زوجها بعد كلِّ جملةٍ وتتلعثم حين تلتقي عيونهما. شعرت نبيلة بالتوتُّر القائم بينهما على الفور، لكنَّه لم يترك لزوجته فرصةً للتحدُّث مع شقيقاتها على انفراد؛ وفي كلِّ مرَّةٍ يراها تغادر مقعدها متَّجهةً إلى المطبخ، يتبعها أو يشدّ يدها قائلًا «ما تتركيني لحالي معهم». وبعد تلك الزيارة غابت سمر ولم تعد تصل منها أيُّ رسائل ولا أوفى زوجها بوعده بالسماح لها بزيارة وطنها كلّ خمس سنوات.

«لعلَّه خير انكسر هالفنجان»، قال عليٌّ حين عاد إلى البيت ووجد ابنتَيْه الكبيرتَيْن معاقبتَيْن في غرفتهما، وأضاف «هذا الفنجان صار يشبه الصنم، ومعرفة الغيب هي من شأن الله وحده». كان لعليّ، الذي خسر أخاه الوحيد في الحرب الأهليَّة، مأخذٌ على حزن نبيلة على رحيل أختها. «هذا اعتراض على إرادة الله تعالى»، كان يقول كلَّ ما رآها تبكي وأصبح له مع تعاقب السنوات بينهما مآخذ أخرى كثيرة، تبدأ بالاختلاف حول القناعات الأساسيَّة وتمتدّ لتشمل ممارساتٍ يوميَّةً أقلّ أهمِّيَّة. «إنت ليش بتحبِّي تعترضيني؟» كان يقول لها كلَّما طرحت سؤالًا نقديًّا يؤرِّق الطاعة العمياء التي جُبلت عليها شخصيَّته. وكان أيضًا يقول «إنتي ليش بتجمِّعي كراكيب» معترضًا على سياسة نبيلة بعدم رمي أيّ شيءٍ انطلاقًا من قناعتها بأنَّ «كلّ شي بيجي وقتو وبينعاز». وأحيانًا كان يتمادى في المزاح ويقول لكلِّ من أراد التخلُّص من أحد أغراضه «أكيد نبيلة بتاخذه» ويضحك عاليًا.

هكذا كدَّست نبيلة في غرفة الطحش، حيث يضع عليٌّ أدواته الزراعيَّة، عبواتٍ بلاستيكيَّةً ومعدنيَّة، وقصديرًا من كلِّ حجمٍ ولون. رتَّبتها فوق بعضها بعضًا بعد أن غسلتها وتركتها تجفّ في الشمس. وربطت غالونات المياه بحبلٍ رفيعٍ يتدلَّى من السقف لتُشكِّل ما يشبه كتلة بالوناتٍ متأرجحةً في منتصف الغرفة، ووضعت أواني خزفيَّة، معظمها مكسورة، فوق أحد الرفوف التي صنعها عليٌّ ليضع عليها أدوات البستنة. ولكن خارج هذه الغرفة كانت نبيلة تدهن تلك العبوات بألوانٍ زاهيةٍ وتحوِّلها إلى أوعيةٍ لزراعة الزهور والنباتات المنزليَّة من حبقٍ ومردكوش وعطرشان.

وكانت تحوّل غالونات المياه إلى أوعيةٍ للنباتات المتدلّية وتعلّقها على أطراف عريشة العنب، فتنساب عروقها الخضراء وتؤنس الجوّ بجمالها وظلّها. أمّا الأواني الخزفيّة المكسورة فكانت الأحبّ إلى قلبها لأنّها تسمح لها بصناعة ما تسمّيه بـ «حديقة داخل وعاء».

«وقّف السيّارة يا علي... هون.. هون»، قالت له ذات مرّةٍ بينما تشقّ سيّارته القديمة طريقها نزولًا من رأس الجبل حيث كان عليٌّ يصطاد العصافير وترافقه هي لتجمع الزعتر البرّيّ. أوقف عليٌّ السيّارة بسرعةٍ ظنًّا منه أنّها تشعر بالدوار أو ترغب في التقيُّؤ. «بكي شي؟»، سأل بقلق، لكنّها فتحت الباب بسرعة. «لا، لا. يلّا لحظة برجع»، قالت ومشت باتّجاه بقعةٍ تتجمّع فيها بعض النفايات التي يصعب التخلُّص منها بين البيوت، مثل عجلات السيّارات الممزّقة والكراسي البلاستيكيّة المحطّمة. عادت بعد دقائق إلى السيّارة بإناءٍ فخّاريٍّ مدوَّرٍ فيه كسرٌ أطاح بنصفه تقريبًا. جلست إلى جانبه ووضعت الإناء في حضنها وراحت تمسح عنه الغبار. قاد عليٌّ السيّارة بصمتٍ وهو ينظر إلى الطريق أمامه بتركيزٍ وشيءٍ من التجهُّم. «إنتي بتعرفي إنُّو هذا الوعى جديد حقُّو دولار بسّ؟»، سأل بعد عدَّة دقائق من دون أن ينظر إليها. وضعت كلتا يدَيْها على الإناء وكأنّها طفلةٌ تخاف أن يسلبها لعبتها وقالت «بَعْرِف. ما بدّي واحد جديد».

كانت الشمس قد بدأت بالانخفاض في الجهة المقابلة متأهّبةً للهبوط خلف بحر بيروت، الذي بدا من فرط بُعده وكأنّه في دولةٍ أخرى، فأخفض عليٌّ حجاب الشمس وأضاف «عم تقولي بدّك

نعمِّر غرفة جديدة للعجين وتوضيب الخبز. بس أنا خايف تعبِّيها كلّها زبالة متل ما عبَّيتي غرفة الطحش». صمتت نبيلة لفترةٍ طويلةٍ حتى ظنَّ عليٌّ أنَّها لن تضيف أيّ شيء. لقد شعرت بشيءٍ من المرارة الممزوجة بالحرج. آلمتها كلمة «زبالة»، فهي لا ترى الأشياء التي تجمعها قمامةً كما يراها الآخرون، إنَّما تراها بعينَيْها هي، تراها مكتملةً وزاهيةً وزينةً للبيت. ترى في الأواني المكسورة تُحَفًا جميلة، ترى اندهاش الزوَّار حين يقفون ليتأمَّلوا هذه الأصص مرصوصةً على الجانبَيْن لتصنع ممرًّا عند مدخل الحقل أو حين تُعلَّق على الأشجار والدوالي. «إنتَ ما بتشوف يلِّي أنا بشوفو يا علي»، هذا كلّ ما قالته حين كانا على وشك الوصول إلى المنزل. لم تكن نبيلة تعي أنَّ هذه الجملة تصف بدقَّةٍ علاقتها بعليٍّ منذ اليوم الأوَّل لزواجهما، ولا كان هو يعلم أنَّه سيُشمل برحمةٍ نزعتها تلك ذات يوم، برغبتها في أن تُعطي فرصةً أخرى للأشياء قبل أن تتخلَّص منها، وبقدرتها على استنطاق الجمال من الأشياء المحطَّمة والفارغة.

تفوَّقت نبيلة على نفسها بتحويل هذا الإناء بالذات إلى تحفةٍ لم يسبق لها أن صنعت مثلها. بعد أن وضعت فيه حفنةً من البحص، أضافت عليها حفنة ترابٍ مخصَّصٍ للزراعة، ثم أتت بقطعةٍ مكسورةٍ من وعاءٍ مستديرٍ آخر وغرستها في حفنة التراب مبتعدةً عدَّة سنتيمتراتٍ عن الحافَّة المكسورة لتصنع ما يشبه المدرَّجات. وكرَّرت العمليَّة عبر غرس قطعٍ خزفيَّةٍ أخرى حتى تشكَّلت عندها ثلاث طبقات. بعدها رصفت مجموعةً من الأحجار الصغيرة جهة اليسار لتصنع سلَّمًا مستديرًا يصل الطبقات

ببعضها. حين انتهت، ملأت جميع الطبقات بالتراب وغرست عدَّة أنواعٍ من نبات الصبَّار في الطبقات الثلاث. وفي النهاية، وضعت على أعلى طبقةٍ بيتًا خشبيًّا صغيرًا كان لعبةً لأحد أحفادها ووزَّعت أكواز الصنوبر الصغيرة بين الصبَّارات. حين همَّت بالنهوض، شعرت أنَّ ركبتَيْها قد تيبَّستا من الجلوس على الأرض جاثية، لكنَّها استعانت بيدَيْها لدفع جسدها إلى الأعلى. رجعت خطوتَيْن إلى الوراء ومالت برأسها إلى اليمين لتعاين العمل بتجرُّد، ثم ابتسمت ابتسامة رضا إذ بدا لها أجمل ممَّا تخيَّلته قبل التنفيذ. ولكنّ تحفتها لم تكتمل إلَّا حين نقلت الإناء إلى ركنٍ فيه مقبسٌ لتمرِّر عليه شريطًا من الأضواء الصفراء الهادئة.

لقد سمعت مصطلح «إعادة استخدام وتدوير» للمرَّة الأولى من ابنتها أمل وهي تساعد حفيدتها رحمة على تنفيذ مشروعٍ مدرسيٍّ لتقدِّمه في يوم البيئة. راحت أمل تشرح لرحمة كلمة repurposing:

«كلمة purpose تعني غايةً أو هدفًا re تعني «إعادة» وهكذا عندما ندوِّر النفايات نحرص على إيجاد غاياتٍ أخرى لها بدلًا من رميها».

أُعجبت نبيلة جدًّا بهذا الشرح وحفظته وصارت كلَّما سألها أحد الزوَّار عن الزينة الجميلة تشرح له مستخدمةً المصطلح الإنكليزيّ لأنَّه، بحسب قولها، أكثر دِقَّةً من المصطلح العربيّ ويشمل الكلمة التي تعنيها شخصيًّا: غاية.

لم يكن من الصعب على رحمة أن تفهم إعادة التدوير لأنَّها كانت تساعد جدَّتها في صنع ورودٍ ملوَّنةٍ من أكياس البلاستيك

الرقيقة التي تشتري فيها الخضراوات. فتجلسان على الأرض وتضعان الأدوات حولهما لتقوم جدَّتها بتعليمها كيف تفرد الكيس وتقطعه بالمقصِّ على شكل شرائح طويلة، ثم تبدآن بطيِّ كلِّ قطعةٍ عدَّة طيَّاتٍ وربطها من المنتصف بسلكٍ معدنيٍّ لتشكِّل ما يشبه البابيون المنتفخ. وبعد ضمِّ جانبَي البابيون بسلكٍ آخر تظهر زهرةٌ منفوشةٌ تشبه زهرة الأليوم. تكرِّران العمليَّة مستخدِمتَيْن عدَّة أكياسٍ بألوانٍ مختلفةٍ حتى تصبح أمامهما كومةٌ من الزهور الملوَّنة تلصقانها بالشمع على أسياخٍ خشبيَّةٍ ملوَّنةٍ أو مصَّاصاتٍ بلاستيكيَّةٍ خضراء.

على النقيض منها، كان عليٌّ يفضِّل شراء كلّ ما يحتاج إليه، «شرايته ولا ترابيته»، يقول كلَّما ذكر أحدهم طريقةً معقَّدةً لتحضير نوعٍ من الحلويَّات أو حين يرى نبيلة تمضي ساعاتٍ في ترميم الأشياء وصناعة الزينة. لم يستهوِه سوى إصلاح الإلكترونيَّات والأسلحة الخفيفة ولم يمانع أن يقضي ساعاتٍ تائهًا لتحديد سبب عطل الدوائر الكهربائيَّة أو تتبع عطلٍ آخر في بارودة صيد، عدا ذلك كان يسهل عليه رمي كلّ ما يتعطَّل والاستعاضة عنه بآخر جديد.

ولكن بعد كلّ هذه السنوات لم يعد أحدٌ منهما يهتمّ أنَّها هي امرأة الرحلة والتفاصيل وأنَّه رجل المقصد والأشياء الجاهزة. كلّ هذه الاختلافات تفقد أهمِّيَّتها أمام ما أرتهما الحياة من متاعب وانكساراتٍ تشاركاها بحُكم المجاورة وارتباط مصائرهما. في لحظاتٍ معيَّنةٍ كان يبدو لها غريبًا وكأنَّ له ذاكرةً منفصلة، ذاكرةً خفيفةً مثل العصافير التي يطاردها في أعالي الجبال. تتخيَّل أنَّ

ذاكرته لا تثقلها تفاصيل طفولة بناتهما الأربع اللاتي ملأن البيت بأصواتهنَّ وخلافاتهنَّ يومًا ما. لا تعرف نبيلة كيف يؤلمها بشدَّةٍ ما كان متوقَّعًا إلى هذا الحدّ، الآن وقد غادرت بناتها جميعًا أصبحت تفهم هذا الأسى الذي يُصيب الأمَّهات بعد أن يفرغ المنزل بحيث يسمح هدوؤه لصوتِ دواخلهنَّ بأن يصبح مسموعًا.

لم يكن قد مضى وقتٌ طويلٌ على زواجهما حتى علمت نبيلة أنَّ عليّا ليس الشخص المناسب لها. لكن هذه الفكرة بقيت عائمةً في الهواء كفقَّاعةٍ تتوارى خلف الأشياء تارة ـ كالفقر والحرب والأمومة ـ وتظهر إلى العيان تارةً حين تداهمها الوِحدة وهي مختبئةٌ وسط بناتها الأربع اللواتي وجدتهنَّ حولها قبل أن تتمّ عامها السادس والعشرين وتصبح قادرةً على التحليل والتفكير. تتساءل أحيانًا لماذا لم تنشغل بهذا الكسر في علاقتها بعليٍّ في شبابها حين كان التغيير ممكنًا، وتتساءل كثيرًا لماذا تؤلمها الآن، وهي في الستِّين، هذه الفجوة التي اتَّسعت بينهما على مرِّ السنين حتى تواريا تمامًا عن بعضهما بعضًا.

حين عاد عليٌّ من الحقل ودخل فناء البيت، كانت نبيلة تسقي نباتاتها الموزَّعة على عشرات الأصص. اقترب من المنضدة وراح يفرغ جيب سرواله الأيسر من قرون البازلَّاء والفول الأخضر. «جبتلك فول وبازيلَّا، أوَّل قطفة السنة»، قال بعد أن جلس على الكرسيِّ تحت العريشة وهمَّ بخلع جزمته. لو أنَّ بناتها ما زلن هنا، كُنَّ هرعن إلى الطاولة مثل فوج سمكٍ رُميت له حفنةٌ من الطعام. لطالما تسابقن للوصول إلى ما وضع والدهنَّ على

هذه الطاولة نفسها خاصَّةً في موسم اللوز والجنارك والفول الأخضر. «بحضِّرلك الغدا أو بدَّك تشرب متّة؟» سألته بجفاء. اختار المتّة وقد بدا عليه النعس بعد التعرُّض للشمس لساعاتٍ طويلة. عادت بأدوات المتَّة ووضعتها أمامه على الطاولة.

«بتعرف شو أفضل أكلة عندي يا علي؟» سألته من دون مقدِّمات.

«شو خبريني؟» سألها وكأنَّه يساير طفلًا.

هزَّت رأسها وقد ارتسمت ابتسامةٌ ساخرةٌ على شفتَيْها. «وأكيد نسيت إنُّو عندي أنيميا الفول وبس آكل فول بِمْرَض؟».

تململ عليٌّ قليلًا وقال بنبرةٍ قريبةٍ من الانفعال «غلطت معك! تاكليش فول يا عمِّي. كلّ إنسان بيعرف شو بينفعو وشو بيضرُّو».

لطالما تعجَّبت نبيلة من تلك المشاحنات التي تطغى على علاقات الأزواج حين يكبرون في السنّ. «لشو بتحاسبي أبي على كلّ شاردة وواردة؟ تجاهليه، اعتبريه مش موجود!» كانت تقول لأمّها مهيبة بشيءٍ من نفاذ الصبر حين تبالغ في محاسبة زوجها. ولكنَّها الآن تعلم أنَّ تلك هي عوارض الصحوة المتأخِّرة وأنَّ النساء اللواتي أمضين أعمارهنَّ صامتاتٍ يصبحن أكثر تذمُّرًا لأنَّهنَّ يتجنَّبن الحديث عن الأشياء الحقيقيَّة التي تؤلمهنّ. الآن تعلم أنَّ الخلافات التي تبدأ بينها وبين عليٍّ بسبب عدم إغلاق كيس الخبز أو بسبب جزمته التي يضعها أمام الباب مباشرةً وليس على يسار الباب، لم تكن مطلقًا بسبب تلك الأشياء.

اليوم أيضًا سقطت نبيلة في فخِّ الكلمات البديلة لتتجنَّب أن

تقول لعليّ «استحليت شي نهار تتذكَّرني بهديَّة لو مهما كانت بسيطة» أو أن تعترف له بالشعور الغريب الذي خالجها حين استأذن صديقُه، خلال إحدى زياراته لهما، أن يأخذ ما تبقَّى من الحلوى في صحنه لأنَّ زوجته تحبّ هذا النوع. نبيلة لا تحبّ الحلوى ولكن كلّ ما أرادته هو أن يتذكَّرها عليٌّ أو أن يُشعرها أنَّ وجودها يشكِّل فارقًا في حياته. لكن ما لم تقله له طوال كلّ تلك السنوات انتشر كالصدإ على كلِّ ما يقولانه لبعضهما بعضًا: «أنا ما بحِبّ الحكي» أصبح يقول لها كي يتجنَّب تلك المشاحنات، وهكذا بدأ الحديث بينهما يشحّ تاركًا في وجدان نبيلة أخاديد جافَّةً تُشبه تلك التي تبقى حين تجفّ السواقي. وأصبحا يمضيان سهراتهما كلٌّ ممسكٌ بهاتفه الذكيّ والصمت بينهما جسرٌ أثريٌّ لم يعد صالحًا للعبور.

«نِسر الأعالي»، كان هذا الاسم الذي اختاره عليٌّ لحسابه السرِّيّ على فايسبوك. «شوف جدُّو، بتضغط هون وبتدخل عال غاليري لتختار صورة لحسابك»، قالت حفيدته رحمة باندفاعٍ بعد أن أقنعت جدَّها وجدَّتها بفتح حساباتٍ على الفايسبوك.

«بس أنا زلمي ختيار شو بيفهِّمني بهالقصص»، حاول التملُّص في البداية.

«أنا بعلِّمك يا جدُّو. فيك تلاقي كلّ أصحابك يلي ما شفتهم من زمان» هتفت رحمة ذات الاثني عشر عامًا وهي تفتح قرن البازلّاء الأخضر.

«شو بيقولو الناس عنّي؟ مش منيحة لعمري ومركزي» قال بتمنُّع.

رفعت رأسها لتفرغ حبَّات البازيلّاء الغضَّة في فمها. «فتحتلها حساب لـ تيتا بإسم تاني حتى تشوف صور ماما وخالاتي. فيك تحطّ الإسم يلّي بدَّك ياه» قالت بفمها الممتلئ باسطةً راحتَيْها في الهواء وكأنَّها وجدت حلًّا لمشكلةٍ عالقةٍ منذ زمن. فنظر من فوق كتفه إلى نبيلة الغارقة بكلتا يدَيْها في اكتشاف هذا العالم الجديد وقال مستسلمًا لإرادة رحمة «طيِّب طيِّب. بس كمان حطّي صورة على ذوقك وخلّيها تكون صورة جبل».

مع نبيلة، التي تحمَّست لفكرة دخول العالم الافتراضيّ، لم يتطلَّب الأمر الكثير من الإقناع. «أنا لازم اشتغل بإيدي حتى اتعلَّم، وإنتي قوليلي وين بكتب»، قالت وهي تحوم بسبَّابتها فوق لوحة مفاتيح الهاتف لتفتِّش عن الحروف. «عاشقة الظلّ»، كتبت نبيلة في الخانة المخصَّصة لاختيار الاسم، قرأت رحمة حروف الاسم الذي اختارته نبيلة لنفسها بتأنٍّ ثم ساعدت جدَّتها على اختيار صورةٍ لفتاة تُدير ظهرها للكاميرا بينما تتطاير الشرائط البيضاء التي تربط خصلةً من شعرها.

لم يُبدِ عليٌّ اهتمامًا حقيقيًّا بالفايسبوك وكان نادرًا ما يفتح صفحته، أمَّا نبيلة فقد فتح لها الفضاء الأزرق عالمًا جديدًا فانضمَّت إلى مجموعاتٍ تعنى برعاية الشتلات المنزليَّة وأخرى تنشر مقاطع طربيَّة، وتابعت صفحات التصوُّف والحِكم ودوَّنت في دفترها الصغير كلّ الاقتباسات التي تعجبها. لكنَّها صارت تتجنَّب الانشغال بالهاتف في وجود عليٍّ الذي كان يقول لها كلَّما رآها

ممسكةً بالهاتف «ما في شي بينفع المؤمن غير العبادة، هذا كلُّو تضييع وقت».

«طول النهار عم بشتغل. ما بتشوف غير هالساعتين يلي بتسلَّى فيهم؟!» تردُّ متذمِّرة.

لاحظت نبيلة أنَّ عليًّا يتحوَّل تدريجيًّا إلى نسخةٍ من والده الشيخ بو علي الذي قاده تزمُّته الدينيّ إلى طلاق زوجته وبناء جدارٍ بينها وبينه لتعيش معه في البيت نفسه لمدَّة ثلاثين عامًا من دون أن يراها أو أن يسمع صوتها. كان عليٌّ، وطوال كلّ تلك السنوات، يشعر بالذنب تجاه والدته، لأنَّه كان السبب المباشر في طلاقها، حين رفض في فوعة شبابه أن يرتدي زيّ الدين ويصبح شيخًا. وقبل سنواتٍ حَرَم تزمُّت عليٍّ الدينيّ ابنته أمل من الدراسة في الجامعة، كما حرم نبيلة من الاستماع إلى أغاني أمّ كلثوم وفريد الأطرش بسبب تكراره لمقولة «الأغاني بتقسِّي النفس وبتبعد الإنسان عن ربّه»، ممَّا كان يتسبَّب في تعكير مزاجها وجعلها تندم على تشغيل الراديو. في الفايسبوك كثيرًا ما كانت تعثر على أفكارٍ توافق قناعاتها ولا تقوى على التعبير عنها مكتوبةً في سطرٍ واحدٍ أحيانًا:

«قبولك لي كإنسانٍ أهمّ عند الله من سؤالك عن إيماني. فنحن غصونٌ من شجرةٍ واحدةٍ تحِنُّ إلى أصلها ـ جلال الدين الروميّ»، وجدتْ تلك العبارة أسفل صورةٍ لدرويشٍ يدور فاتحًا ذراعَيْه أمام شمس المغيب، فما كان منها إلَّا أن تضغط على زرِّ المشاركة وتفتِّش عن «نسر الأعالي» وتضغط إرسال عبر ماسنجر. مرَّ أكثر من أسبوعٍ من غير أن يفتح عليٌّ الرسالة حتى نسيت هي نفسها أمرها.

«اقتباسٌ جميلٌ بارك الله فيكم» تقول الرسالة التي وصلت من حساب عليٍّ بعد أكثر من شهر. كانت جالسةً على أريكة المطبخ حين فتحت الرسالة ولكنَّها وقفت وهرعت إلى الشبَّاك مسرعةً لتتأكَّد أنَّ عليًّا نفسه الذي كان يجلس تحت العريشة في الفناء هو من يردّ عليها. وعندما رأت الهاتف في يده عادت إلى مقعدها.

«أعجبتني وقلت بشاركها معك»، كتبت ثم حذفت الجملة.

«عن جدّ عجبتك؟»، كتبت ثم حذفت هذه الجملة أيضًا.

«تسرُّني صداقتك أستاذ نسر»، كتبت وضغطت على زرِّ الإرسال.

في المساء انتظرت أن يقول شيئًا عن هذا التبادل للرسائل بينهما. همَّت بسؤاله إذا ما أعجبته صفحتها والمنشورات التي تشاركها، أرادت أيضًا أن تعرف لماذا حدَّثها بهذه الجدِّيَّة، هل كان يمازحها؟ أو أنَّه حقًّا لا يتذكَّر أنَّ لها حسابًا باسمٍ وهميٍّ مثله؟! لكنَّها قرَّرت أن تصمت وتكتشف بنفسها.

تتذكَّر صديقتها راغدة في مثل هذه المواقف. تتخيَّلها الآن جالسةً على سلّم بيتها تغطّي فمها بيدها وتكتم ضحكتها التي ترجّ كرشها. بماذا كانت ستنصحها راغدة الشقيَّة؟ راغدة، التي بخفَّة روحها، علمت كيف تعيش في هذا المكان وكيف تغادره. تهزّ رأسها لتطرد وجه راغدة المبتسم. تصيبها ذكرى المغادرين بقلقٍ هادئٍ يُشبه اللحظات الأولى لسقوط شرارةٍ فوق كومة قشّ، لكنَّها لا تلبث أن تهرب لتجد لنفسها عملًا يستنزف كلّ طاقتها. وقفت وتوجَّهت إلى الفناء حيث يجلس عليٌّ أمام درَّاجةٍ ترتفع إحدى

عجلتَيْها في الهواء وتسلتقي أخرى على الطاولة أمامه.

«لمين هذا البيسكلات؟» وقبل أن تنتظر الجواب أضافت «جايي عبالك تاكل تبُّولة؟» نظر عليٌّ إلى الساعة التي شارفت على الخامسة عصرًا «هلَّق تبُّولة؟» قال مستغربًا، وأضاف «إيه مناكل تبُّولة. البيسكلات لمهنَّد».

«مهنَّد مين؟» قالت نبيلة متلعثمة.

«مهنَّد السوري ما غيره» أجاب من غير أن يرفع نظره عن القطعة التي يقلِّبها في يده.

هزَّت نبيلة رأسها وردَّت المنديل فوق فمها. «رايحة جِمّ البقدونسات»، قالت قبل أن تتَّجه إلى الحقل الملاصق للفناء. وعندما غابت عن نظره ركعت على ركبتَيْها إلى جانب المسكبة وأغمضت عينَيْها. شعرت أنَّ بلعومها يتضخَّم ويكاد يمنعها من التنفُّس. لقد ظنَّت أنَّ مهنَّدًا قد غادر إلى غير رجعةٍ هذه المرَّة وأنَّها ألقت بتلك القصَّة وراء ظهرها إلى الأبد.

4

ضيعة تلّ الخرُّوب 1975

رأت نبيلة رأسه للمرَّة الأولى وهي في طريقها من الوادي إلى البيت. كان يقف داخل حفرةٍ كبيرةٍ مع اثنَيْن من زملائه المنهمكين في الطرق على أحد القساطل، وحين التقت عيونهما استدرك طرافة الموقف، سند ذقنه على حافَّة الحفرة وراح يحرِّك بؤبؤي عينَيْه يمينًا ويسارًا كأنَّه دميةٌ بعينَيْن متحرِّكتَيْن. استفزَّ هذا المنظر ضحكةً عاليةً من نبيلة فضحك هو أيضًا ورفع لها قبَّعته الوهميَّة وانحنى وكأنَّه يختتم عرضًا بينما أكملت هي طريقها نحو البيت.

جاء هؤلاء الشبَّان مع شركةٍ أوكل إليها مشروع إقامة قنواتٍ للمياه في قرية تلِّ الخرُّوب. أرسلتهم وزارة الأشغال، بعد خمس سنوات من مناشدة الأهالي لإصلاح الخراب الذي حلَّ نتيجة

الطوفان، لحفر السواقي وإقامة الإمدادات اللازمة لتفادي كوارث مستقبليَّة. استأجر مدير المشروع طابقًا كاملًا من أحد القرويِّين الذي كان يستخدمه كمستودعٍ للمؤن وجعل كلَّ العمَّال يبيتون فيه. كان معظمهم من السوريِّينَ الذين أتوا بحثًا عن فرص العمل والبعض الآخر من عكَّار وبعلبك حيث اليد العاملة متوفِّرةٌ والأجور منخفضة.

التقت نبيلة بشابِّ الحفرة مرَّةً ثانيةً وهي في طريقها إلى الضيعة المجاورة فوقف وتأمَّلها طويلًا مع ابتسامةٍ طفيفةٍ فوق شفتَيْه. بدا طويلًا خارج الحفرة وقد لوَّحت الشمس ساعدَيْه وجبينه ممَّا جعل خضرة عينَيْه أكثر بروزًا. ثم قابلته في الطريق مرَّةً ثالثةً ورابعة، وفي كلِّ مرَّةٍ كان يتوقَّف عن المشي ويشبك ذراعَيْه فوق صدره ويشرد فيها حتى تختفي عن ناظرَيْه. لكنَّهما لم يتبادلا كلمةً واحدةً ولا كانت تعرف عنه أيّ شيء.

لاحظت أنَّها كانت تراه على الطريق في كلِّ مرِّةٍ تخرج فيها وقت الظهيرة، وقد كان ذلك ذات التوقيت الذي رأته فيه لأوَّل مرَّةٍ في الحفرة. وحين كانت تخرج في أوقاتٍ أخرى لم تكن تراه، فتبحث عنه بعينَيْها وتتباطأ في المسير وتغنِّي وتركل الحصى في طريقها من غير أن تجد له أثرًا. استنتجت نبيلة لاحقًا أنَّه لم يكن للصدفة دورٌ في هذه اللقاءات.

أصبح هذا الشابّ يشغل تفكيرها طوال النهار سواءً في مشاويرها المعتادة إلى قرية عينصورة لتعطي الحقن للنساء ولتلبية طلبات والدتها أو أثناء قيامها بالأعمال المنزليَّة في فناء الدار. شعورٌ جديدٌ تملَّكها يشبه انفتاح عينٍ ثالثةٍ في مكانٍ ما في جسدها

أو إضافة حاسَّةٍ جديدةٍ إلى حواسِّها لا اسم ولا وظيفةً واضحةً لها. فجأةً أصبحت الأعمال أقلّ مللًا والمشاوير أقلّ إرهاقًا وشمس الصيف أكثر احتمالًا. كلّ هذه التغيُّرات ظلَّت بلا اسمٍ ولا تعريفٍ حتى بداية فصل الربيع حين التقته قبيل النهر وهي في طريقها إلى المنزل. كانت تحمل سلَّةً مليئةً بالفواكه والخضروات في يمينها وسطلَ حليبٍ معدنيًّا في يسارها ممَّا ترك لمنديلها حرِّيَّة الانزلاق عن رأسها والاستقرار فوق كتفَيْها. وكما يتصرَّف القرويُّون عادةً على تلك الطرق الوعرة والضيِّقة، وقف مهنَّدٌ والتصق بحائط حقلٍ على طرف الطريق كي يفسح لها المجال لتمرّ. ارتبكت حين رأته وسارعت بوضع السلَّة على الأرض لترفع المنديل وتغطِّي شعرها. حيَّاها باحترام وردَّت هي التحيَّة لاهثة، وقبل أن تبتعد ناداها قائلًا «وقِّعتي حبَّة الكوسا» ثم مدَّ يده ووضعها فوق محتويات السلَّة «تأكَّدي إذا لِسَّاتا بتتاكل». للحظةٍ لم تستطع أن تتذكَّر ما إذا كانت هناك كوسا في محتويات سلَّتها ولم تجبه بأيِّ كلمةٍ بل اكتفت بهزِّ رأسها والمضيِّ في الصعود باتِّجاه المنزل.

ربَّما استغرق الأمر أقلّ من دقيقةٍ لتدرك أنَّ حبَّة الكوسا تلك تخصّها هي وأنَّ جملته الأخيرة لم تكن إلَّا تنبيهًا بذلك. وقفت تحت الشجرة وبعد أن التقطت حبَّة الكوسا من فوق بقيَّة الخضروات لاحظت وجود قُطَبٍ بيضاءَ رفيعةٍ بين القِمع وبقيَّة الحبَّة. قطعت الخيط بأسنانها وسحبته ليسقط القمع وتظهر ورقةٌ ملفوفةٌ بشكلٍ أسطوانيٍّ محشورةً داخل كيسٍ بلاستيكيٍّ صغير. أخرجت الرسالة من الكيس بيدَيْن مرتجفتَيْن وأسندت ظهرها إلى الشجرة.

«لم أكن أتخيَّل أنِّي سأتعلَّم تقوير الكوسا وأنا في التاسعة عشرة من عمري، والفضل يعود إليكِ طبعًا ولجارتكم أمّ محمودٍ التي أقرضتني النقَّارة مشكورة... أمَّا بعد،

لا أملك رفاهية إخبارك عن مشاعري، عن الليالي التي هوَّن فيها وجهك عليَّ وحدتي، عن كلّ التعب الذي لم أكن لأقدر على تحمُّله لولا استئناسي بوجودك في قعر هذا الوادي السحيق. لقد شارف مشروع إمدادات المياه على الانتهاء وأجد نفسي غير قادرٍ على المغادرة. لقد تركتُ منزل والدي وأنا في الثالثة عشر من عمري بعد مأساةٍ عائليَّةٍ لم أقوَ على تحمُّلها، ومن يومها وأنا رحَّالٌ يأخذني مشروعٌ إلى شمال البلاد ويُعيدني مشروعٌ آخر إلى جنوبها. لقد نمت في كلِّ الأماكن التي يمكن أن تتخيَّليها وهجرتها من دون أن ألقي نظرةً إلى الوراء وتخلَّيت عن كلِّ شيءٍ عدا سخريَّتي من كلِّ شيءٍ في الحياة. ظننت أنِّي تخلَّصت من مفهوم الغربة يوم عشت حياة التشرُّد مختارًا، لكنِّي اليوم أشعر أنَّ كلّ مكانٍ لن تطالعني فيه عيناك غربة، وأجدني خائفًا من هذه الغربة الجديدة التي لا قول لي فيها ولا خيار. أراكِ من بعيدٍ وأنت تتباطئين في مشيتك في الوادي لتبحثي عنِّي وأرى اللهفة في عينَيْك حين تصادفينني في دروب القرية. ولكنِّي أيضًا أخاف من أن تكون هذه الرسالة في غير موضعها وأن تكون مشاعرك تجاهي محض تخيُّل.

لطالما كنتِ زهرة ليلي يا نبيلة، ولكن هذه المرَّة كوني نجمتي وأرشديني في الطريق.

المخلص لك

مهنَّد»

قرأت نبيلة الرسالة وتذكَّرت الأغاني الشعبيَّة والحكايات التي طالما حاولت أن تفهم حرقة الحبّ وتفكّك أسراره. هذا الحبّ الذي ينقل المرء من عالمٍ يشعر فيه بوحدةٍ لا يفهمها إلى امتلاءٍ يعطي شرعيَّةً لشعور الوحدة ذلك.

«إنَّه الحبّ إذًا. كيف للحبِّ نفسه الذي سحق قلب سمر أن يهديني قلبي؟» فكَّرت نبيلة. تذكَّرت أيَّام الحبِّ الأولى بين سمر وإيادٍ ووجه سمر الجميل الذي كان مضاءً بشكلٍ جزئيٍّ بضوء قنديل الكاز وهي تدندن وتبتسم. كلّ هذا تحوَّل فيما بعد إلى كابوسٍ ووجعٍ وغربة. صعدت قشعريرةٌ من جسد نبيلة واستقرَّت في رأسها وهي مسمَّرةٌ تحت تلك الشجرة لا تدري كيف تتعامل مع المشاعر التي تجتاحها والأفكار المتلاحقة في رأسها.

في اللحظة التي يولد فيها الحبّ في تلك القرى، تعلنه الأمَّهات العدوّ الأكبر والخطر الأحدق. الأمَّهات اللاتي حُرمن من الحبّ، يصررن على قطع طريق بناتهنَّ إليه. كانت نبيلة تعلم كلّ هذا وتعلم أيضًا أنَّ الحبَّ عند أمّها يبدأ في المعجنة وينتهي عند طبخ دجاجة. لذلك كان عرض الحبّ ذلك أشبه بوجبةٍ شهيَّةٍ تقدَّم لشخصٍ جائعٍ لا يد له ولا فم. ارتجفت يدها وهي تُعيد الرسالة إلى حبَّة الكوسا وتدسُّها في جيب فستانها، غير مصدِّقةٍ أنَّها سقطت في فخِّ الحبِّ الموسميّ الذي كانت تحذِّر الفتيات منه. كما أنَّ التوقيت غير ملائمٍ البتَّة، لم تمض شهورٌ على سفر سمر ولم يلتئم جرحها من فراقها بعد، ولا وقت لها لتبكي وتتمارض، لا وقت للحزن الفرديّ في وادي تلِّ الخرُّوب، خاصَّةً وأنَّ كلّ واجبات سمر في العمل المنزليّ قد أوكلت إلى نبيلة. ما

كان يشغلها أكثر من محتوى الرسالة، في طريقها إلى المنزل، هو كيفيَّة التخلُّص منها وكأنَّها تحاول أن تخفي أدلَّةً على جريمة ارتكبتها بكامل وعيها.

حين أصبح لمشاعرها اسم، تحوَّل الترقُّب الجميل الذي كان يزيِّن أيَّامها إلى خوف، وتحوَّلت الغبطة التي كانت تشعر بها حيال رؤية مهنَّدٍ إلى شعورٍ بالذنب. ذنبٌ حيال ماذا؟ ذنبٌ بحقِّ من؟ تلك أسئلةٌ ستستفيق عليها نبيلة في مراحل متأخِّرةٍ من حياتها. ولكن نبيلة الصغيرة توقَّفت عن الخروج من المنزل في الأوقات التي تعزِّز احتمال لقائهما وأخذت تنتظر موعد رحيل المجموعة بترقُّبٍ وأسى. لن تكتب له رسالةً ولن تنظر في عينَيْه بعد الآن. تمنَّت لو أنَّه أجَّل اعترافه قليلًا حتى تملي نظرها منه وتتزوَّد بتلك اللهفة التي ضخَّت الحياة في أيَّامها. كانت تسمح لنفسها بأن تستمتع بالشعور حين كان بلا اسم، مثل طائرها الأبيض ذي الجناحَيْن الأسودَيْن، ولكنَّ التهمة التي أتت مع الاسم ستحوِّلها بديهيًّا إلى عدوَّةٍ لأمِّها التي تمثِّل ديدبان الفضيلة في مجتمعهم.

قرَّرت أن تنسحب بصمت، أن يكون صمتها جوابًا. لن تكون نجمته ولن ترشده في أيِّ طريق، لأنَّها تعرف أنَّ حبَّهما مستحيلٌ والزواج من غير درزيٍّ أمرٌ لا يقوى أحدٌ على ذكره في حديثٍ عابر، فكيف تعطيه أملًا كاذبًا وتتركه رهين قسوة الحياة في هذا الوادي البعيد إن كان لا مستقبل لهما معًا؟!

* * *

كانت نبيلة تطعم أخاها إبراهيم حين سمعت والدها يطلب

من والدتها أن تزيد رطلًا من الطحين إلى عجنتها المعتادة لأنَّ العمَّال سيغادرون غدًا وسيُقيم رجال القرية لهم مأدبة وداعٍ من باب حسن الضيافة. وأخبرها أنَّ بقيَّة النساء سيقدِّمن الطبخ وأنَّ على مهيبة أن تساهم بتقديم الخبز فقط. كانت تلك المعلومات كفيلةً بإحداث انقباضٍ في معدة نبيلة يرافقه شعورٌ قويٌّ بالغثيان. هرعت إلى أختها نجاة وطلبت منها أن تُكمل إطعام إبراهيم لتخرج هي من المنزل بأيِّ حجَّة. لقد تمكَّنت من إسكات الشعور بالذنب حيال أمِّها عندما تجاهلت مهنَّدًا وامتنعت عن الردِّ على رسالته، لكن شعور الذنب نفسه عاد يتسرَّب إليها من مكانٍ آخر. هذه المرَّة شعرت أنَّها مذنبةٌ بحقٍّ مهند. ماذا فعل ليستحقّ هذا الجفاء منها؟ لقد ساعد أمَّها في نقل وعاء العجين إلى المرملة كلَّما سمحت له الفرصة، وساعد النساء المسنَّات في حمل جرارهنَّ من العين إلى أبواب بيوتهنّ، وعمل بنشاطٍ ليُعيد قنوات القرية كما كانت قبل الفيضان. لماذا لا تجازف بردِّ الرسالة برسالةٍ تشرح فيها أسبابها وتشكره على نبله؟ غدًا سيرحل وينتهي كلّ شيء. غدًا ستنضمُّ إلى البنات اللاتي يبكين حبيبًا ويبرِّرن دموعهنَّ بحزنهنَّ على موت أحد أفراد العائلة أو سفره. للمرَّة الأولى شعرت بامتنانها لغياب سمر الذي سيُعطي دموعها شرعيَّة التساقط ويسمح لها بالحزن من دون مساءلةٍ أو تبرير.

في اليوم التالي استيقظت نبيلة لتجد بقعة دمٍ كبيرةً على فراشها الأرضيّ. كان الجميع قد غادر الغرفة والنهار بدأ منذ عدَّة ساعاتٍ خارج جدران المنزل. أرادت أن تسرع وتغسل الملاءات قبل أن يراها أحد، لكنَّ الوجع في أسفل بطنها وشعورًا غامرًا

بالأسى كانا يبطئان حركتها. ظنّت أنَّ مرضًا خطيرًا ألمَّ بها وأنَّ حياتها في خطرٍ وقرَّرت أن تموت من غير أن تخبر أحدًا. فهي تعلم أنَّ والدها غير قادرٍ على دفع تكاليف الطبابة وأنَّ أقرب طبيبٍ يقطن على بعد ساعاتٍ من القرية، كما أنَّ المواصلات نادرةٌ وعمليَّة التنقُّل صعبةٌ وسط المناطق التي اشتعلت فيها الحرب الأهليَّة.

«لماذا أكلِّفهم وأحمِّلهم فوق طاقتهم؟» هذا السؤال الأوَّل الذي تردَّد في رأسها حين رأت الدم على الملاءة. لم يخبرها أحدٌ عن الدورة الشهريَّة وطبيعة جسد المرأة رغم أنَّها أتمَّت الخامسة عشر في أيَّار. كيف لوالدتها التي نهرتها لأنَّها تغنِّي لفيروز «عال طاحونة شفتك عال طاحونة» قائلةً «عيب! هذا الحكي فجور وقلَّة حيا»، كيف لتلك الأمّ نفسها أن تتكلَّم معها عن العضو الأنثويّ وتشرح لها وظيفته؟ هذا الجزء الخطير من الجسد الذي قد يقضي معنويًّا على عائلةٍ بأكملها إن لم يتمّ حفظه وإحاطته بأسوارٍ من الخوف والتهديد. بسبب هذا الجزء نفسه أُعلِن الحبّ خطرًا وتحوَّل أيّ تبادلٍ للحديث بين امرأةٍ ورجلٍ إلى جريمة.

في طريقها إلى السطح لنشر الملاءات رافقها شعورٌ غامضٌ بالارتياح أتى مع فكرة الاحتضار. عندما يقترب الموت ـ حتى لو عن طريق فكرة ـ تتضاءل أمامه المخاوف والهموم الأخرى. يصبح التعب مؤقَّتًا والخوف مؤقَّتًا وكذلك وجع الحبّ يصبح أكثر احتمالًا. وضعت الوعاء على الأرض وفكَّرت في مهنَّد. تخيَّلته وسط زملائه جالسًا فوق حقيبته في مؤخّرة شاحنةٍ تلتهم المسافات

متَّجهةً صوب البقاع أو طرابلس أو أيَّة مدينةٍ أخرى. فكَّرت في المسافة الممتدَّة بين المرَّة الأولى التي رأت فيها فرح عينَيْه وهو غارقٌ في الحفرة والانطفاء الذي رأته في العينَيْن نفسهما في المرَّة الأخيرة. ربَّما كان ذلك منذ ستَّة أشهرٍ أو ثمانية... لا يهمّ. جفَّفت دموعها بكُمِّها، وبعد أن نشرت الملاءات على حبال الغسيل اتَّكأت على حافَّة السور وجالت بنظرها على الجبال المحيطة، فهي تحبّ تلك الجبال وتحفظ انحناءاتها عن غيب، ولكنَّها اليوم تشعر أنَّها عزيزةٌ عليها أكثر من أيِّ وقتٍ مضى. لقد عاشت خمسة عشر عامًا بينها والآن سترحل عمَّا قريبٍ لتنضمّ إلى أسلافها في المقبرة على طرف الغابة. حين وجَّهت نظرها إلى المنحدر للبحث عن مقبرة العائلة استوقفتها حركةٌ بالقرب من بقايا مَدْرستها المقابلة لبيتهم والتي دمَّرها الطوفان قبل خمسة أعوام. رأته هناك يحمل أحجار الطوب ويكمل بناء النصف الآخر من غرفة المدرسة الأخيرة التي لم يجرفها النهر. لم تصدِّق عينَيْها. أليس من المفترض أن يكون قد رحل اليوم مع بقيَّة المجموعة؟ جفَّفت بقيَّة الدموع من عينَيْها لتتأكَّد من وضوح رؤيتها. ماذا يفعل مهنَّدٌ هنا ولماذا يرتدي ثياب العمل ويرمِّم المدرسة؟!

صوت أمّها كان جذع الشجرة الذي يعترض تدفُّق مشاعرها تجاه مهند. «الله ما وفَّق سمر لأنِّي ما كنت راضية على خطبتها»، لا تنفكّ مهيبة تردِّد هذه الجملة كلَّما شمَّت رائحة اعتراضٍ في صوت إحدى بناتها. وهكذا أصبح الله في وجدان بنات وأبناء القرى حليف الأمَّهات الذي يخرِّب حياة كلّ من لا ترضى عنه أمّه ويجعل المصائب تأتي عليه من حيث لا يدري. ولكن هل

يحاسبها الله على المشاعر فقط؟ فمشاعرها لمهنَّدٍ تعتبر جريمةً كبرى قياسًا بإصرار سمر على الزواج من إياد. وإن كانت عقوبة سمر أن يفقد حبيبها ساقَيْه لأنَّ أمّها لا تطيقه، ماذا ستكون عقوبتها هي لأنَّها أحبَّت الشخص الخطأ؟

أمام باب الشيخ أبو طاهرٍ تنفَّست نبيلة بعمقٍ قبل أن تطرق الباب. سمعت خطوات أمّ طاهرٍ وهي تقترب، ثم ظهر وجهها البشوش بعينَيْها اللتين تكثر التجاعيد حولهما وتختفيان تمامًا حين تبتسم. هذه المرَّة لم تسألها ماذا تريد بل أفسحت لها المجال مرحِّبة «أكيد قاصدة الشيخ أبو طاهر. تفضَّلي يا نبيلة». كان الشيخ أبو طاهرٍ قد اعتاد زيارات نبيلة وبدأ يستمتع بأسئلتها والحديث معها. وهي بدورها كانت تشعر براحةٍ عصيَّةٍ على الفهم حين تدخل منزله وتجلس في حضرته. أغلق كتابه حين رآها مقبلة. «أهلًا نبيلة»، رحَّب بها بهيبته المعتادة وبنبرةٍ فيها من اللطف ما يعوِّض غياب ابتسامته. كانت تحبّ أنَّه لا يبدأ بسؤالها عن والدها وعمله وعن صحَّة والدتها وبقيَّة الأمور المملَّة التي تقع في إطار اللباقة وتضع مسافةً بين المتحدِّث والمتحدَّث إليه. كان يسألها مباشرةً عن نفسها، عن هدفها من الزيارة، وهذا ما كان يروق لها كثيرًا.

أخبرته نبيلة عن أختها سمر، كيف اختارت إيادًا حين كان معافى وعن الحياة التي عاندتها وسرقت نصف جسده قبل أن تضع المحبس في إصبعه، وكيف أنَّها عادت واختارته ثانيةً بعد الحادثة ومُنعت عنه من جديدٍ لأنَّه أصبح نصف رجل. أخبرته عن الحرب النفسيَّة التي شنَّتها أمّها على سمر حين حمَّلتها مسؤوليَّة

الحادثة من منطلق أنَّ ما حدث هو نتيجة لعدم رضا الأمّ عن الخطبة. وبعدها أُرغمت سمر على القبول بالعريس الجديد الذي أخذها من بين أهلها وهاجر بها إلى أستراليا. ثم ختمت قولها بسؤال «إن كان هذا ما أراده الله لسمر؟ ما ذنب إيادٍ في حربها مع أمّي؟ لماذا يدفع هو ضريبة خلافاتنا العائليَّة؟».

وضعت نبيلة حملها أمام الشيخ بخفَّةٍ واقتضابٍ ونظرت إلى الأرض. تمتم الشيخ أبو طاهرٍ ومرَّر يده على لحيته. «هذا سؤالٌ متشعِّبٌ يا ابنتي وقد قال السلف الصالح الكثير عن التسيير والتخيير، ولكنِّي سأنسى كلّ الكتب وسوف أجيبك من كتابي يا نبيلة، من حياتي وتجربتي، وهذه أكبر هديَّةٍ يمكنني أن أقدِّمها لك»، قال الشيخ أبو طاهرٍ وقد رقَّ صوته:

«سأبدأ بقصَّتي قبل أن أجيب عن أسئلتك. حين توفِّي والدي رحمه الله لم يترك وصيَّةً لنقوم بموجبها بتقسيم الأراضي الكثيرة التي كان يمتلكها بيني وبين أخوتي الثلاثة. تقاتل أخوتي فيما بينهم على القطع الكبيرة التي تصلح للبناء وتلك المطلَّة على الطريق العموميّ، وبقيت أنا صامتًا. حين تذكَّروا أنَّ لهم أخًا رابعًا قرَّروا أن يعطوني الأرض التي بجانب النهر وهي أرضٌ غير صالحةٍ لا للبناء ولا للزراعة، لأنَّ النهر يفيض كلّ سنةٍ ويجرف جميع المزروعات ويهدم جدران الحقل».

أصغت نبيلة باهتمام مرغمةً نفسها على تفهّم غاية عدم الاختيار في كلامه، محاولةً طمس دبيب الأسئلة فوق سطح هدوئها. لكنَّه شرب رشفة ماءٍ ومسح فمه بفوطته القماشيَّة وأكمل «لم أعترض على اختيارهم ووقَّعت على الأوراق التي وضعوها

أمامي وغادرت. بعد عدَّة سنواتٍ قصدني إخوتي في منزل والدي المتواضع الذي كنت أسكن فيه حينها، أتوا معربين عن أسفهم تجاه ما بدر منهم معتذرين عن جشعهم وعرضوا عليَّ قطعة أرضٍ كبيرةً مطلَّةً على الطريق شرط أن أوقِّع على تنازلي عن أرض النهر. فقبلت بكلِّ سرورٍ ووقَّعت على التنازل رغم علمي أنَّهم جاؤوا لأنَّ الدولة قرَّرت بناء محطَّةٍ لتوليد الكهرباء جانب النهر وأنَّ المتعهِّدين سيشترون الأراضي المحيطة من المالكين بمبالغ باهظة. أحسنتُ استقبالهم وقدَّمت لهم الفاكهة المجفَّفة والمكسَّرات التي كنت أتقوَّت بها في عزلتي حتى آخر الشتاء».

بدأت نبيلة تشعر بالضيق، فهي لم تأتِ إلى الشيخ أبو طاهرٍ كي يخبرها عن كرمه وتسامحه، بل لأنَّها تحتاج إلى إجابات. كانت متعطِّشةً للفهم ومستاءةً من موجات الغضب التي بدأت تجتاحها والأسئلة التي أصبحت تنغِّص عليها إيمانها بالرضا والتسليم. ابتسم الشيخ أبو طاهرٍ وهو يراقبها. «أعرف أنَّك مستاءةٌ الآن ولربَّما تتساءلين عن سبب إخباري إيَّاكِ بهذه القصَّة». ابتسمت نبيلة «حاشاك يا شيخ كلّ كلامك حِكم»، قالت بأدب.

«في الحالتَيْن كنت أنا من اختار يا نبيلة»، قال الشيخ وقد استعاد صوته الجدِّيَّة المعتادة. «لقد اخترت أن أتعالى عن البهجة في امتلاك الأرض، وحين أُخِذت منِّي لم تطَلني حسرة فقدانها. اخترت أيضًا أن أريح نفسي من السعي المحموم للتملُّك وكلّ آلام الصراعات التي تأتي معه. الصراع مؤلمٌ يا نبيلة، لكن لا أحد ينتبه إلى أنَّ هذا الشعور بالقلق هو ألمٌ يحتاج إلى دواء. الأهمّ من الاختيار هو تحمُّل نتيجة خياراتنا، فأنا قبلت بالنتيجة أيضًا.

إخوتي الآن أغنياءُ وعندهم من المال والبنين ما يحلم به أيّ رجل، وأنا لم أنجب ولا أملك شيئًا سوى هذا المنزل المتواضع الذي عمَّرته بتعبي، والآن بعد أن أصبحت كهلًا وعاجزًا عن العمل بِتُّ أعيش وزوجتي على الحسنات. أمَّا الأرض فقد تبرَّعت بها لبناء المدرسة الجديدة».

أيّ مدرسة حضرة الشيخ؟ سألت نبيلة باهتمام.

«لاحقًا سيعلم الجميع بشأن المدرسة، لكن دعينا نعود إلى سمر... فهي من اختارت كلّ شيءٍ منذ البداية، اختارت أن تخطب إيادًا وكذلك اختارت أن تتزوَّج الشابَّ المغترب».

«ولكن يا حضرة الشيخ...» قاطعته نبيلة.

أغمض عينَيْه وتوقَّف عن الكلام فتداركت خطأها وصمتت، فواصل حديثه: «كان بإمكان سمر أن ترفض حتى لو عوقبت. ما كان أحدٌ ليكمِّم فمها ويكبِّل يدَيْها ويرسلها عنوةً مع أهل العريس. كلّ ما في الأمر أنَّها فضَّلت ألمًا على ألم. اختارت ألم الغربة على ألم قسوة والدَيْها والعيش في مكانٍ لا يسمح لها بنسيان مأساتها. وبالنسبة لإيادٍ هو أيضًا مسؤولٌ عمَّا حدث له. لم يختر أن يخسر ساقَيْه طبعًا، ولكن انتسابه للحزب والخضوع للتدريب ومجاورته للأسلحة جعل حادثته ممكنة. شرد قليلًا ثم رفع نظره وقال بصوتٍ أرقّ «هذا الكلام هو كلّ ما عندي لأقوله لك يا ابنتي. وإن فكَّرتِ فيه جيِّدًا ستستخرجين منه جميع الإجابات».

حين خرجت نبيلة من منزل الشيخ أبو طاهرٍ كانت الأسئلة

المترتِّبة على السؤال الذي جاءت من أجله قد ملأت رأسها وضيَّعت ملامح السؤال الأوَّل. هل اختار والداها الكادحان حياة الفقر؟ هل اختار أخوها إبراهيم أن يولد معتوهًا؟ هل اختارت هي المرض الذي يسبِّب لها النزيف؟ أسئلةٌ تحوم فوق رأسها تطنّ كالنحل وتلسع في أماكن غير مرئيَّة. أسئلةٌ تطرحها حول قضايا كبيرةٍ متجنِّبةً القضيَّة التي سبَّبت هذا الغليان الداخليّ وأفقدتها هدوءها المعهود. كانت مستعدَّةً لتسأل الشيخ عن أيِّ شيءٍ إلَّا عن مشاعرها تجاه مهنَّد. لكن مقاومتها لتلك المشاعر كانت تذكِّرها بخوف القرويِّين من الفيضان وبعنف الماء حين كان يفيض من الخرطوم العريض على أرض الفناء وتعجز يدها الصغيرة عن إغلاقه بأصابعها ريثما تجلب أختها الدلو. كلُّ الأسئلة التي تُطرح بعيدًا عن الذات آمنة. ولكنَّ نبيلة ستعلم لاحقًا أن لا أمان لسؤالٍ تنكَّرت له، وأنَّ مقاومة المشاعر هي الطريقة المثلى لتعزيزها.

* * *

لم يحدِّثها أحدٌ عن مهنَّدٍ من قبل. المرَّة الأولى التي سمعت فيها اسمه في جملةٍ موجَّهةٍ إليها كانت بصوت راغدة.

«نبيلة ميّلي شويّ» نادت راغدة حين رأت نبيلة على الطريق في عينصورة، الضيعة المقابلة لتلِّ الخرُّوب. نبيلة لا تعرف عن راغدة إلَّا ما يتداوله أهل القرية عن كونها بنتًا «بلا تربية» ولن يتزوَّجها أحد.

«عندي برمة على نسوان الحارة لازم أضرب إبر» قالت نبيلة معتذرة.

ولكن راغدة أصرَّت على الحديث إليها فلاقتها على باب الدار. انتظرتها راغدة بجسدها المكتنز وشعرها الأشعث على سور البيت، وحين وصلت عانقتها وقبَّلتها بحرارةٍ غير مبرَّرة.

«عندي أمانة إلك من مهنَّد... انطريني لفوت جيبها».

انقبضت نبيلة وتغيَّرت ملامحها. «مهنَّد مين؟ ما بعرف عن مين عم تحكي. لازم إمشي»، لكنَّ راغدة قبضت على ذراعها.

«ما تخافي. كمَشْني مهنَّد مع صالح بالقبو»، قالت ضاحكةً وقد ظهر الفراغ بين أسنانها الأماميَّة ثم أخبرتها أنَّ مهنَّدًا دخل القبو ليحضر المجرفة لوالدها وضبطها تتمرَّغ مع صالح فوق كومة التبن. استحلفته راغدة بسترة أخته أن يحفظ السرّ وقالت له إنَّها مستعدَّةٌ لتقديم خدماتٍ مميَّزةٍ إليه مقابل صمته. لكنَّه قال لها «ما شفت شي ولا سمعت شي» وطلب منها فقط أن توصل أمانةً لنبيلة. قهقهت راغدة مع نهاية القصَّة ثم أدخلت خنصرها تحت شفتها العليا لإزالة شيءٍ عالق ومسحته بثيابها. «اطلعي اشربي قهوة أنا لحالي بالبيت».

للمرَّة الأولى شعرت نبيلة برغبةٍ قويَّةٍ في قبول الدعوة. لقد رأت في راغدة شيئًا لم تره في أحدٍ من سكَّان الضيعتَيْن. كانت مسترخيةً وعفويَّةً وغير معنيَّةٍ بتقديم اعتذاراتٍ عن كونها كما هي، كما كان هناك شيءٌ من المرح النادر في صوتها واندفاعها. كلّ هذا أغرى نبيلة لاكتشاف تلك المرأة أكثر والتعرُّف عليها عن قرب. أتت راغدة إليها بالأمانة، طردٌ صغير الحجم، مغلَّفٌ بورقٍ سميكٍ وُضِع داخل كيس. ثم أمسكت الحلية المعلَّقة بقلادتها

وعضَّت عليها «برحمة إمِّي مش رح خبِّر حدا» قالت راغدة مُطَمئِنة. لكن نبيلة المرتبكة غادرت فور تلقِّيها الأمانة ووعدتها أن تمرّ عليها في المشوار القادم إلى عينصورة.

قبل النهر بقليل، توجَّهت إلى الشجرة التي غالبًا ما تستريح في ظلِّها عندما تقطع الوادي، سحبت الطرد من تحت قميصها ومزَّقت الورق السميك لتظهر رواية «الأجنحة المتكسِّرة» لجبران خليل جبران. أسرعت بتقليب صفحاتها بحثًا عن رسالةٍ مرفقةٍ لكنَّها لم تجد شيئًا. ثم انتقلت إلى الصفحات الأولى راجيةً أن تجد كلماتٍ كُتبت لها أو إهداءً يخصّها، لكن لم يكن هناك سوى إهداء جبران إلى حبيبته:

«إلى التي تحدِّق إلى الشمس بأجفانٍ جامدة،

وتقبض على النار بأصابع غير مرتعشة،

وتسمع نغمة الروح الكلِّي من وراء ضجيج العميان وصراخهم».

شعرت بحريقٍ في صدرها عند قراءة تلك الكلمات. كيف لكلماتٍ مكتوبةٍ لامرأةٍ لا تعرفها أن تصيبها في مكانٍ عميقٍ في روحها لم تكن تعلم بوجوده؟ اختلطت مشاعرها تلك مع خرير مياه النهر وملمس جذع الشجرة والنسمة الربيعيَّة لتصنع حالةً شعوريَّةً ستعيش مع نبيلة إلى الأبد. حالةٌ تخصّ مهنَّدًا وحده، مهنَّدٌ الذي رماها بحفنةٍ من الغبار المسحور لتنقشع رؤيتها على عالمٍ جديد. لطالما نقَّبت تحت الأسئلة عن نوافذ... عن منافذ، لطالَما سرحت بعينَيْها فوق الجبال وفي النجوم وفي قعر فناجين

القهوة، كان هناك دائمًا ذلك الشوق الحارق لترى. وها هي الآن ترى عالمًا آخرَ تحت العالم الذي تعرف.

أنهت نبيلة الرواية على سطح المنزل، أغلقتها وضمَّتها إلى صدرها. كان نبات الوزَّال، الذي ينمو في فصل الربيع، يصبغ الجبال المقابلة بالصفار الفاتح وينتشر ككراتٍ قطنيَّةٍ صفراء فوق التوازن الرتيب لخضرة الغابات. لم يوقظ فيها الوزَّال الشعور بالغثيان من قبل. حين سأل الأستاذ كامل تلامذته منذ سنواتٍ عن زهراتهم المفضَّلة، أجابت نبيلة «الوزَّال» فضحك الجميع إلَّا الأستاذ كامل الذي رفع حاجبَيْه بإعجاب. «لماذا لا تكتبين لنا موضوع إنشاء عمَّا تحبِّينه في هذه الزهرة يا نبيلة؟».

ربَّما بدأ السؤال يطاردها منذ استغربت حبّها للوزَّال في حين يحتفي الآخرون بالخزامي والنرجس والورد، وراحت تطالب هذه النبتة البرِّيَّة بتبريراتٍ لحبّها لها. لكن كلّ ما هو برِّيٌّ غير معنيٍّ بتقديم إجاباتٍ وتفسيرات، وزهور المنحدرات لا تعترف بجمال الأصص ولا يعنيها أن تحيا في حيِّزٍ أنيقٍ وضيِّقٍ لسنوات. الوزَّال مجنون، حين يشمُّ رائحة الدفء يفور حبًّا للحياة ويقذف صفاره في كلِّ الاتِّجاهات، يشرب الشمس والهواء دفعةً واحدةً ثم يحرق عينَيْك باللون الأصفر ويذوي قبل أن تألف جماله أو تفكِّر في احتجازه في أحد أركان منزلك.

كلّ هذا الجمال بدا لنبيلة اليوم خائنًا، والطبيعة، التي برغم كلّ الخسائر والانكسارات، تواصل تفتُّحها، جعلتها تشعر بتفاهة أحزان البشر، وكأنَّ الربيع من حولها يقول: سوف أُغرِق الأرض بالأزهار حتى لو حُرم جبران من حبيبته سلمى وزُوِّجت عنوةً إلى

ابن أخ المطران، سوف أُشهِر الجمال أمام عيونكم وأجعل كلّ تفاصيل الحقول تغنّي حتى بعد موت سلمى ودفنها في قبرٍ واحدٍمع طفلها، سوف أعود كلّ سنةٍ لأذكّركم بعبور كلّ الأشياء بما فيها أوجاعكم!

أغمضت نبيلة عينَيْها وشعرت بحرارة الدموع فوق وجنتَيْها ثم نهضت من الركن الذي كانت تجلس فيه واتّجهت إلى الحقل المتاخم لمنزلهم حيث وجدت أقرب شجيرة وزّال، فقطفت منها برعمًا ووضعته بين صفحات الرواية وأغلقتها.

من سطح المنزل كانت عينصورة، المحشورة في أسفل جبلٍ عملاق، تقع مباشرةً في مرمى النظر على بعد أقلّ من كيلومترَيْن ويسهل على الناظر رؤية صفّ البيوت المتاخمة لطريق الإسفلت والتي لا تتعدّى الخمسين بيتًا. من الشرق يتقاطع جبلان شاهقا الارتفاع ليبدوَا في الظلام كفيلَيْن يغرزان خرطومَيْهما في إناءٍ واحد. أمّا جهة الغرب فكانت مفتوحةً بدرجةٍ أكبر قليلًا قبل أن تعود انحناءات الجبال البعيدة فتحجبها وتصعب الرؤية بسبب الرطوبة في الصيف والضباب في الشتاء. أحبَّت نبيلة السطح قبل أن تعرف شيئًا عن الألم، تأمَّلت الجبال وبكت على أغنية «يا جبل البعيد خلفك حبايبنا» قبل أن تغيب أختها ويصبح لها أحبَّةٌ خلف تلك الجبال. تحوَّلت زاوية السطح نفسه إلى نافذةٍ تطلّ على عالم جديدٍ منذ سكن مهنَّدٌ في المدرسة القديمة فوق المنحدر المؤدّي إلى النهر الذي يمرّ بين الضيعتَيْن.

بعد أن حصل على إذنٍ من مختار الضيعة، قام مهنَّدٌ بتسوية الأرض بالمجرفة وتخلَّص من بقايا الطين والحصى وما تجمَّع من

نفايات. جمع الأحجار ثمَّ استخدم خشب الأشجار وألواح الصفيح التي جرفها الطوفان قبل سنوات كي يسقّف الجدران. وحين انتهى من بناء بيته الصغير، اشترى حصيرةً كبيرةً ليكسو بها الأرض وبعض أواني الطبخ من دكّنجي ضيعة عينصورة. في الخارج صنع خيمةً من القصب تتدلّى من سقفها أسطواناتٌ معدنيَّةٌ تدور وتلمع في الشمس وقام بزراعة الأغصان الصغيرة التي اقتطعها من الأشتال التي أعجبته من أصص أهل القرية.

وحدها نبيلة كانت تعرف أنَّ هذا البيت لها. بيتها الذي لن تسكنه يومًا ولن تغادره أبدًا. أخبرت راغدة أنَّها حلمت بذلك البيت مجدَّدًا، حدَّقت بسحابة البخار المتصاعدة من ركوة القهوة النحاسيَّة وكأنَّها تتذكَّر التفاصيل: «كنت نايمة ببيته على الأرض وذراعاتي مسبلين على جوانبي». قاطعتها راغدة بحماس «كان مهنَّد جنبك؟» رفعت نبيلة الفنجان وقرَّبته إلى فمها. «ما بشوفو أبدًا بالحلم. دايمًا بكون ببيته لحالي». أخذت رشفةً وأكملت لتخبرها أنَّها سمعت صوت تدحرج الصخور في الحلم وعرفت أنَّ الفيضان سيجرف البيت مجدَّدًا، وحين حاولت النهوض لتهرب اكتشفت أنَّها مكفَّنةٌ ولا تستطيع الحراك. هزَّت راغدة رأسها مستنكرة:

«حتى بالحلم محرَّمة على حالك تنبسطي!»

تجاهلت نبيلة النكتة كما ستتجاهل الكثير من تلميحات راغدة الجنسيَّة. كانت راغدة تكبرها بعشر سنواتٍ وتعيش مع والدها في منزلٍ مؤلَّفٍ من طابقَيْن. الطابق الأوَّل للسكن والطابق الأرضيّ عبارةٌ عن قبوٍ للبقرتَيْن اللتين أوكلت لراغدة مسؤوليَّة رعايتهما.

في الأسابيع الأولى لصداقتهما كانت نبيلة قد اعتادت خفَّة راغدة وسطحيَّتها، الطريقة الساخرة التي تشتم بها كلّ شيءٍ لا يعجبها وأسلوبها المبتكر في القَسَم حيث تبحث بأصابعها عن الحلية المعلَّقة بقلادتها الذهبيَّة لتضعها بين أسنانها وتعضّ عليها قائلة «برحمة إمِّي عم إحكي الصدق»، ثم تفلتها وكأنَّها جسدٌ غير ذلك المعلَّق بقلادتها.

«شو هذا يلي معلَّق برقبتك؟» سألتها نبيلة بعد أن حدَّقت مطوَّلًا في الحلية الذهبيَّة المتدلِّية من قلادتها.

«هذا قلب ذهب» أمسكته راغدة بيدها وحنت ظهرها كي تقرِّبه من نبيلة. حدَّقت نبيلة مليًّا بالقلب وتبيَّن لها أنَّ ذلك القلب الصغير المنبعج كان منتفخًا ولامعًا قبل أن تطبع عليه راغدة سوء ظنّ البشر ببعضهم بعضًا. يظهر تجويفان صغيران على أحد جانبَيْه خلَّفهما ناب راغدة الذي تغرسه بالقلب وهي تقسم بقبر أمّها ليصدِّقوها.

وإن بدت نبيلة متسامحةً مع شخصيَّة راغدة الغريبة وسفاهة منطقها ومتحمِّلةً النظرات التي يرمقها بها أهل القرية حين يرونها برفقتها، إلَّا أنَّها كانت تشعر حيالها أحيانًا بشيءٍ من النفور الخفيّ والاستعلاء الأخلاقيّ. اكتشفت نبيلة هذه النظرة الدونيَّة لصديقتها بغتةً وقد آلمتها بالطريقة نفسها التي آلمها اصطدام أصابعها بشقفة زجاجٍ وهي تليِّن كتلة عجين.

كان يومًا صيفيًّا يكثر فيه الذباب وتفوح فيه روائح روث البقر، حين وقفت نبيلة أمام باب القبو تنتظر راغدة لتنتعل حذاءها

وتنطلقا بالبقرتَيْن إلى الحقول المتاخمة للنهر. لكن راغدة تأخَّرت في الداخل وكأنَّ القبو المظلم ابتلعها. بعد أن نادت عليها أكثر من مرَّةٍ سدَّت نبيلة أنفها بطرف منديلها ودخلت، استغرق الأمر عدَّة ثوانٍ كي تتأقلم عيناها مع عتمة القبو، وإذا براغدة تجلس فوق كومة تبنٍ والدموع تملأ عينَيْها. اقتربت منها نبيلة بقلقٍ ونظرت إليها بصمت.

«قَولك لو رجليي أرفع شوي كان حدا تجوَّزني؟» سألت راغدة وهي تتأمَّل ساقَيْها الثخينتَيْن الممدَّدتَيْن أمامها على كومة الشعير، ثم أكملت «يمكن المشكلة بشعري؟ حتى زيت الزيتون يلي بيخرق سبع طبقات جلد ما بيخرق فيه». انتظرت نبيلة ضحكةَ راغدة التي تكرّ كمياه النبع لتجرف الشوك والأحجار، لكنَّ ضحكتها لم تأتِ لتغسل شوك كلامها ولا لتقطع الصمت الذي بقي معلَّقًا في الهواء مثل كتلة الغبار التي كانت تطفو وتدور داخل قطعة الشمس المتسرِّبة من باب القبو المفتوح.

كسرت نبيلة الصمت بقولها: «شو بدِّك فيهم للرجال؟ هم الخسرانين»، وأضافت «بتتذكَّري الكلب يلِّي شفتلك إيَّاه بآخر فنجان؟ الكلب ابن حلال، ولا بدَّ ما يظهر بحياتك».

أفقدها هذا الموقف حذرها من راغدة وراحت تكشف لها يومًا بعد يومٍ عن مكنونات قلبها. فتشتكي أحيانًا من قسوة وظلم والدتها التي كانت تعارض صداقتهما وتنعت راغدة بـ «الزهراويَّة» لرغبتها في الحديث مع الرجال ولفت انتباههم بضحكاتها الماجنة. لكن راغدة لم تكن تحمل الضغينة لأمِّ إبراهيم بل ترفع كتفَيْها بلا مبالاةٍ وتقول لنبيلة «إمَّك دقَّة قديمة. مسكينة هي المرا

بشكّ إنُّو بحياتها جايي ظهرها أو انبسطت مع زوجها بالتخت» فتنهرها نبيلة «استحي هَيّ إمِّي».

وفي إحدى أيَّام الصيف استخدمت راغدة دهاءها لترتِّب لقاء «صدفة» بين مهنَّدٍ ونبيلة. فطلبت منه أن يأتي ليقطِّع لها حطب التدفئة في الفناء بالتزامن مع زيارة نبيلة لها. قامت بنشر ملاءةٍ كبيرةٍ تصل إلى الأرض على حبل الغسيل الممتدّ وسط الفناء، فقسمته إلى قسمَيْن كما تقتضي الأعراف. وضعت بعدها كرسيَّيْن في اتِّجاهَيْن متعاكسَيْن على جانبي الملاءة كي تؤمِّن لهما فرصة تبادل الحديث من غير أن ينتبه الجيران أو المارَّة.

كان مهنَّدٌ يُحضر الفأس من القبو عندما وصلت نبيلة وجلست وراء الستار في الجهة المقابلة للطريق، فلم تعلم بوجوده. لاقتها راغدة بابتسامةٍ وجلست قبالتها قبل أن تسألها «شو شفتيه لحبيب القلب بطريقك لعندي؟» وكانت تقصد مهنَّدًا بسؤالها. «لا ما شفتو» ثم أضافت «وإن مرَّ يوم من غير رؤياك ما ينحسبش من عمري» وضحكت.

«طيِّب إذا قلتلك إنُّو مهنَّد ورا هذا الستار شو بتعطيني مكافأة؟» سألت راغدة مداعبة، لكنَّ نبيلة وسعت عينَيْها وبدت غير مصدِّقة. «كذَّابة، عم تمزحي» قالت. لكنَّها سمعت صوته يأتيها فجأةً من خلف الستارة «كيفك نبيلة؟». تسمَّرت في مكانها وبدا كأنَّها توقَّفت عن التنفُّس.

«أنا لا بسمع ولا بقشع ولا بحكي» قالت راغدة حين رأت نظرة الذعر في عيني نبيلة.

على الجانب الآخر، حيث لا يراه المارَّة، قرَّب مهنَّدٌ كرسيِّه من الملاءة حتى شعر باحتكاك ظهر كرسيِّه بكرسيِّها، مال برأسه قليلًا «سمعتك شو حكيتي. وأنا كمان أيَّامي ما لها قيمة من دونك» همس للقماش الأبيض. لكزتها راغدة بكوعها «إحكي إنتي مش تمثال» قالت لها بصوتٍ منخفضٍ قبل أن تنهض من على الكرسيّ وتدخل إلى المطبخ لإعداد القهوة.

«خبّريني أيّ شي عنك؟» قال مهنَّدٌ بتوسُّلٍ وانتظر الجواب لما يزيد عن دقيقة. ولمَّا لم يأت، أضاف «شو أفضل أغنية عندك؟» سألها ليسحب بضع كلماتٍ من فمها. تردَّدت نبيلة قليلًا وهي تلفّ طرف منديلها على سبَّابتها بتوتُّر، ثم همست للستارة «بعيد عنَّك حياتي عذاب». جاء صوتها متردِّدًا وخجولًا مثل نسمة آخر الصيف. لكنَّها لم تقل أيّ شيءٍ آخر بعد ذلك، تاركةً لمهنَّدٍ تأويل إجابتها كيف يريد. تساءل بعد أن انتهى اللقاء ما إن كانت قد أجابت عن سؤاله أم اعترفت له بعذاب بعدها عنه؟ ثم طاب له أن يختار الاحتمال الثاني ويتَّخذه جوابًا على كلِّ الأسئلة التي استعصت عليه.

5

بيروت 2008، مستشفى زهرة المدائن الحكوميّ

دخلت الممرِّضة الغرفة للمرَّة الثانية، «بعدها نايمة؟» سألت، ثم وضعت صينيَّة الطعام على طاولةٍ على يمين السرير واقتربت من سمر لتتفقَّد السائل الذي يقطر من كيس الدواء المعلَّق على العمود المعدنيّ. كانت الممرِّضة في بداية العشرينيَّات من عمرها بوجهٍ طفوليٍّ أبيض وعنقٍ رفيعٍ تغطِّيه خصلتا شعرٍ تسرَّبتا من تحت قبَّعتها الطبِّيَّة الزرقاء. راقبتها نبيلة من فوق كرسيِّها الذي يقع على الجانب الآخر لسرير سمر، توقَّفت عيناها على يدَيْها الناعمتَيْن وفكَّرت في كلِّ الأيادي والأذرع والأجساد التي تلمسها وتطبِّبها هاتان اليدان الرقيقتان، ثم أنزلت نظرها إلى يدَيْها الخشنتَيْن، قبل أن تشبكهما وتخفيهما تحت منديلها الذي يغطِّي صدرها ويصل إلى حِجْرها.

«إذا احتجتِ شي يا شيخة اكبسي على الزرّ الأحمر» قالت الممرِّضة بأدب.

كان هواء البحر الذي يدخل الغرفة من الباب المفتوح على شرفةٍ صغيرةٍ يحمل رائحة الصيف. لطالما حلمت نبيلة بالبحر وهي في قريتها الجبليَّة البعيدة، تمنَّت أن تراه عند الفجر وتخيَّلت نسيم الصباح يداعب وجهها، لقد أتمَّت السابعة والأربعين من عمرها منذ أشهرٍ ولم تلمس قطرةً من مياه البحر بعد ولا وطأت قدماها رمال أيّ شاطئ. حدَّقت في مركبَي الصيد الصغيرَيْن اللذين يرقصان مع الموج على بعد عدَّة أمتارٍ من السنسول الصخريّ الذي يطلُّ عليه المستشفى في منطقة الجناح. «قولك رح تجي أمِّي تشوفني؟» استفاقت من شرودها على سؤال سمر. اقتربت من السرير ووضعت يدها على رأس أختها المربوط بعِصابةٍ لتخفي فروتها الخالية من الشعر.

«صحّ النوم... أنا بدِّي أطلع الليلة طلّ على البيت وبنجيبها معنا أنا وعلي بكرا» قالت نبيلة بحنان.

«لا ما تتركيني يا نبيلة، خلص إمِّي بتجي مع حدا من القرايب» قالت سمر متوسِّلة.

لطالما استصعب سكَّان القرى النائية زيارة المدن، وخاصَّةً بيروت التي يقتضي الوصول إليها ساعتَيْن من الانحدار باتِّجاه البحر في عددٍ لا يُحصى من الانعطافات وما يرافقها من تغيّرٍ في الضغط الجوِّيّ ودرجة الحرارة والازدحام. ورغم هذا لم يتأخَّر أهل تلّ الخرُّوب عن زيارة سمر. لقد أتى الرجال مع زوجاتهم

وأمَّهاتهم محمَّلين بالهدايا من الفاكهة الموسميَّة والحلويّات والعسل والجوز البلديّ.

«عرفتيني؟ أنا ابن عمِّك نجيب؟» يقول أحد المشايخ وهو يقف أمام سريرها ثم يأتي آخر ويقول «أمِّي بتسلِّم عليكي وقال لا تواخذيها ما قدرت تجي».

يتناوبون على الوقوف أمام السرير ويتكلَّمون بصوتٍ مرتفعٍ للغاية ليتأكَّدوا أنَّها تسمعهم، فتبتسم سمر وتهزّ رأسها. تحاول أن تتذكَّر وجوههم، أن تُبدي فرحتها لرؤية هؤلاء الأقارب الذين حلمت بدفئهم وأصواتهم لأكثر من ثلاثين عامًا، كانت لتفعل المستحيل لترى وجه واحدٍ من تلك الوجوه في غربتها. لقد غادرت حين كان الكثير من هؤلاء الرجال صبيةً يلعبون في ساحة الحيّ، ولم يخطر ببالها يومًا أنَّها حين تلتقي بهم من جديدٍ ستكون ممدَّدةً فوق سريرٍ في مستشفى حكوميٍّ وهي تشقّ طريق الذاكرة بجهد، مقاوِمةً الخدر الذي تسبِّبه المسكِّنات. كانت تحدِّق في عيونهم كأنَّ ملامحهم جسورٌ تحاول عبورها إلى ماضٍ يذكِّرها مَن كانت قبل أن تخطفها الغربة. لكن تلك الحياة التي تركتها خلفها تكاد تبدو كحلمٍ بعيدٍ لا شيء يربطها به بشكلٍ وثيقٍ سوى صوت نبيلة.

كان الغروب يلوِّن الأفق بخطوطٍ ناريَّةٍ وينعكس على الباب الزجاجيّ لغرفة المستشفى حين دخل الطبيب تتبعه الممرِّضة نفسها ذات العنق الجميل وتسحب طاولةً معدنيَّةً عليها الكثير من الفناجين الممتلئة بأقراص الدواء. «كيف حال مريضتنا الحلوة؟ ما في وجع صحّ؟» سأل الطبيب بشيءٍ من المرح ثم طرح على سمر

ونبيلة بعض الأسئلة الروتينيَّة. تهامَس مع الممرِّضة ثم ضحكا معًا، فشعرت نبيلة بجمال تلك الألفة بين شخصَيْن يعملان معًا. شبكت الممرِّضة ذراعَيْها ومالت برأسها إلى اليمين وهي تستمع إلى توجيهات الطبيب الذي يحرِّك يده في الهواء أثناء حديثه معها. بدا عنقها هشًّا مثل عنق طائر البلشون ووجهها ضعيفًا وأقلّ جمالًا في الضوء البرتقاليّ للمغيب، لكن عينَيْها كانتا يقظتَيْن تلتهمان التعليمات وتشعَّان بالثقة والمسؤوليَّة.

«أمانة ما بقى بدنا نخبِّص بالأكل يا شيخة»، قال الطبيب لنبيلة بلطفٍ معترضًا على أنواع الأطعمة التي تجلبها لسمر وتسبِّب لها مشكلةً في الهضم. لكن نبيلة لا تأبه بالهضم ومشاكله. كيف ستشرح للطبيب أنَّها تعوِّض أختها، بما لذَّ وطاب من الطعام، عن كلّ ما فاتها من القرب والاحتواء طوال ثلاثين سنة. كيف تخبره أنَّ أمَّهما التي لم تطأ قدماها بيروت في حياتها لم تأت بعد لرؤية سمر ـ التي وصلت من المطار إلى المستشفى مباشرة ـ وبدلًا من ذلك تستيقظ في السادسة صباحًا وتقضي نهارها في الطبخ لسمر وتعليب الأطعمة والحلويات ليأتي بها الأقارب إلى المستشفى.

أرادت أن تقول له «سمر جائعةٌ أيُّها الطبيب، تلتهم ما استطاعت أن تحصل عليه من أمّها التي لم تحصل منها في حياتها كلّها سوى على الطعام. تحشو الأنفاق الباردة في روحها بما يأتي في علب الطعام البلاستيكيَّة من الكبَّة واللوبية بالزيت والمسقَّعة وورق العنب، لكنَّ الخوف من المجهول يلتهم كلّ ما تأكل ويُبقيها جائعة. دعنا نحبّها بالطريقة الوحيدة التي تعلَّمناها أيُّها الطبيب، فنحن لم نتعلَّم التواصل ولا نعرف كيف نضع حمولتنا

للحظاتٍ عن طريق ضحكةٍ عفويَّةٍ عابرة». لكنَّها لم تقل أيًّا من هذا بل فتحت حافظة طعامٍ بلاستيكيَّةً تحتوى على قطع التمريَّة ومدَّت يدها له «تفضَّل دكتورً جابِرنَا».

ظنَّت نبيلة أنَّ أَحَبّ أوجه البحر إلى قلبها يظهر عند الغروب، لكن مجاورة البحر لعشرة أيَّامٍ جعلتها تكتشف أنَّها تفضِّل «الساعة الزرقاء» التي تلي الغروبً الكامل للشمس. في تلك الساعة لا يكون هناك ضوءٌ كاملٌ ولا ظلمةٌ كاملةٌ ويختلط على الرائي إن كان الوقت فجرًا أم أوَّل الليل. «لا شيء محسوم، الفرج غير مكفولٍ والأمل ينبت حتى في أرضٍ بور»، فكَّرت نبيلة وهي تراقب انعكاس أضواء البنايات المرتفعة وأعمدة الإنارة فوق الأمواج. شعرت بألمٍ في ظهرها وهي تبتعد عن سور الشرفة حيث بقيت متَّكئةً لوقتٍ طويل، فهي تنام جالسةً على كرسيٍّ منذ أيَّامٍ ولا تتحرَّك بالشكل المعتاد الذي تفرضه عليها حياة الريف. ليسً جسدها وحده، بل كلّ شيءٍ يؤلمها، فنبيلة تعلم أنَّ القادم سيكون أصعب وأنَّ الأدراج العتيقة لروحها مليئةٌ بقصاصاتٍ مجتزَأةٍ من الماضي وأسئلةٍ نازفةٍ لا تضمِّدها أنصاف الإجابات.

«الله كريم بكرا بتصحّ وبتجي عالبيت» قالت مهيبة السبعينيَّة عبر الهاتف بصوتٍ مرتفعٍ وأضافت «أنا ختيارة مش خرجي روح مشاوير طويلة».

صمتت نبيلة لبرهة «آلو آلو. . .» ارتفع صوت مهيبة على الطرف الآخر.

«عم إسمعك يا أمِّي. سمر يمكن ما تصير منيحة، اجبري

بخاطرها وتعي شوفيها حتى لو تعبتي شوي عالطريق»، قالت نبيلة برجاءٍ وهي تتمشَّى في رواق المستشفى الطويل وتسترق النظر ـ بين الفينة والأخرى ـ إلى داخل الغرفة حيث تنام سمر بفمٍ مفتوح.

لقد بدأ هذا الكابوس منذ ثمانية أشهرٍ حين علمت نبيلة أنَّ أختها سمر مصابةٌ بالسرطان. أرادت سمر أن تخفي الأمر عن أهلها في بادئ الأمر ظنًّا منها أنَّها ستُشفى قريبًا، لكن وضعها بدأ بالتدهور، والسرطان الذي نشأ في بطنها أخذ ينتشر صاعدًا إلى الرئتَيْن والرأس.

«ما في أمل يا نبيلة، حطُّوها لأختك عالمورفين بمستشفى على طرف مدينة ملبورن»، قالت نجوى صديقة سمر المقرَّبة عبر الهاتف بصوتٍ مخنوق. من يومها بدأت نبيلة اتِّصالاتها إلى كلِّ جهةٍ تعرفها حتى تؤمِّن لأختها سريرًا في مستشفى حكوميٍّ في بيروت. تصاعدت الأصوات المعارضة من حولها «مين بيترك الطبّ المتقدِّم في أستراليا ويجي يتطبّب بلبنان؟» قال أحد أبناء عمِّها. «بدكم تقتلوها للمخلوقة؟» قال آخر. «ليش النسوان صارت تفتي بالقضايا الكبيرة؟» قال عمّ نبيلة قبل أن تفقد رزانتها وتنفجر في وجهه قائلة «هذا الناقص بعد تحكمونا بموتنا كمان، ما بيكفِّي إنّكم بتتحكَّموا بكلِّ تفاصيل عيشتنا؟». صمت كلّ من في الغرفة وأكملت نبيلة بعد أن استعادت هدوءها «يلِّي عندو نصيحة بتنفع يقدِّمها ويلِّي قادر يتفضَّل يتبرَّع بمبلغ مالي، لكن الاعتراض غير مرحَّب فيه». تفاجأ الجميع، الذين يعرفون نبيلة كامرأةٍ رزينةٍ وهادئة، من لهجتها القاسية وتفاجأت هي نفسها من ردَّة فعلها

تلك، فهي ما زالت لا تعلم من أين أتى جوابها هذا ولا كيف للحظاتٍ نسيت خوفها من نظرة الآخرين لها ومن فقدان رضا والدَيْها ومن أشياء أخرى لم تعد تتذكَّرها.

تتذكَّر كم تعبت وهي تحاول إقناع سمر بالعودة إلى بيروت «ما بدِّي غلِّب حدا معي»، قالت سمر مرَّة، وتذرَّعت بأنَّها لا تريد أن تترك زوجها وحده، وخافت من مشقَّة السفر وهي مستلقيةٌ على حمَّالةٍ ترافقها عبوة الأكسجين والأنابيب المتَّصلة بجسدها. لكنَّها لم تذكر شيئًا عن عدم قدرتها على تحمُّل تكاليف السفر وهي في هذه الحالة. لم تستطع أن تقول لأختها إنَّها وبعد أكثر من ثلاثين عامًا في الغربة لم تدَّخر ما يسمح لها بالعودة إلى وطنها كي ترى أهلها لمرَّةٍ قد تكون الأخيرة.

«بَخْجَل من أهلي بعد كلّ هالعمر أعترف إنُّو ما معي شي»، قالت لصديقتها نجوى وهي مستلقيةٌ على سرير المستشفى الذي يطلّ على غابةٍ كثيفةٍ في ملبورن، وأضافت «بخجل من حالي إنَّه بس كنت عم آكل وأشرب والعمر عم يمرق بهالبلد البعيد». لكن نجوى اعترضت على كلامها وذكَّرتها ببيتها الجميل الذي بنته في ضيعة زوجها.

«نسيتي قدِّي صرلك بتحطّي القرش على القرش حتى تعمِّري هالبيت! رح تشفي وترجعي تسكنيه إذا الله راد».

ولكن سمر أكملت وكأنَّها لم تسمعها «بحسّ لازم أرجع بهدايا وأموال حتى عوِّضهم عن غيابي وأثبت لنفسي إنُّو هالعمر يلِّي ضاع ما ضاع عالفاضي». تركتها صديقتها تتكلَّم وجلست

بجانب سريرها حتى تعبت من الكلام واستسلمت للنوم. في الصباح تواصلت نجوى مع بعض الأصدقاء في الجمعيَّة الدرزيَّة الأستراليَّة التي أسَّستها الجالية الدرزيَّة في بداية الألفيَّة وطلبت منهم جمع تبرُّعاتٍ لإعادة سمر إلى وطنها. لم تمرّ ثمانٍ وأربعون ساعةً حتى اكتمل المبلغ المطلوب للسفر على سريرٍ مجهَّزٍ وبرفقة ممرِّضة. «كلّهم بحبُّوكي يا سمر» قالت نجوى وهي تزفُّ الخبر إلى صديقتها وتمسح الدموع التي تجمَّعت في عينَيْها، ثم راحت تقرأ لها الرسائل التي وصلت من المتبرِّعات والمتبرِّعين.

كيف لا يتبرَّعون حين تريهم الحياة أسوأ مخاوفهم تحدث لشخصٍ غريبٍ مثلهم، يعيش الحياة نفسها ويحمل ذات الآمال؟ الكرم في هذه الحالات يختلط برغبةٍ لا واعيةٍ في رشوة القدر ليعفينا ويعفي من نحبُّهم من هذه الأقدار. الكرم يصبح فعل مقاومةٍ ورفضٍ لهذا المصير الذي لا يتجرَّأ أحدٌ على تخيُّله مع أنَّه واردٌ وقريبٌ كقربنا من وجبتنا التالية.

دخلت الممرِّضة الجميلة عند السابعة مساء، لم تكن ترتدي البنطال الفضفاض والقميص الأبيض المزرَّر، ولا كانت القبّعة الطبِّيَّة تغطِّي رأسها وتكبِّل شعرها الذي انساب اليوم ليصل إلى نصف ظهرها. «حبِّيت مُرّ إسأل عن سمر وشوف إذا بدكم شي قبل ما فِل»، قالت لنبيلة وهي ترجع خصلةً من شعرها إلى الوراء. بدت مختلفةً بثيابها الضيِّقة ومكياجها الخفيف وكأنَّها خلعت عنها رائحة المستشفى وأصبحت جاهزةً لتسحب ستارًا لامرئيًّا بين عالم المرضى وحياةٍ أخرى مليئةٍ باحتمالات الفرح لا عقاقير ولا موت فيها. تخيَّلت نبيلة للحظةٍ أن تكون مكانها بجسدٍ

فتيٍّ خالٍ من الأوجاع وقلبٍ لم يعرف كلّ هذا الاحتراق، تخيَّلت أنَّها تقف أمام باب المستشفى وتوقف تاكسي لتذهب إلى أيِّ مكانٍ تريده، لكنَّها لم تستطع أن تتخيَّل إلَّا قريتها ومنازل مَن تعرفهم.

تستيقظ سمر للحظاتٍ خلال نومها لتسأل عن ابنها «اتَّصل وليد؟ بعت شي رسالة؟» وتنام قبل أن تسمع الجواب ثم تستيقظ بعدها بقليلٍ وتسأل «رح تجي أمِّي اليوم؟» وتنام أيضًا قبل أن تسمع الجواب. هكذا يتقلَّص عالمنا ليقتصر على شخصٍ أو اثنَيْن حين نشرف على الموت، فكَّرت نبيلة. ثم راحت تفكِّر في الأشخاص الذين ستهذي بأسمائهم حين ترقد في انتظار الموت ذات يوم. لكنْ لسمر ابنٌ وحيدٌ ولنبيلة أربع بنات، ولسمر زوجٌ صعب المراس عاشت معه ذليلةً خائفة، ولها هي زوجٌ لا تستطيع أن تزعم أنَّها تعرفه حقّ المعرفة. لقد تجاورتْ هي وعليٌّ في هذه الحياة مثل نبتتَيْن برِّيَّتَيْن شاء هبوب الريح أن يغرسهما في بقعةٍ واحدة، وهكذا عاشا يتنفَّسان الهواء نفسه ويعيشان على العناصر نفسها، لكنَّ أحدًا منهما لم يقترب خطوةً تجاه الآخر.

القمر المكتمل في السماء يملأ الغرفة بالبياض ويبدو من النافذة مثل قطعةٍ معدنيَّةٍ لامعةٍ في قعر بركة ماء. «الذين يعيشون جانب النهر يتقنون فنَّ النسيان» قال لها مهنَّدٌ ذات يوم بعيد. يومٌ كأنَّه أبعد من كلِّ السنوات التي عاشتها. كم تمنَّت لَو كان هذا الأمر حقيقيًّا، لو أنَّ القمر الذي يشبه قطعةً معدنيَّةً لم يجلب معه هذا السيل من الصور والأصوات. تغمض عينَيْها وتتذكَّر كيف كانت هي وسمر تدلِّيان أرجُلهما داخل بركة الريّ في الحقل

وتلاحقان الشراغيف بكوبٍ بلاستيكيٍّ صغير. تشعر الآن بخوفٍ تلك الشراغيف التي كانت تلتصق بجدران البركة خوفًا من الأجساد الغريبة التي تلاحقها، ولكنَّها لم تتخيَّل أبدًا أنَّها وأختها ستتحوَّلان إلى شرغوفَيْن خائفَيْن يختبئان في غرفة مستشفى حكوميٍّ من يد القدر العبثيَّة. تفتح نبيلة عينَيْها على صوت سمر وهي تهذي بكلماتٍ غير مفهومة. تنطق بكلماتٍ إنكليزيَّةٍ أحيانًا وأحيانًا أخرى تقول كلماتٍ بلغةٍ لا تعرفها.

انشغلت نبيلة بهشِّ الموت عن سرير أختها بيدٍ ومحاولة جرّ الأحياء لزيارتها بيدها الأخرى. «دخيل إجريكي يا أمّي تعي شوفي سمر ما بقى تأجّلي ولا نهار»، تقول عبر سمَّاعة الهاتف الأرضيّ في غرفة المستشفى. «كرمالي يا وليد قوم احجز تيكيت وتعال على بيروت شوف إمّك! عم بترجَّاك» تقول لابن سمر عبر هاتف الشارع أمام المستشفى والذي يسمح بإجراء اتِّصالاتٍ خارجيَّة.

سمحت نبيلة لنفسها بمخاطبة وليد بعشم مع أنَّها لا تعرفه حقَّ المعرفة. إلى جانب الصور التي كانت ترسلها والدته مع الرسائل، وبعض المحادثات المقتضبة على الهاتف والتي لا تتعدَّى إلقاء التحيَّة وكلمات مجاملةٍ خجولة، ولد وليد في استراليا وكَبُر فيها. لقد زار لبنان لأوَّل مرَّة في بداية الألفيَّة رفقة والدته ليمضيا الصيف مع الأقارب قبل التحاق وليد بالجامعة. ورغم محاولات خالاته وجدَّته للتقرُّب منه وجعله جزءًا من العائلة ظلَّ وليد هادئًا قليل الكلام رغم إتقانه للغة العربيَّة المحكيَّة.

عندما وصل وليدٌ إلى مطار بيروت الدوليّ الساعة الواحدة

ظهرًا، كان في استقباله أحد أقارب والده ليقلّه إلى المستشفى. لكنَّ وليدًا أصرَّ على الذهاب إلى الفندق أوَّلًا كي يستحمّ ويبدِّل ثيابه قبل زيارة والدته. في المساء، بعد أن أقنعت سمر بأكل بضع ملاعق من الملَّهبيَّة من يدها، عدلت نبيلة وقفتها، وقالت «عندي مفاجاة إلك، الليلة رح يجي حدا كتير بتحبّيه يشوفك»، ثم أتت بخرقةٍ مبلَّلةٍ ومسحت وجه سمر ورقبتها. «بدِّي كَحِّل عيونك كمان»، أضافت بحماس. لكنَّ سمر، التي بدأ وضعها بالتدهور منذ أيَّام، لم تستجب لشقيقتها كما كانت تفعل في الأيَّام الأولى لوصولها، إذ كانت تُظهر فرحتها لكلِّ صحن طبيخٍ يأتي من القرية من بين يدَي أمّها. «أووه مسقعة» كانت تهتف حين تفتح نبيلة حافظة الطعام أو تقول «يا الله شو اشتقت لورق العنب» بفرحٍ مماثل. لكنَّها اليوم لم تُبدِ أيّ فضولٍ ولم تسأل عن الزائر المرتقب وتمتمت «أهلًا وسهلًا بالجميع. كثر خيرهم عم يطلُّوا عليي».

خافت نبيلة أن تقول لها إنَّ وليدًا آتٍ لزيارتها لأنَّها وكما قالت لشقيقتها الكبرى نجاة عبر الهاتف «ما عدت إكفل حدا، شو بيعرِّفني شو بيطق براسه؟ إذا ما شفته قدَّام الباب ما رح قول لإمُّو!» صمتت قليلًا ثم أضافت «بَدِّيش خلِّيها تأمِّل وينكسر خاطرها بالآخِر». ولكنّ وليدًا أتى في المساء. وصل إلى غرفة والدته قبل منتصف الليل بقليل. لم تصدِّق نبيلة عينَيْها عندما رأته واقفًا كالشبح عند الباب، ولم تفهم كيف استطاع تخطّي أمن المستشفى ليصل إلى غرفة أمّه في هذا الوقت المتأخِّر. كانت الأضواء خافتةً وجميع المرضى نائمين، ولكنَّها تعرف قامته جيِّدًا،

بنيته النحيفة والثياب الواسعة التي يرتديها والقبَّعة التي لا تفارق رأسه. «وليد؟» قالت وهي لا تزال جالسةً على كرسيِّها بجانب السرير، وحين اقتربت منه ما لبثت أن انتبهت أنَّه مخمورٌ ويترنَّح. مسكته من يده وسحبته وراءها إلى داخل الغرفة، فتحت باب الخزانة الضيِّقة على مهلٍ ثم سحبت بطَّانيَّةً ورمتها أسفل الباب الزجاجيّ الذي يؤدِّي إلى الشرفة.

«نام هون» أمرته بصوتٍ أقرب إلى الهمس. حاول أن يتكلَّم بلسانٍ ثقيلٍ ولكنَّها نهرته. «نام هلَّق وبكرا منحكي» قالت بلهجةٍ صارمةٍ وعادت إلى كرسيِّها.

في الصباح استيقظ وليدٌ على صوت خالته نبيلة، وحين فتح عينَيْه رأى يدًا ممدودةً تجاهه بفنجان قهوةٍ ورقيٍّ «قوم يا وليد غسِّل وجهك» وعندما رفع رأسه عن الأرض وعدل جلسته أضافت «أخذو أمّك يعملولها صورة أشعَّة، بس ترجع بدِّي تكون غسلت وجهك وشربت قهوتك وصحصحت لتلاقيها بوجه يليق فيها»، قالت بلهجةٍ فيها شيءٌ من التهديد وكأنَّها رئيس عملٍ يعطي تعليماتٍ لموظَّفيه. لم تنبس بحرفٍ عن ليلة البارحة. لم تطرح أيّ سؤال، لم تلمه ولا أنَّبته كما كان ليفعل أيّ شخصٍ آخر من العائلة.

«أنت معلِّمة في إدارة المصائب وتحديد الأولويَّات» قال لها أحد أصدقاء زوجها في يومٍ من الأيَّام، ما زالت تذكر هذه العبارة لأنَّها ارتبطت في مخيِّلتها بارتباكٍ وانزعاجٍ غير مبرَّرَيْن طرآ آنذاك على ملامح زوجها عليٍّ حين سمع هذه الكلمات.

فكّرت نبيلة في ابنتها أمل وقرّرت أن تكلّمها. أمل وحدها عرفت كيف تصادق وليدًا وتفهمه.

«شو بيعجبك فيه لـ هالمعاق؟» كانت أخوات أمل يسألنها حين تتكلّم عن حدّة ذكاء ابن خالتها ورهافة حسّه. لقد حدّثها وليدٌ عن الكتب وعن الفيزياء وتكلّم معها عن لعبة الشطرنج والقوانين التي تحكمها لساعات. استمع معها لأغاني بوب ديلان ومايكل جاكسون وترجم لها الكلمات التي لم تفهمها. باستثناء معاملته الفظّة لأمّه وطبيعته الجافّة مع بيت جدّه، كان وليدٌ شخصًا مثاليًّا في عيني أمل. «متأكّدة من قرارك؟» سألها وليدٌ في صيف 2002 عندما علم بموافقتها على الزواج من تاجرٍ اسمه سالمٌ وهي في الخامسة عشرة من عمرها. هزّت رأسها موافقةً لأنَّ الأمر كان أكثر تعقيدًا من أن يفهمه وليدٌ الذي لم يكن ليقبل عذرًا مثل «ما عندي خيار تاني» وكان سيبدأ نقاشًا طويلًا عن الخيارات والإرادة الفرديَّة والتخطيط والعمل. وليدٌ الذي وُلِد في مجتمعٍ غربيٍّ ورأى من الحياة ما يساعده على الإيمان بهذه الأفكار، ما كان ليفهم عجز أمل التي وُلدت وعاشت في قريةٍ غارقةٍ بين الجبال تقع على بعد 70 كلم من العاصمة وتربّت على الخوف والتردُّد والكثير من المداراة.

«حطّ إيدك ع راسي خلّيني حسّ فيك»، قالت سمر برجاءٍ وهي تنظر إلى ابنها وليدٍ الذي جلس إلى جانب سريرها وكأنَّه تمثال. لكزته نبيلة «خُذ زيت الخزامي ومسّد لها رأسها»، مدَّت يدها بقارورة زيتٍ صغيرةٍ وحين التقت عيونهما عضَّت على شفتها وأومأت برأسها ناحية سمر. فهمت نبيلة بفطرتها أنَّ شابًّا لم يعتد

القرب من والدته يحتاج إلى سياقٍ أو حجَّةٍ ما ليتمكَّن من لمسها دون ارتباكٍ أو شعور بالحرج.

ولمَّا لم يفلح الضغط الذي مارسه الجيران والأقارب على مهيبة من أجل الذهاب لزيارة سمر في المستشفى، ذهبت نجاة إلى منزل الشيخة رابعة. الاحترام الذي تتمتَّع به رابعة في القرية لا يعود فقط إلى كونها امرأةً تقيَّةً أحجمت عن الزواج لتكرِّس حياتها لخدمة بيت العبادة، بل أيضًا لقدرتها الخارقة على الإقناع وإظهار التعاطف وتذكير النساء بضرورة القبول بقضاء الله وقدره. لم تمض ساعتان حتى كانت رابعة بقامتها الطويلة تطرق باب البيت. أمضت حوالي نصف الساعة رفقة مهيبة، وما إن غادرت حتى أعلنت مهيبة استعدادها لزيارة سمر في صباح اليوم التالي.

كان الفجر قد شقشق عندما دخلت مهيبة لتستحمّ وتستعدّ لرحلتها الكبرى إلى بيروت. لقد تجنَّبت الذهاب إلى بيروت طوال حياتها وكانت تردِّد «إذا الله بيحبِّني بموت قبل ما إنزل على بيروت»، لكنَّها لم تكن تعلم أنَّ حياة ابنتها ستكون طرفًا ثالثًا في هذا العقد الذي أبرَمَتْهُ مع خالقها.

حين انطلقت سيَّارة الڤولڤو الكحليَّة من قرية تلِّ الخرُّوب كانت مهيبة تجلس في المقعد الأماميّ إلى جانب صهرها عليٍّ وسط أكياس الطعام والخضار وتضغط على حجرَيْن صغيرَيْن في راحتَيْها. دسَّت خصلة حبق في أنفها ونظرت إلى عليّ:

«من فضلك يا علي سوق على مهلك، أنا بتلعي نفسي بالسيَّارة وبصير بدِّي استفرغ!».

ثم التفتت إلى ابنتها نجاة في المقعد الخلفيّ لتتأكَّد أنَّها أتت بسطلٍ فارغٍ تحسُّبًا لأيِّ طارئ. بعد حوالي عشرين دقيقةً وقبل أن يصلوا إلى أوَّل مدينةٍ في طريقهم، راحت مهيبة تولول:

«دخلك يا علي وقِّف السيَّارة رح يغطّ على قلبي!».

أوقف عليٌّ السيَّارة ونظر إليها. «حماتي شيلي هالشتلة من منخارك، وشيلي الستحة لتقدري تتنفَّسي! إجباري يغطّ ع قلبك مش عم يفتلك أوكسجين» قال لها بانفعال.

لكن مهيبة استمرَّت في الولولة «بدِّي حجر أكبر، دخلك انزلي فتشيلي على حجر أكبر من هذا يا نجاة! عجّلي!».

فتحت نجاة باب السيَّارة وراحت تفتِّش عن حجرٍ كبيرٍ على جانبي الطريق بينما تمرّ السيَّارات مسرعةً ليتطاير منديلها الكبير من وراء ظهرها. لا أحد يتذكَّر متى بدأت مهيبة عادة حمل الحجر في السيَّارة لاعتقادها أنَّه يحميها من الغثيان. قبل سنوات، حاول وليدٌ أن يشرح لها أنَّ ما يقيها من الغثيان ليس الحجر أو كبر حجمه بل الاستراحة التي تأخذها حين تتوقَّف السيَّارة ليبحثوا لها عن حجر، كما حاول أن يشرح لها أسباب دوار الحركة، لكنَّها أسكتته قائلة «عم قلَّك مجرِّبتها وفهش ولا مرَّة خلَّت معي! كلّ مرَّة بتظبط». هكذا كان يراهم وليدٌ يقاومون المنطق من باب تجربتهم الضيِّق، يخترعون قوانين خاصَّةً بهم وينسفون قواعد الفيزياء بثلاث جمل: «شفتا بعيني»، «سمعتا بدينتي» و«الشغلة مجرَّبة». لذا فقد كفَّ عن المحاولة واكتفى بتوجيه ملاحظاتٍ ساخرةٍ ردًّا على كلِّ ما يقال في تلك الجلسات العائليَّة.

بعد العديد من الاستراحات في الطريق لتلتقط مهيبة أنفاسها، وبعد أن تاه عليٌّ ثلاث مرَّاتٍ على الأقلِّ في شوارع بيروت وسأل أكثر من ستَّة أشخاصٍ عن الاتِّجاهات، وصلوا أخيرًا إلى مستشفى زهرة المدائن في منطقة الجناح. كان قد مضى أكثر من شهرٍ على وجودها في المستشفى حين رأت سمر أمّها تطلُّ من باب الغرفة. صاحت «إمِّي؟» وطفرت الدموع من عينَيْها، لكنَّ مهيبة، التي لم تكن تتخيَّل أنَّ وجه سمر الجميل ذا العينَيْن الزرقاوَيْن والشفاه الحمراء المكوَّرة سيكون شاحبًا خاليًا من الحياة مثل كتلة عجينٍ يابسة، وقفت للحظاتٍ عند الباب محاوِلةً تمييز وجه ابنتها، ثم تقدَّمت بخطواتٍ سريعةٍ ومثقلةٍ إلى السرير ومسكت يدَي سمر وراحت تنتحب:

«يا ولدي يا إمِّي شو عملو فيكي؟ يا ولدي! بعتناكي متل القمر شو صار يا إمِّي؟».

سرعان ما اقتربت نبيلة من أمّها ولكزتها في خاصرتها وهمست في أذنها «إهدي إمِّي! تماسكي مش ناقصنا وجع قلب!».

لكنَّ سمر اكتفت بالبكاء ثم قرَّبت يدَي أمّها إلى شفتَيْها اليابستَيْن وقبَّلتهما قائلة «سامحيني يا إمِّي ما كان إلي خاطر تشوفيني هيك».

ما لبثت مهيبة أن عادت إلى طبيعتها بعد أن استراحت وتنحَّى الشعور بالغثيان. قرَّبت أحد الأكياس التي أحضرتها معها إلى جانب كرسيِّها وسحبت منه صينيَّة حلوى ملفوفةً بورق «قصيلي

الشريط» صاحت بلهجةٍ آمرةٍ لابنتها نجاة، وحين أزاحت الورق عن الحلوى تبيَّن أنَّها بقلاوة. «يلا بدِّي روح ضيِّف النَرسات والدكاترة» قالت مهيبة. نظرت نبيلة لأمّها نظرةً فيها الكثير من التعجُّب والكدر. «إمِّي حاكيني كلمة برَّا عالبرندا إذا بتريدي!» ولأنَّ مهيبة عرفت أنَّ ابنتها ستعترض على تصرُّفها، قالت:

«شو بينكِّد إذا ضيفناهن؟ ما هنّ أصحاب فضل على إختك عم يعاملوها».

انحنت نبيلة حتى أصبح فمها قريبًا من أذن أمّها:

«إمِّي نحنا مش بعرس لحتى تضيفي بقلاوة! فتّحي عيونك وشوفي بنتك كيف وضعها»، قالت وهي تصكّ على أسنانها.

أرادت أن تبكي وتقول لها «اغمريها يا أمِّي. أرجوكِ احضنيها. لا أحد يحتاج إليك أكثر منها ولا شيء في هذا العالم يعوِّضنا عن حضن أمَّهاتنا. يتيمٌ من لا تعرف أمّه كيف تحضنه! لقد عاشت سمر مثل الشبح لا وجود لها سوى في ذكريات الطفولة وبعض الصور. المسيها قبل أن تتحوَّل إلى شبحٍ من جديد. المسيها قبل أن يتحوَّل اسمها إلى خطٍّ مرسوم بدقَّةٍ على ورقة النعوة!». لكنَّها في النهاية استسلمت لعناد أمّها وخرجت إلى الشرفة، أزالت نظّارتها وكبست بإصبعَيْها على عينَيْها بقوَّةٍ حتى تتخلَّص من رغبتها في البكاء وتمتمت «يلعن أبو البقلاوة على أبو الفحطة بالناس». لطالما نغَّصتها القيمة المبالغ فيها التي توليها أمّها للآخرين على حساب أولادها حتى كاد يخيَّل لها وهي طفلةٌ أنَّ أمَّها تقدِّس كلَّ الغرباء. خرج عليٌّ يستفقدها، «وين

رحتي وتركتينا؟» سأل بعد أن شبك يدَيْه ووضعهما على درابزين الشرفة وراح يراقب السيَّارات في الشارع. تردَّدت قبل أن تشتكي من أمِّها فهي تعرف أنَّه سوف يعايرها لاحقًا ويقول لها في أحد الشجارات القادمة «ما إنتو كلّكم هيك بتحطُّوا العالم على راسكم وبتحترموا الغريب أكتر من أهلكم». أرعبها أن تكون مثل أمّها. أرعبها أن يكون شعور إحدى بناتها تجاهها مماثلًا لشعورها تجاه أمّها. هزَّت رأسها لتقاوم الفكرة. فهي تفضِّل أن تموت قبل أن تصل إلى هذا الحال!

«قلت بستغلّ الفرصة وبتنشَّق شويَّة هوا بما إنّكم كتار جنب سمر» أجابته باقتضاب.

في المساء، بعد أن دهنت يدي سمر بمرطِّبٍ ودلَّكت قدمَيْها، أطفأت الأنوار ونامت كالعادة على كرسيٍّ بجانب السرير. كان انعكاس أضواء السيَّارات في الشارع يرسم خطًّا على الجدار يبدأ من منتصف الحائط المقابل للسرير وينتهي عند الباب. يتكوَّن الخطّ مع مرور كلِّ سيَّارةٍ ويختفي بعد ذلك. كانت تراقب تلك الخطوط محاولةً تجنُّب كلّ الأفكار والمشاعر التي نتجت عن زيارة والدتها للمستشفى.

«قولك إمِّي بترحمني إذا متت؟» جاء صوت سمر من داخل العتمة.

«شو هالحكي يا سمر؟ بدِّك تعيشي وتدفني إمّك» أجابت نبيلة.

«قصدي بيسمحولها المشايخ تترحَّم عليّ؟».

رفعت نبيلة رأسها وعدَّلت جلستها «يا سمر الرحمة من ربِّ العالمين. لا من أمّي ولا من المشايخ. وبعد العمر الطويل أنت من أكثر الناس يلّي بيستحقُّوا نترحَّم عليهم!».

«يعني رح ترحميني يا نبيلة؟».

«أكيد يا قلبي أكيد. بس بتمنَّى موت قبلك».

أوفت نبيلة بوعدها بعد ثمانية أيَّامٍ من حديثهما هذا حين وقفت أمام جموع النساء مقابل السرير الذي سُجِّي فوقه جسد سمر وراحت تعدِّد حسنات أختها:

«الله يرحمك. يا محبَّة يا ستِّيرة يا تعبانة على رزق الحلال» قاومت دموعها ثم صمتت قليلًا لتكمل بصوتٍ راسخ:

«الله يرحمك يا صاحبة الكفّ البيضا والحسنات المخفيَّة!» صمتت مجدَّدًا ثم قرَّرت أن تستسلم لمشاعرها «الله يرحمك يا عروسة الغربة يا وردة الدار يا نغصتنا إنتي يا سمر» قالت الجملة الأخيرة وهي تنتحب ثم خارت قواها.

توافد المعزُّون من كافَّة القرى المحيطة وجاء وفودٌ من المشايخ بعمائم ولحى طويلةٍ ترافقهم شيخاتٌ بأثوابٍ سوداءَ طويلةٍ ومناديل بيضاء تكاد تلامس الأرض لتقديم العزاء. عند باب الصالة تكرَّر السؤال ذاته «الفقيدة شيخة؟ منترحَّم أو لأ؟». يحتِّم قانون الدين منع المشايخ والشيخات من الترحُّم على أيِّ ميِّتٍ إن لم يكن قد تسلَّم دينه وأصبح شيخًا قبل الوفاة.

«انشالله ستِّين عمرهم ما يترحَّموا عليها»، قالت نبيلة لأختها نجاة بعد أيَّامٍ من الجنازة حين فُتح الموضوع، وأكملت «أنا قلبي

مليان لَ فوق من هالقوانين. يا ويلهم من الله كيف حوَّلوا الدين لشويَّة قوانين بتخجِّل!».

ثم توجَّهت لأمّها بالكلام «يا ريتك يا إمِّي حنّيتي عليها وزرتيها أكتر هي وعايشي بدل ما تبكي لتدفتيها جنبك».

لم يتوقَّع أحدٌ أنَّ مهيبة، التي كرَّست عمرها لحراسة وطاعة العادات والتقاليد، ستتصرَّف كالأطفال حين تأتي ساعة الدفن وتتمسَّك بتابوت سمر مطالِبةً أقارب زوجها بدفنها في قرية تلِّ الخرُّوب وليس في ضيعة زوجها في رويسة البلَّان.

«عاشت كلّ عمرها بعيدة عنِّي. خلِّيها تندفن جنبي بترجَّاكم ما تكسرولي خاطري» انتحبت مهيبة وملأت الصالة بالعويل، لكنَّ النساء أخذنها بعيدًا وقالت لها إحداهنَّ «مش أصول يا إمّ إبراهيم. سمر مش مطلَّقة حتى تندفن بقرية أبوها».

امتلأ صدر نبيلة بالشوك بعد وفاة سمر. كلّ التماسك والمداراة والطبطبة التي كانت تظهرهم كِرمال عيون سمر أصبحت بلا قيمةٍ الآن. أرادت أن تنفجر في وجه كلّ من قصَّر بحقِّ أختها وكسر بخاطرها:

«الله يعينه بس شوفه لوليد» قالت لابنتها أمل وهي تعصر خرقةً فوق المجلى.

«ما تنسي إنُّو خسر إمّه. قد ما بيَّن لامبالي أكيد مكسور من جوَّاتو» أجابتها أمل بهدوء.

«ولا دمعة»، صاحت نبيلة وكأنَّها طيرٌ اخترقته رصاصةٌ وأضافت «ما بكي عليها ولا دمعة! لو البغا يلي عنده مات كان

بكي عليه!» قالت وهي تدعك سطح الطاولة.

بعد شهورٍ من موت سمر بدأ أفراد العائلة يتلقُّون اتِّصالاتٍ غريبةٍ من وليدٍ بعد منتصف الليل. كان كلامه مبهمًا في معظمه ويفتقد إلى الترابط والتسلسل المنطقيّ، وحين يوضِّح كلامه كان يتحدَّث عن والدته بالسوء ويقول إنَّها كانت إنسانةً ماكرةً تشكِّل خطرًا على نفسها وعلى الآخرين. لم تتوقَّف موجة الاتِّصالات تلك إلَّا بعد أن حظره كلُّ من يملك هاتفًا في لبنان وأستراليا، بمن فيهم أُولئك الذين كانوا يلتمسون له الأعذار ويفهمون أثر الفقد على النفوس. وحدها نبيلة لم تقدر على حظره، ولكن حين قال لها في آخر اتِّصالٍ إنَّ أمَّه سمر كانت عضوةً في منظَّمةٍ إرهابيَّةٍ وإنَّه الآن ملاحقٌ من قبل أفراد تلك المجموعة، صمتت طويلًا ثم تنهَّدت وقالت له «الله يهديك يا وليد» وأغلقت الهاتف معاهدةً نفسها ألَّا تردّ على أيٍّ من اتِّصالاته بعدها. لم يمض شهرٌ حتى اتَّصل أحد أقاربه من أستراليا ليُخطِر العائلة أنَّ وليدًا أُصيب بانهيارٍ عصبيٍّ نُقِل على إثره إلى مستشفى للأمراض العقليَّة وأنَّه في أيدٍ أمينة. امتلأت عينا نبيلة بالدموع وهي تسمع الخبر. فهي لم تتخيَّل أبدًا أنَّ محنة أحدهم قد تستمرّ حتى بعد مماته. استوعبت قسوة تلك الفكرة وهي تشهد على اكتمال قوس مأساة سمر.

مكتبة
t.me/soramnqraa

6

قرية عينصورة 2022

أمسيات الصيف الطويلة جعلت نبيلة تقضي وقتًا أطول على موقع الفايسبوك، تجُول بين الصفحات وتحفظ الصور المصحوبة بالحِكم لترسلها كتحيَّاتٍ صباحيَّةٍ لبناتها وصديقاتها. «الموسيقى هي قانونٌ أخلاقيّ، يمنح الروح للكون ويمنح أجنحةً للعقل ويمنح السحر والبهجة للحياة»، أعجبتها تلك المقولة المنسوبة لأفلاطون وتذكَّرت فورًا زوجها عليًّا الذي يعايرها لأنَّها تكثر الاستماع إلى الموسيقى، وقبل أن تفكِّر، ضغطت على زرِّ المشاركة وأرسلتها له على ماسنجر من حساب عاشقة الظلّ.

لم يتأخَّر جوابه هذه المرَّة، إنَّما أتى بعد ساعةٍ واحدةٍ من إرسال الاقتباس:

«أفلاطون فيلسوفٌ كبيرٌ وسرّه مقدَّس. شكرًا لكم».

عدَّلت جلستها فور قراءتها الرسالة. للحظاتٍ شعرت بالحيرة، فعليٌّ فعلًا لم يتعرَّف عليها ولا يُدرك أنَّها نبيلة، كما أنَّه لم يعترض على مقولة «الموسيقى قانونٌ أخلاقيّ». وضعت الهاتف من يدها سريعًا وكأنَّه آلةٌ حادَّةٌ وألقت بجسدها المكتنز على الكنبة. حدَّقت في السقف للحظاتٍ ثم جلست مجدَّدًا وأمسكت بالهاتف قبل أن تبدأ بالنقر فوق المفاتيح:

«شعرت من كلامك أنَّ حضرتك شيخ، لأنَّ أنا أيضًا شيخة ونحن كدروز نعتبر أفلاطون من الأنبياء!» أغمضت عينَيْها وهي تضغط على زرِّ الإرسال. كانت تعلم أنَّها تتسرَّع وأنَّها لم تفكِّر كيف ستبرِّر تصرُّفها إذا ما كان يعلم أنَّ الحساب لها واختار أن يلعب معها اللعبة نفسها. طنَّ الهاتف قبل أن يجتاحها الشعور بالندم فالتقطته:

«نعم الحمد لله أنا شيخ منذ أكثر من أربعين سنة. وكلّنا أخوة وأخوات في الدين. من أيِّ منطقة حضرتك؟».

طقطقت نبيلة أصابعها وقامت بمسحٍ سريعٍ لكلِّ القرى والبلدات في رأسها، واختارت أبعد بلدةٍ استطاعت أن تفكِّر فيها وكتبت:

«أبي أصله من سوريا وأمِّي من مرجعيون. وأنا ولدت وتربَّيت في مرجعيون».

كان كلَّما وضع الهاتف جانبًا يسمع الرنَّة فيعود ويحمله ليرى ما كتبت له «عاشقة الظلّ».

في اليوم التالي أرسلت له تحيَّةً مسائيَّةً لفتح الحديث ونجحت في جعله يتحدَّث عن أشياء كثيرةٍ مثل حُبِّه للقراءة والزجل والصيد وهواية جمع العملات القديمة التي كان يصفّها في ألبوم الصور بعناية. وما إن أرسل لها: «ما هواياتك أنت؟» حتى شعرت نبيلة بالذعر. فهي كانت مشغولةً بالتعرُّف عليه ولم تفكِّر بتكوين شخصيَّةٍ لتلك المرأة التي تحدِّثه. فكَّرت في نباتاتها وأوعيتها الملوَّنة، لكنَّها حرَّكت يدها في الهواء وكأنَّها تدفع تلك الأشياء بعيدًا عنها وتخيَّلت أنَّها الآن امرأةٌ أخرى بحياةٍ لا تشبه حياتها... وكتبت:

«أنا أدرس في الجامعة وليس عندي وقتٌ للهوايات. لكنِّي أحبّ الشعر لأنِّي أدرس الأدب العربيّ».

«هذا يعني أنَّك أصغر من جميع بناتي الأربع»، كتب ثم أتبع هذه الجملة بأسماء شعراء يحبّهم معظمهم من شعراء الجاهليَّة.

«لكن أنا أحبّ نزار قبَّاني وأحمد شوقي ولا أحبّ الشعر القديم»، كتبت وقد تخلَّصت من الحرج الذي كانت ستشعر به لو أنَّها تتكلَّم بشخصيَّتها الحقيقيَّة.

«لأنَّك ما زلت صغيرةً في السنّ. سأتركك لتذاكري الآن. مع السلامة»، كتب لها ووضع الهاتف من يده.

سمعت وقع خطواته يقترب من باب الغرفة حيث كانت تستلقي وصاح «نبيلة وينك؟»، فسارعت ودسَّت الهاتف تحت المخدَّة. «هون أنا بغرفة القعدة».

«ليش قاعدة على العتم؟» أشعل النور وجلس على الكنبة

المقابلة لها ثم سألها «في شي مرَّة رحتي على مرجعيون؟»

فكَّرت للحظاتٍ ثم شبكت يدَيْها ووضعتهما في حجرها.

«شو بدُّو ياخذني لهونيك على آخر الدني. شو خطر لك؟!» سألته ثم صمتت وانتظرت أن يقول شيئًا، لكنَّه رفع كتفَيْه غير مُبالٍ وبقي صامتًا.

أصبحت تلك الرسائل التي ترسلها إلى عليٍّ من حساب «عاشقة الظلّ» شغلها الشاغل. تفكِّر وهي تدعك كتلة العجين فيما ستقول له في المساء، تحضِّر الأسئلة وتسهب في التفكير في جملٍ ذكيَّةٍ ثم تستفيق من شرودها على رائحة الشياط المنبعثة من الرغيف المحترق فوق الصاج. وفي المساء تسارع لتستحمّ وتلتقط هاتفها وتبدأ المراسلة.

لم يمرّ أسبوعان حتى أصبحا صديقَيْن، تخبره عن دروسها وهمومها وتشتكي من والدها.

«أبي تفكيره رجعيّ ويخاف من كلام الناس. لقد تعب أخي كثيرًا حتى أقنعه بضرورة ارتيادي الجامعة. أنا من رأيي هذا ضعف شخصيَّة» كتبت له وكأنَّها تشاركه سرًّا عميقًا.

«الأب يجب أن يحتوي أولاده وخاصَّةً بناته. الأب حبيب ابنته الأوَّل وصديقها مدى الحياة» نظر إلى جملته بإعجابٍ قبل أن يرسلها.

اتَّسعت عينا نبيلة لدى قراءة هذه الكلمات. وقفت وراحت تذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا. «هاااا قال حبيب ابنته قال! يا سلام عالحنيَّة!» تمتمت ثم ابتسمت بمرارةٍ وقالت «إسَّا بفرجيك».

عادت إلى الكنبة، أمسكت الهاتف وكتبت «لا بدَّ أنَّ بناتك وزوجتك محظوظاتٌ جدًّا، ولا بدَّ أنَّك الداعم الأكبر لهنّ»، كتبت تلك الكلمات محاولةً أن تصف كلّ ما لم يكُنه عليًّا حين كانت بناته صغيراتٌ يحتجن الدعم ويتوسَّلن الحنان. لكنَّه أجابها بـ «الحمد لله».

لم يكن مفعول تلك الرسائل التي يتبادلانها ينتهي حين تنهي نبيلة المحادثة، لكنَّه كان يبقى معها طوال النهار التالي فتستعيد كلماته وهي تكنس الفناء. «سلِّملي عالحبيب الأوَّل!» تتمتم وهي تضرب كومة أوراق الشجر بمكنستها ضربةً قويَّةً فتتناثر فوق أرض الفناء، «يلِّي بيسمعك بيصدِّق» تغمغم وهي تدلق الماء فوق نباتاتها.

«عم تحكي معي؟» يأتي صوت عليٍّ الجالس على الكرسيّ البلاستيكيّ الأحمر وهو يرفع رجله على حوض الأزهار محاولًا إزالة شوكة صبِّيرٍ من إصبع قدمه. تنظر إليه من فوق كتفها «لا عم إحكي مع حالي» تقول بعد أن تتأمَّله مليًّا. لو لم تكن مقهورةً من كلماته مع عاشقة الظلّ لسارعت وساعدته على إزالة تلك الشوكة خاصَّةً بعد أن فقد ذراعه. لكنَّها شعرت أنَّها إن اقتربت منه كثيرًا لن تستطيع منع نفسها من أن تقول له:

«طالما بتعرف إنّ الأب لازم يكون صديق وحنون، ليه ما كنت حنون ولا نهار؟ عضَّينا على الجرح وقلنا ما بيعرف، مش ذنبه، ما تربَّى عالحنان، وقبلنا أنا وبناتك بالأعذار يلي خلقنالك ياها. ليش طلعت بتعرف؟ ليش كلّ هيك قهرتني؟!».

كم تمنَّت لو تقول له هذه الكلمات، لكنَّها أكملت عملها ولم تلتفت نحوه بعد ذلك.

حين جاءت حفيدتها رحمة لزيارتها في نهاية الأسبوع، قالت لها:

«ما تجيبي سيرة لحدا إنُّو عندي حساب باسم عاشقة الظلّ حتى لجدّك».

«أكيد تيتا. أنا بنسى اسم الحساب بعد خمس دقايق وما حدا إلو دخل أصلًا»، قالت رحمة التي أثبتت مرارًا وتكرارًا أنَّها بئرٌ عميقةٌ لأسرار جدَّتها.

ذات مساءٍ انضمَّت نبيلة إلى عليٍّ الذي كان كعادته يجلس تحت عريشة العنب قبل الغروب بقليل. قرَّرت أن تعترف له أنَّها هي عاشقة الظلّ وأنَّ تلك كانت مزحةً سيِّئةً جعلتها ترى ما لم تكن تريد رؤيته. أرادت أن تعاتبه على كلِّ ما قاله لتلك المرأة عن معاملته المثاليَّة لبناته وكرمه مع زوجته وترَفُّعه عن كلام الناس الذي لم يولِهِ أهمِّيَّةً كبيرة! لكنَّها عادت وفكَّرت أنَّ عليًّا السبعينيّ يثق كثيرًا بتلك الفتاة العشرينيَّة ويطمح لـ... بحثت عن الكلمة مليًّا وشعرت بالذعر عندما وجدتها «لنيل رضاها« نعم فهو يريد أن يبدو بأجمل صورةٍ أمام تلك الفتاة الجامعيَّة التي تشكو له همومها وتعطيه من وقتها. شعرت بهبَّةٍ ساخنةٍ تبدأ بصدرها وتنتهي في رأسها، أرجعت منديلها إلى الوراء كي تكشف عنقها لنسمة هواءٍ عابرةٍ في ذاك المساء وزفرت زفرةً طويلة. نظر إليها عليٌّ بجفنَيْه الثقيلَيْن. «مشوِّبة أو تعبانة؟» سألها وهو يعدِّل طاقيَّته.

وبينما تحضِّر له المتَّة في المطبخ، فكَّرت في طريقةٍ أخرى للانتقام. سوف تحذف صداقته أو تحظره وتتركه يدور حول نفسه بحثًا عن السبب الذي جعلها تفعل ذلك. لثوانٍ فكَّرت في أنَّها تكره عاشقة الظلّ! تكره تلك الشابَّة المدلَّلة التي تشتكي من قسوة والدها وتتحدَّى الأعراف وتذهب إلى الجامعة بمنديلها الكبير وتتحدَّث مع عليٍّ كلّ مساء. ثم ضبطت نفسها، وقالت «يا إلهي عم بخوث أنا» ووضعت كفَّيْها على وجنتَيْها الملتهبتَيْن. كيف لها أن تكره امرأةً وهميَّة؟ كيف لها أن تكره نفسها؟ وحتى لو كانت تلك الفتاة حقيقيَّةً لماذا تكترث الآن بعد كلّ تلك السنوات؟ كيف تنافس امرأةً وهميَّةً على اهتمام رجلٍ لم تقدر أن تستدرّ منه الحنان على مدى أكثر من خمسةٍ وأربعين عامًا من الزواج!

كانت أمّ مكرم تجلس وراء نبيلة في السقيفة بينما تقوم نبيلة بصناعة الخبز. دخل عليٌّ وهو يحمل عنقود عنبٍ أبيضَ كبيرًا يقطر الماء منه وسمعهما تتشاجران بشأن الحزُّورة على الراديو. «أنا بقول الطير أو الفراشة» تصيح أمّ مكرم. «لا لا مش منطق» تقول نبيلة وهي ترفع الكارة عاليًا لتلصق الرغيف على الصاج.

«ع البَرَكة» يقول عليٌّ ويمدّ يده بعنقود العنب إلى أمّ مكرم «تفضَّلي جابرينا وطعميها لنبيلة» ثم يستفسر عن الحزُّورة.

«عندما تلفظ إسمه يختفي. ما هو؟» سألت نبيلة وأضافت «مستحيل يكون الجواب الطير».

«يا خبر اليوم بمصاري بكرا ببلاش» قال عليٌّ غير مُبالٍ

وأضاف «بس يتّصل حدا بيعرف الجواب منعرف نحنا كمان».

«الجواب بحدِّ ذاته بيربِّحك مصاري»، قالت أمّ مكرم مبتسمة. «كرمال هيك الناس عم تتّصل، طمعانين بالمية دولار» أضافت مبتسمة.

«الصمت» هتفت نبيلة بعد دقائق. ثم مدَّت يدها لعليّ «عطيني تلفونك بدِّي دقّ، تركت تلفوني جوّا البيت».

تردَّد عليٌّ وسأل «شو بدِّك بـ هالشغلة هلَّق؟ إسَّا بيحترق الرغيف»، لكنَّه مدَّ يده بالهاتف.

شعرت نبيلة بشيءٍ من الإهانة تمامًا كما شعرت حين قال لها «حرِّكي الطبخة» وسط أحد نقاشاتهما المحتدمة أو حين كان يقول لها «انتبهي لشغلك» عندما تقدِّم له نصيحةً في مجال عمله. تلك الملاحظات، على بساطتها، كانت تشعرها بمحاولاته المتكرِّرة لإعادتها إلى مكانها الذي يقتصر، بالنسبة له، على «الطبخ والخدمة».

سلخت نبيلة الرغيف عن الصاج ووضعته فوق الأرغفة الذهبيَّة المكدَّسة ثم وقفت وطلبت الرَّقم. غادرت بعدها السقيفة إلى الفناء بينما عليٌّ يهتف «أوعى تعطيهم إسمك الحقيقي وتعرضينا للانتقاد».

بعد دقيقةٍ أتى صوت نبيلة من المذياع «مساء الخير للجميع! مرسي كتير عالبرنامج الحلو والحزازير الذكيَّة».

«يسعد مساكي. مين معي ومن وين عم تحكينا؟ قالت المذيعة بصوتٍ دافئ».

«اسمي ندى وعم إحكيكي من الجبل. جواب الحزُّورة هو الصمت». تبع جوابها صوت بوقٍ ومفرقعاتٍ ثمّ قالت المذيعة «ألف ألف مبروك يا ندى. حكيني تحت الهوا لخبرك كيف تستلمي المية دولار!».

دخلت نبيلة إلى السقيفة ومدَّت يدها بالهاتف إلى عليٍّ من دون أن تقول أيّ شيء، ثم عادت إلى مكانها وراء الطبليَّة لتمسك كتلة عجينٍ وتبدأ بمدِّها.

في المساء وبعد أن تناول عليٌّ العشاء وجلس تحت العريشة ممدّدًا ساقَيْه كتب لعاشقة الظلّ «زوجتي اليوم ربحت مئة دولار لأنَّها عرفت جواب حزُّورة على الراديو».

«رائع! لا بدَّ أنَّها شديدة الذكاء، أليس كذلك؟».

«نبيلة ابنة حلال وأمّ مثاليَّة لبناتي وبدونها تختفي الحياة من البيت!».

ابتسمت نبيلة وشعرت بشيءٍ من الانتصار، ثم كتبت «الأمَّهات زينة البيوت. أدامها الله لكم وأدامكم بصحَّةٍ وسعادة»، لكنَّها ما لبثت أن أضافت «ولكنِّي سألتك إن كانت ذكيَّة!؟».

انتظرت نبيلة أكثر من دقيقتَيْن حتى وصلها الجواب. رأت أنَّه يكتب ويحذف ثم يكتب ويحذف ثانية.

«الذكيّ لا ينشغل بإثبات ذكائه طوال الوقت، ونبيلة للأسف تحاول أن تثبت ذكاءها في كلِّ مناسبة. أعتقد أنَّ الغرور ليس دليلًا على الذكاء».

هبَّةٌ ساخنةٌ أخرى ارتفعت إلى صدر نبيلة ثم غمرت رأسها.

شعرت أنَّها عالقةٌ في قعر قدْر ماءٍ يغلي وحاولت أن تشهق لتأخذ النفس. سرعان ما تناولت دفتر حسابات الخبز من فوق الطاولة وأخذت تلوِّح به أمام وجهها. أرادت أن تنادي زوجها وتطلب منه أن يجلب لها كوب ماءٍ وسكَّرًا مع رشَّة ماء الزهر، لكن هذا الزوج الذي اعتادت أن تناديه في تلك اللحظات الحرجة أصبح عدوَّها الآن وفكَّرت أنَّها تفضِّل أن تشرب السمّ على أن تتناول كوبًا من يده. لم تكن تتوقَّع أنَّ شيئًا سيقوله أو يفعله عليٌّ قد يؤذيها إلى هذا الحدّ، لأنَّها ببساطةٍ لم تكن تتوقَّع منه شيئًا. قامت بتقليب صفحات دفتر الخبز الذي كان بين يدَيْها ورأت الأرقام. تذكَّرت مدَّخراتها التي دفعتها دفعةً واحدةً لتفكّ رهن قطعة الأرض بعد أن رهنها عليٌّ ليدفع تكاليف علاج والدته عندما أُصيبت بالفشل الكلويّ. «معه حقّ أنا غشيمة! في واحدة ذكيَّة بتعمل هيك؟». مزَّقت صفحةً وحوَّلتها إلى كرةٍ ورمتها في عتمة الغرفة. ثم استحضرت ذكرى أخرى حين دفعت من أتعابها كافَّة تكاليف زفاف ابنتها الكبرى بعد أن تلف محصول العنَّاب. «يلعن أبو الهبل» تمتمت ثم مزَّقت ورقةً أخرى ورمتها أيضًا. راحت تستحضر الذكريات واحدةً تلو الأخرى وتمزِّق الصفحات تباعًا حتى تكوَّنت أمامها كومةٌ من الكرات الورقيَّة. ثم حملت ورقةً وكتبت.

«كالثلج المندوف صباي

كان منعشًا وخفيفًا...

أتى على غفلة

وسرعان ما تحوَّل إلى ماء.

كالثلج المندوف صباي

تساقط تحت غطاء العتمة واختفى

قبل أن أجمع منه حفنةً في إناء».

حين دخل عليٌّ إلى البيت، تظاهرت بالنوم ولم تتحدَّث معه حتى صباح اليوم التالي. «لمين هالشِعر؟» سأل عليٌّ وهو يمسك بالورقة التي كتبتها نبيلة الليلة الفائتة. «أنا كتبته مبارح»، ردَّت بجفاءٍ وهي تكسر بيضةً على حافَّة المقلاة. في سنواتهما الأولى معًا كانت تكثر لقاءاتهما مع أصدقاء عليٍّ وزوجاتهم حيث ينصرف الرجال إلى تحدِّي بعضهم البعض بالشعر الزجليّ الارتجاليّ. لطالما لمعت عينا نبيلة فخرًا وإعجابًا بسرعة بديهة عليٍّ حين كان يرفع سبَّابته في الهواء ويغمض عينَيْه ويرندح المقاطع الزجليَّة وهو يهزّ رأسه:

«كنت حِبَّك متل خبي وأكتر

وهلَّق بعد هالشيبي جايي عليي تتكبَّر

مدري أنا كنت بتقديري غلطان

مدري ربّ العرش لصالحي الأمور دبَّر

على درب الشوك قلبي رِبِي

وياما على غدر الحبايب تصبَّر».

ربَّما كانت في الثامنة عشرة من عمرها حين سمعت هذا المقطع الزجليّ من عليٍّ يهجو به صديقه. بقي المقطع محفورًا في

ذاكرتها ليس لبلاغته أو عمقه، بل لأنَّها كانت ما زالت تحت تأثير السحر. كان زوجها، لكنَّه كان لا يزال غريبًا أيضًا. غريبًا مليئًا باحتمالات الدهشة والفرح والخيبات. الآن حين تراه يذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا ليؤلِّف بيت شعرٍ ليشاركه مع عاشقة الظلّ في المساء تشعر بالغثيان. ليس بسبب الغيرة، بل لأنَّ عليًّا أصبح مكشوفًا لها مثل راحة يدها ولأنَّ الدهشة والفرح لم يعودا ضمن الاحتمالات في حياتهما معًا. وحدها الخيبة تربَّعت على عرش هذه العشرة الطويلة.

تردَّدت قبل أن تسأله عن رأيه في الخاطرة التي كتبتها لأنَّها لم تكن مستعدَّةً لسماع أيِّ كلامٍ سلبيّ. فهي لم تنسَ المرَّات التي علَّق فيها على خواطرها بفتور. «مش عارفة تضبطي القافية صحّ» أو «مش قوي المعنى هون». ولكنَّها أحبَّت أيضًا أن تتمادى بلعبتها، شيءٌ ما بداخلها حملها على الاستمرار: «شو رأيك بالكلام يلي قريته عالورقة؟» سألته بعد أن وضعت صحن البيض أمامه. تناول لقمةً وأخذ يلوكها ببطءٍ قبل أن يجيبها «ماشي حالها»، قال وبدأ بمضغ لقمةٍ أخرى!

تذكَّرت ثناءه المبالغ فيه على الأشعار الركيكة التي ترسلها له من حساب عاشقة الظلّ وشعرت بموجة غضبٍ شديدة. نضجت رغبتها في الانتقام، وقرَّرت أن تقلب عليه الطاولة.

7

حين دخلت نبيلة الدكّان في الجهة المقابلة لبيتها على الطريق العامّ، كانت أمّ مكرم صاحبة الدكّان تقف على سلّم من درجتَيْن وترتِّب المعلَّبات فوقَ الرفوف. «ع البَرَكة»، حيَّتها نبيلة رافعةً صوتها فوق صوت الراديو الذي كان يبثّ الدعايات بنغمةٍ مرتفعة. وعندما انتبهت أمّ مكرم لوجودها بعد لحظات، التفتت بسرعةٍ حتى كادت تقع من فوقِ الدرج. «أهلًا نبيلة! ما انتهبت إنَّك هون، لا تواخذيني»، قالت، وبعد أن نزلت وتناولت كيس بلاستيك لتضع داخله الأغراض التي جمعتها نبيلة فوق الطاولة، مدَّت يدها إلى الراديو وخفضت الصوت لتسألها:

«دخلك إنتي بتتسمَّعي على إذاعة صوت الأرز؟».

عدلت أمّ مكرم منديلها ولفَّت طرفه حول رقبتها وأضافت:

«مدام ندى يلِّي بتقدِّم فقرة الأكل طلعت درزيَّة من عالية؟» قالت هامسةً وكأنَّها تكشف عن حقيقةٍ كونيَّةٍ كبيرة.

هزَّت نبيلة رأسها «إيه إلي عادة إتسمَّع عليه. حلو برنامج يسعد صباحكن ومفيد»، قالت وقد أخفضت نظرها وراحت تقلِّب كابسة الورق الموضوعة فوق الطاولة.

«قعدي اشربي قهوة» قالت أمّ مكرم التي بدت في مزاجٍ لتبادل الحديث، واعترت نبيلة ـ التي عادةً ما تهرب من الأحاديث وترفض تضييع الوقت ـ رغبةٌ ملحَّةٌ في المغادرة، لكنّ شيئًا ما في داخلها جعلها تبقى لتسمع المزيد عمَّا ستقوله أمّ مكرم عن ندى. «طيِّب معي ربع ساعة» قالت وقد سحبت السلّم الذي كانت تقف عليه أمّ مكرم لتجلس فوقه.

وضعت أمّ مكرم فنجاني القهوة أمام نبيلة وقالت «لو بتشوفي الستّ ندى شو لايقة وفهمانة ولهجتها بتاخذ العقل، وبتعطي النسوان نصايح مهمَّة مش بسّ عن الأكل».

«كلّ الناس خير وبركة، ويلّي بيعيش بالمدينة بتكون لهجته أخف وأجمل»، قالت نبيلة وهي تتصنَّع اللامبالاة.

شربت أمّ مكرم آخر رشفةٍ من فنجان القهوة بصوتٍ مسموعٍ ووضعت الصحن فوقه ثم لوَّحته في الهواء وقلبته. «بدِّك تبصّريلي قبل ما تمشي»، قالت لنبيلة وقد ارتسمت على شفتَيْها ابتسامة رجاء.

«وحياتك بقاش بقدر إتأخَّر. علي ناطرني بلكي المرَّة الجايي»، قالت نبيلة معتذرةً ووقفت.

«ليكي بكرا بدِّي اتِّصل عالراديو لجيب وصفة الأبلما من مدام ندى. بدِّك شي وصفة لأطلبلك ياها؟»، سألتها أمّ مكرم.

حملت نبيلة الكيس «أنا بعطيكي وصفة الأبلما»، قالت وهي تزيل السلّم من طريقها.

«لا، لا، بحبّ وصفات مدام ندى لأنَّهم متطوِّرين، مش متلنا على الدقَّة نفسها من ألف سنة»، قالت مبتسمةً كي لا تُشعر نبيلة بالإهانة.

«على خاطرك. يلَّا صبَّحناكي»، قالت نبيلة وهمَّت بالانصراف، لكنَّها التفتت ناحية أمّ مكرم وسألتها «كيف حال أبو مكرم؟ ما بيستاهل يلّي صار معه. سلامةً قلبه».

لأبي مكرم وأمّ مكرم ابنةٌ واحدةٌ وابنٌ واحد. تزوَّجت ابنتهما في بداية الألفيَّة وسافرت مع زوجها إلى الإمارات حيث أصبحت معلِّمة، وبقي مكرمٌ الذي يصغرها بعشر سنواتٍ في القرية مع والدَيْه اللذين بديا وكأنَّهما جَدَّاه نسبةً لصغر سنِّه. ربَّما كان مكرمٌ في السابعة من عمره حين تزوَّجت أمل، واختبرت نبيلة الوحدة كما لم تتخيَّلها من قبل. لكنّ مكرمًا، الذي كان يجد سلواه في التسكُّع حول نبيلة وهي تعمل، لم يكن يتركها إلَّا قليلًا. كان يجلس خلفها وهي تصنع الخبز فتمدّ جسدها وتناوله الدفاتر والكتب العتيقة التي تجدها بين الكراتين التي يرميها الجيران، ليشعلها تحت الموقد. وحين تصنع العجين كانت تعطيه قطعةً صغيرةً كي يتسلَّى بها ويصنع منها أشكالًا. مرَّةً صنع فراشةً وأتى بزهر الليمون من الحقل ثم غطَّى جناحَيْها بالزهور البيضاء الزاهية وقدَّمها لنبيلة. وصنع مرَّةً أفعى وغطَّاها بلحاء الشجر ووضع مكان العين خرزةً حمراء. في إحدى أيَّام الخريف الغائمة، تفاجأت به نبيلة يجلس القرفصاء إلى

جانب الموقد المنطفئ حيث تصنع الخبز، يغمس إصبعه في السنَّاج الذي تكوَّن على جانبي الموقد ويرسم بسبَّابته فوق قطعة كرتونٍ مقوَّى. «مكرم شو باك؟» سألته نبيلة، لكنَّه بدا لها منفصلًا عمَّا حوله ومنغمسًا في العمل الذي يقوم به. اقتربت منه ووضعت يدها على ظهره حيث يبرز لوحا كتفَيْه.

«شو عم تعمل يا مكرم؟» نظر إليها وكأنَّه استيقظ من حلم ثم مدَّ لها يده بقطعة الكرتون. نظرت نبيلة للرسمة مطوَّلًا واستطاعت أن تميِّز نفسها. لقد رسم امرأةً تصنع الخبز إلى جانب الموقد وسحابة دخانٍ كبيرةً تسبح فوق رأسها. بقي مكرم جالسًا القرفصاء رافعًا سبَّابته الملوَّثة بالسخام في الهواء محدِّقًا إلى نبيلة بعينَيْه الكبيرتَيْن، منتظرًا ردَّة فعلها.

«عافاك يا شاطر». قالت له نبيلة مشجِّعةً وأرشدته إلى خرطوم الحقل كي يذهب ويغسل يده. على الرَّغم من قدرة نبيلة على التأمُّل في البشر وسبر أغوارهم، إلَّا أنَّها لم تتوقَّع أنَّ مكرمًا الصامت الخجول سوف يصبح فنَّانًا معروفًا ذات يوم. حين بلغ الثامنة عشرة من عمره لحق بشقيقته إلى الإمارات واستقرَّ هناك.

زارت أمل معرضه الأخير في دبي وعلمت منذ وقوفها أمام اللوحة الأولى أنَّها أمام موهبةٍ فذَّةٍ يمتزج فيها اللون بالدموع وشيءٍ من عصارة الروح. كانت تشهق وهي تنتقل من لوحةٍ إلى أخرى. كلّ اللوحات تقريبًا تعرض نساءً درزيَّاتٍ بثوب الدين. معظمهنَّ يولين ظهورهنَّ للرائي. وقفت مطوَّلًا أمام لوحةٍ لمنديلٍ أبيضَ معلَّقٍ على مسمارٍ وسط حائطٍ فارغ، ويكاد المنديل من فرط طوله أن يلامس الأرض. لوحةٌ أخرى لحذاءٍ نسائيٍّ أسودَ

مركونٍ أمام الباب. استطاعت أمل أن تميِّز أنَّه حذاء شيخةٍ درزيَّةٍ من طريقة ركنته. بنات وأبناء هؤلاء النساء يعرفون تلك الأشياء الصغيرة. ذلك الحذاء المركون ملتصقًا بالجدار بفردتَيْن متلاصقتَيْن أيضًا وكأنَّهما تعتذران عن وجودهما، تعتذران عن المساحة التي تشغلانها أمام حاجب ذلك الباب العتيق، لا بدَّ أن يكونا لشيخةٍ درزيَّة. لوحةٌ ثالثةٌ ليد امرأةٍ تمسك بغربالٍ ذي تارةٍ خشبيَّة. يظهر من المرأة الكُمّ الأسود الطويل وطرف المنديل فقط. الغربال يقذف بنوعٍ من الحبوب إلى أعلى وتحته تبدو الجبالُ الخضراء في الخلفيَّة وحبيباتٌ أكثر دقَّةً في المقدِّمة. شعرت أمل أنَّها واحدةٌ من تلك الحبيبات التي يقذفها الغربال إلى أعلى، تأرجح قلبها قليلًا وشعرت بالدموع تتجمَّع داخل عينَيْها.

رأته في إحدى زوايا المعرض منهمكًا في الحديث مع بعض الضيوف. كان يرتدي عباءةً رجَّاليَّةً سوداءَ مفتوحةً من الأمام بكمَّيْن منسدلَيْن فوق الأكتاف. تزيِّن العباءة ـ التي ارتداها فوق قميصٍ وبنطالٍ أسود ضيِّق ـ نقوشٌ تشبه الكتابة الهيروغليفيَّة مطرَّزةٌ بلونٍ ذهبيٍّ جافّ. أحضرت أمل كأسًا من الشامبانيا من الركن المخصَّص للمشروبات ووقفت تتأمَّله وكأنَّها تتعرَّف عليه للمرَّة الأولى. كان قصير القامة وضعيف البنية، لكنَّه يتمتَّع بحضورٍ مميَّزٍ وابتسامةٍ مشرقة.

عندما انفضَّ الضيوف من حوله، اقتربت منه أمل وحيَّته. وعندما قدَّمت نفسها ابتسم قائلًا «ولو يا أمل! أكيد بعرفك، ودايمًا بقرأ مقالاتك». لم تستطع أمل أن تتذكَّر متى كانت آخر مرَّةٍ رأته فيها. لكنَّها ذكَّرته بالمرَّات التي التقيا فيها في الفناء

حيث كان يتبع أمَّها كالظلّ. «الخالة نبيلة فضلها عليّ كبير. كانت تطوِّل بالها كتير وأنا عم إتفنَّن وقدِّملها اختراعاتي» قال ضاحكًا.

رفعت أمل الكأس إلى فمها وارتشفت رشفةً كبيرة. «أمِّي بتحبّك كتير»، قالت وكأنَّها قرَّرت أن تنحِّي المجاملات وتتكلَّم من القلب إلى القلب. هزَّ رأسه «اشتقتلهم كتير! أمِّي وأمّك وكلّ مرا بالضيعة وكلّ حجر على هاك الطرقات» قال بشيءٍ من الحزن.

«لازم نحكي عن الموضوع يا مكرم. مش حلّ تضلّك بعيد وأهلك عم يكبروا بغيبتك»، قالت وهي تداعب الحلَق في أذنها كي تخفِّف من التوتُّر الذي يُثيره هذا الموضوع.

تنهَّد مكرم، «يا أمل إنتِ غير عن أهل الضيعة. وأنا كمان صرت غير! بس هم مستحيل يفهموا، مستحيل يتقبَّلوني!». أفرغت أمل ما تبقَّى من الكأس في فمها دفعةً واحدة، وقالت «تمام، ما رح نطلب منهم يتقبَّلوا هذا الجزء منك، بس لازم يعرفوا قدِّيش إنت فخر لبلدك وأهلك وقدِّيش فنَّك عظيم».

«يلِّي بدُّو يعرف بيقدر يجيب جرايد أو يقرأ مقالات إلكترونيَّة عن فنِّي. بس هم ما بيعنيهم غير الڤيديو يلي انتشر بسّ!» صمت وهزَّ رأسه ثم قال «مقهور منهم قد الدني بس بعدني بحبّهم». قطع حديثهما روَّادٌ آخرون اقتربوا ليتعرَّفوا على الفنَّان ويحيُّوه. فتحت أمل حقيبتها المعلَّقة على كتفها وكتبت على قصاصة ورقٍ رقم هاتفها مع عبارة «اتَّصل بي ضروريّ» ثم دسَّتها في يده وطبعت قبلةً على خدِّه وغادرت.

كان مكرمٌ يعلم أنَّ أمل تعمل في مجال الصحافة وأنَّها

تزوَّجت في السادسة عشرة وأنَّ لها ابنة، وربَّما يعلم أيضًا أنَّها طُلِّقت منذ عدَّة سنواتٍ وهاجرت إلى ألمانيا. لكنَّ الجزء الأهمّ من حياتها كان غامضًا ليس فقط لمكرمٍ بل لكلٍّ عائلتها ولكلٍّ من يمتّ لقرية عينصورة بِصِلة.

دفع مكرمٌ ثمن اختلافه غاليًا منذ الصغر. كانت تي شيرتاته الضيِّقة الملوَّنة مدعاةً للتنمُّر من قِبل صبيان القرية وشبابها خاصَّةً حين كان يضفي عليها لمساته الخاصَّة، فيأتي بالمقصّ ويصنع الشقوق التي تتدرَّج من الصدر حيث تبدأ كبيرةً وتصغر كلَّما اقترب من منطقة البطن. ومرَّةً أتى بسلسلةٍ فضِّيَّةٍ رفيعةٍ وثبَّتها بالخيط والإبرة على تي شيرت أسود ضيِّق. نعتوه بكلِّ الصفات القذرة «إنثاية» «مخنَّث» «لوطيّ»، كان الأولاد يصرخون به وهو يمشي على الطريق. ولا يلبث أن يختبئ كلٌّ منهم خلف حافَّة شرفة منزله كي لا يعرف مكرمٌ من أين جاء الصوت. لكنَّ مكرمًا كان أصغر من أن يدرك ما يقصدونه، وأكثر براءةً من أن يربط عداء الآخرين له بما يفعله بأزيائه.

لا يولي أهل القرى أهمِّيَّةً لمثل هذه الأمور ولا يعنيهم الأذى الذي يلحقه التنمُّر بالأفراد، وإذا ما أظهر شابٌّ مَيلًا إلى التصرُّف كالبنات، يقولون عنه «بنَّاتي» ويتغاضون عن الأمر. عندما كان مكرمٌ في التاسعة من عمره، صعد إلى مسرح المدرسة كي يشارك في رقصة الدبكة خلال حفل نهاية العام، لكنَّه فاجأ الحضور حين ترك يدي رفيقَيْه ووقف أمام الصبيان وراح يهزّ خصره ويلوِّح بيدَيْه في الهواء كأنَّه راقصةٌ شرقيَّةٌ محترفة. ضحك الجميع وهلَّلوا له

وبقي حديث القرية لأسابيع. لم يخطر له أنَّ الحرِّيَّة التي تصرَّف بها ذلك النهار، سوف لن تُقابل بهذا المرح والتهليل حين يصبح مراهقًا ويتصرَّف على سجيَّته.

هاتفت أمل والدتها وأخبرتها عن زيارة المعرض. عن لوحات النساء اللاتي يولين ظهورهنَّ للمتفرِّج بينما تتطاير مناديلهنَّ عاليًا وكأنَّها دخانٌ مرتفعٌ من مدفأة، عن هوس مكرم برسم أغراض أمِّه بدءًا من مشطها إلى علبة الـ «نيفيا» المعدنيَّة المدوَّرة وصولًا إلى خفّها الأسود والدبابيس التي تثبت بها تنُّورتها الطويلة فوق خصرها.

صمتت نبيلة مطوَّلًا.

«أمِّي بعدك معي؟» سألتها أمل.

«إيه أنا هون» تنهَّدت نبيلة وأكملت «أبوه صحَّته مش كويسة، قال السكَّري طالع معه ويمكن يضرب الكلاوي».

«أمِّي شو دخل مكرم المسكين بسكَّري أبوه؟ هذا استعداد جيني موجود عند عمِّي أبو مكرم»، قالت أمل وكأنَّها شعرت أنَّ والدتها تربط بين ما حدث لأبي مكرمٍ والبلبلة التي انتشرت إثر انتشار الڤيديو المشؤوم.

«أبو مكرم قرَّر يعمل شيخ مثل زوجته. صرله كم شهر عم يطلب دينه من الشيخ ريدان»، قالت نبيلة لتؤكِّد على ربط الأحداث.

«شي بيزعِّل يا أمِّي. بيعزّ عليي...» بدت وكأنَّها ستكمل حديثها، لكنَّها صمتت فجأةً لتتجنَّب الغوص في حديثٍ لا تعرف

كيف تنهيه. لم يزعجها أن يطلب أبو مكرم دينه ليصبح شيخًا، لكنَّها استهجنت أن يكون هذا التوجُّه إلى الدين بمثابة اعتذارٍ يقدِّمه أبو مكرم عن خيارات ابنه التي لا حول له فيها ولا قوَّة. أرادت أمل أن تستنكر هذا الظلم، هذا الربط بين مصائر الوالدَيْن والأبناء. لكنَّ أمَّها ما كانت لتفهم. أمَّها التي ابتُزَّت عاطفيًّا واجتماعيًّا لسنواتٍ بسبب خيارات أمل كقرارها الطلاق من زوجها ثم سكنها وحدها في بيروت ثم سفرها إلى ألمانيا، لم تكن لتفهم هذه الثورة. كان هذا الواقع الذي يحاصر نبيلة بينما كان لأمل رفاهيَّة الغضب والتنظير والتحليل وهي تتنقَّل بين الدول وتنعم بكامل حرِّيَّتها.

تردَّدت نبيلة قليلًا قبل أن تسألها «أيمتى بدِّك تجي لشوفك؟» فنبيلة لا تطلب شيئًا ولا تحرج أحدًا بسؤال. لكنَّها اشتاقت إلى ابنتها الصغرى التي ظلَّت تزورهما أسبوعيًّا بعد طلاقها من زوجها سالم لترى ابنتها رحمة. غادرت أمل منزلها الزوجيّ بعد ثلاثة عشر عامًا من الزواج وخسرت حضانة ابنتها ذات السبع سنوات، وكان مسموحًا لها أن تراها فقط خلال نهايات الأسبوع في منزل والدَيْها. وهكذا أصبحتا تلتقيان كلّ نهار جمعة وتمضيان مع الجدِّ والجدَّة يومَيْن وليلتَيْن حتى مساء الأحد، وبعد أن تغادر رحمة إلى منزل والدها من أجل الدوام المدرسيّ، كانت أمل ترحل إلى بيروت من أجل وظيفتها في الجامعة الأميركيَّة. لكن بعد هجرتها إلى ألمانيا عقب الأزمة الاقتصاديَّة التي أطاحت بالعملة اللبنانيَّة وضيَّقت سبل العيش على اللبنانيّين لم تعد تزورها إلَّا مرَّتَيْن في السنة.

«إن شالله قريبًا يا أمِّي. عندي كتير شغل» أجابت أمل بصوتٍ

مليءٍ بالتردُّد وهي تقبض على الحلية المتدلِّية من قلادتها.

«أنا اشتقتلّك كتير. بس تعالي كرمال رحمة مش كرمالي»، قالت نبيلة محاولةً استدرار عطف أمل.

بعد أن ودَّعت أمّها وأنهت الاتِّصال، شعرت أمل بموجةٍ من التوتُّر. فهذه ليست المرَّة الأولى التي تستخدم أمّها ابنتها رحمة للضغط عليها. لقد حدث هذا الأمر في الأيَّام الأولى من طلاقها وسبَّب لها جرحًا استغرق سنواتٍ ليلتئم.

كان الخريف خارج نوافذ المطبخ قد عرَّى معظم الأشجار، إلَّا شجرة التوت الكبيرة التي كانت لا تزال تحتفظ ببعض الأوراق الصفراء فوق أغصانها. كدَّست الرياح أوراق العِنَّاب الصغيرة في زوايا الفناء، وبين أصص الزرع، وحول حواف ممسحة الأرجل أمام عتبة الباب، التي طُبعت عليها عبارة أهلًا وسهلًا. دخل عليٌّ إلى المطبخ وهو يلفّ بطَّانيَّةً خفيفةً حول كتفَيْه ويظهر كمّه الفارغ من الأسفل.

«صار في برد. ليش بعدك ما فرشتي السجَّاد يا نبيلة؟» قال بعد أن جلس على الكنبة.

«ناطرة شجر العنَّاب ينثر كلّ أوراقه. مين ما فات عالبيت بيجيب برجلَيْه ورق عنَّاب» شرحت له وكأنَّه نسي أنَّ نبيلة وحدها من بين جميع نساء الحيّ تتأخَّر كلّ تلك المدَّة لتفرش السجَّاد تجنُّبًا لأوراق الشجر الصفراء الصغيرة التي تلتصق بالأحذية وتنتهي فوق سجَّاداتها.

«بس أنا صرت ختيار وصرت حِسّ بالبرد بكّير» قال بشيءٍ من الدلع الذي لم تفهمه نبيلة أبدًا. ربَّما كان ينتظر منها في تلك اللحظة أن تقول له: «لا ما إنت شيخ الشباب واسم الله عليك». لكنَّها وضعت يدها على خصرها وسألته لائمة «وين الكنزة السودا يلي اشتريتلك إيَّاها من جارتنا الشتويَّة الماضية؟». لوَّح يده في الهواء قائلًا «ما بطيقها بحسّها للختايرة»، ثم أضاف «إنتي فكّرتي كيف بدِّك تنفِّعي جارتك وتجبري خاطرها وما سألتيني إذا بلبس من هذا المودال» قال مدافعًا عن نفسه. في الحقيقة كانت تلك الكنزة الصوفيَّة المغزولة بعناية، بأزرارها السوداء اللمَّاعة، عصريَّة. وقد نقلت جارتهم نقشتها من إحدى كاتالوجات الشركات العالميَّة. ما لبثت نبيلة أن بحثت عن صورة الكنزة في شبَّاك المحادثات بينها وبين جارتها وأرسلتها إلى عليٍّ عبر واتساب «شوف ما أهيبها على الشبّ» قالت وهي تملأ قرعة المتّة. نظر عليٌّ إلى الصورة وهزَّ رأسه.

لم تمض ساعةٌ حتى وصلت صورة الكنزة إلى حساب «عاشقة الظل». مرفقةً بسؤال:

«ما رأيك بهذه الكنزة؟».

رغم تعوُّد نبيلة على تلك الصداقة التي تربط عليًّا بعاشقة الظلّ ومحاولتها تقبُّل هذا المثلَّث الغريب الذي يحتويها بقدر ما يستثنيها، إلَّا أنَّ الشعور المباغت بتدفُّق الدم إلى رأسها والانفعال كانا لا يزالان يحضران في مثل تلك اللحظات. كان باستطاعتها الآن أن تجعله يحبّ الكنزة ويرتديها أو يرميها إلى الأبد. الكنزة التي اشترتها له زوجته نبيلة تنتظر الآن مصيرها الذي سيأتي على

شكل جملةٍ في شبَّاكٍ افتراضيٍّ من إنسانةٍ وهميَّة. إنسانةٌ وهميَّةٌ صادفت أن تكون هي.

«واو ما أجملها. هذه الشركة رائدة في عالم الموضة» كتبت عاشقة الظلّ.

«أهدتني إيَّاها زوجتي نبيلة في عيد الحبّ».

تساءلت نبيلة في نفسها عن جدوى هذه المعلومة غير الصحيحة! لقد قال للتوّ إنَّ نبيلة فكَّرت كيف تنفِّع جارتها وتناسته، حتى إنَّه لم يرَ في الهديَّة ما ينصفه. «آه يا أبو حبّ»، غمغمت وهي تصكّ على أسنانها ثم كتبت:

«جميل جدًّا! الله يخلِّيكم لبعض».

«تسلمي. أنا أيضًا أعجبتني الكنزة وقَصَّتها».

فهمت نبيلة في تلك اللحظة أنَّه أصبح لها اليد العليا في هذه العلاقة وأنَّها كما استطاعت أن تجعله يحبّ الكنزة سوف تجعله يقبل بتحويل الشرفة المقابلة للطريق إلى غرفة زجاجٍ وسوف تقنعه بزراعة البازلَّاء بدل القرع في أيَّار. وأشياء أخرى كثيرةً سوف تكتشفها نبيلة كلَّما توغَّلت في هذه اللعبة.

تحدَّث عليٌّ ونبيلة عن أشياء كثيرةٍ معظمها يدور حول تدبير الأمور الحياتيَّة والمنزليَّة، فتناقشا بشأن تنظيف خزَّان المياه والموسم الزراعيّ وأنواع المزروعات وما يلزمها من المبيدات، وأسدى لها عليٌّ النصائح بشأن عملها بصناعة الخبز، التي كانت تقاومها بطريقةٍ عصيَّةٍ على فهمه.

«لشو العناد؟ كلّ النسوان صاروا يعجنوا على العجَّانة

الكهربائيَّة. ليش مُصِرَّة ترهقي جسمك؟» كان يسألها باستغراب. لكنَّها لا تكون نبيلة إذا لم تتمسَّك بالطرق الأولى التي تعلَّمت بها الأشياء. كما راح عليٌّ يؤنِّبها كلَّما رآها تضع السجَّاد على أرض الفناء، وتدلق فوقه سطول الماء، ثمّ تجثو على ركبتَيْها وتدعكه بالفرشاة والصابون. «بناتك جابولك مكنسة بتغسِّل وتنشِّف السجَّاد وهو بمكانه. شو صاير عليكي تتعبي؟»، كان يقول متذمِّرًا ولا يوفِّر فرصةً كي يشتكي للجيران والأقارب من عنادها وتشبُّثها بالطرق التقليديَّة. ما لم يعرفه عليٌّ أنَّ عناد نبيلة كان مجرَّد درعٍ يستر خوفها وحاجزًا يحميها من مواجهة نفسها. كانت تظنّ أنَّ زبائنها سيشعرون بتغيّر طعم الخبز إذا ما أولت للعجَّانة مهمَّة القيام بالخلطة، وفكرة خسارة زبائنها أو المساس بعملها كانت تُصيبها بالرعب، كما أنَّ منظر المكنسة الكبيرة السوداء ذات الخزَّان الشفَّاف والكبسات المتعدِّدة ـ التي ما زالت في كرتونتها وراء باب غرفة الجلوس ـ يُشعرها بالإحباط والجهل، فهي التي ولدت على بعد شبرَيْن من الرماد وعاشت عمرها تتمرَّن على الزهد حتى أتقنته، لم تكن تلزمها الأدوات الكهربائيَّة ووسائل الراحة.

«اتركوني على راحتي سَنَدي. أنا ما طلبتش من حدا يجبلي شي»، قالت مرَّةً لابنتها سناء حين ضغطت عليها لاستخدام المكنسة قائلة «إنتي هوايتك تتعبي وما بتعملي حساب إنو إذا مرضتي وقعدتي بأرضك رح نضطرّ نترك بيوتنا ونجي نعاملك؟» جرحها هذا الكلام كثيرًا، وفي المساء، وبعد أن قرأت من كتاب الحكمة غيبًا، دعت ربَّها ألَّا يجعلها تحتاج لأحدٍ قبل أن تموت وأنهت دعواتها بالعبارة التي كانت تكرِّرها كثيرًا «كلّ ما الحيّ

يليق يا ربّ، كلّ ما الحيّ يليق»، ردَّدت وكأنَّها تذكِّر الله بالاتِّفاق الذي أبرمته معه أن يبقيها على قيد الحياة طالما تليق بها الحياة، أي قبل أن تعجز وتصبح عبئًا على غيرها.

أمَّا المواضيع الشخصيَّة والعاطفيَّة فهي لا تتذكَّر أبدًا أنَّها وعليًّا تكلَّما في أيٍّ منها، كالمواضيع المتعلِّقة بعلاقتها بأمِّها، بتغيِّر نظرتها للحياة بعد وفاة شقيقتها أو علاقتها ببناتها. وحين غزتها الهبَّات الساخنة التي رافقت انقطاع الطمث وهي في نهاية الأربعينيَّات لم يعرف عليٌّ شيئًا عن الموضوع خاصَّةً وأنَّ علاقتهما الحميمة كانت قد توقَّفت قبلها بعدَّة سنوات.

مرَّةً أخرى تلوم نبيلة نفسها على هذه الأفكار. لماذا كان عليها الآن وهي في منتصف الستِّين أن ترى بكلِّ هذا الوضوح أنَّها وعليًّا كانا غريبَيْن عن بعضهما بعضًا طوال حياتهما معًا؟ من له الذنب الأكبر في هذا؟ من المسؤول عن هذه الغربة التي عاشاها سويًّا تحت سقفٍ واحد؟ تتلاحق الأسئلة وتتكدَّس في رأس نبيلة كما لو أنَّ ريحًا تسلَّلت في ثنايا ذاكرتها وأتت بهذه الأسئلة لترميها عند باب الحاضر. تبتسم نبيلة لهذه الفكرة وتنهض من مكانها لتتناول مكنسة القشّ وتخرج بها إلى الفناء كي تكنس أوراق الشجر من بين أصص الزرع ومن حول حواف ممسحة الأرجل أمام الباب.

8

صباح الأربعاء، شعرت نبيلة بشيءٍ من التوتُّر حين سمعت جرس الباب يدقّ عند الساعة الثامنة والنصف. «مين شايفنا بحِلمه؟» غمغمت متذمِّرةً وهي ترفع ستحتها لتغطّي فمها واتَّجهت نحو الباب. على الرَّغم من أنَّ القرويين يتزاورون من دون سابق إنذار، إلَّا أنَّ نبيلة، التي لم تكن تستسيغ تلك الزيارات المفاجأة خاصَّةً نهار الأربعاء، عوَّدت جاراتها على إعلامها قبل الزيارة بيوم أو قبل عدَّة ساعاتٍ على الأقلّ. عندما فتحت الباب وجدت رجلًا خمسينيًّا نحيفًا لم تتعرَّف عليه. بادرها بالتحيَّة ثم سألها عن المعلِّم عليٍّ قائلًا إنَّه يريد أن يصلح راديو أنتيكا اشتراه من أحد المزادات. لم تدْعُهُ نبيلة للدخول كما تفعل عادةً لأنَّه كان عليها أن تُجري اتِّصالًا مهمًّا في تمام الساعة التاسعة ولم تكن مستعدَّةً لتضييع الوقت المتبقِّي في تقديم الحلوى وإعداد القهوة. «عن إذنك لحظة»، قالت للزبون. ذهبت إلى عليٍّ الذي كان متَّكئًا على

فراشه يستمع إلى نشرة الأخبار «يا علي عندك زبون»، ثم أضافت بصوتٍ منخفض «روح إنت وياه على الورشة. ما تعزمه يفوت عالبيت مش فاضية هلّق أستقبل ضيوف». لكنّ عليًّا، الذي بدا وكأنَّه سمعها جيِّدًا، اتَّجه إلى الباب مرحِّبًا بزبونه «أهلًا وسهلًا. لا ما بيصير! ليش واقف عالباب تفضَّل فوت» قال ثم ألحَّ على الضيف أن يدخل قائلًا له إنَّه لا يجوز أن يصل إلى باب البيت من غير أن يجابرهم بفنجان قهوة.

صكَّت نبيلة على أسنانها عندما سمعت كلمات عليّ، يليها وقع قدمَيْه وقدمي ضيفه وهما يتَّجهان إلى غرفة المعيشة. ألقت نظرةً خاطفةً على الساعة وشعرت بالتوتُّر ثم سارعت بملء ركوة القهوة لتضعها على النار وراحت تتمتم بصوتٍ يشبه الهمس: «صباح الخير لأسرة البرنامج ولجميع المستمعين الكرام». وضعت ثلاث ملاعق بنٍّ وحرَّكت القهوة وأكملت «اليوم رح أعطيكم وصفة شيخ المحشي بطريقة كتير سبيسيال وسهلة». وإذا بركوة القهوة تفور وسط تدريباتها تلك وتطفئ الغاز. «يلعن هالشغلة» غمغمت نبيلة ثم مسحت الركوة بخرقةٍ ووضعتها على صينيَّة مع فنجانين وبضع تمرات ونادت عليًّا ليأتي إلى المطبخ «القهوة صارت جاهزة. أنا مضطرَّة روح حالًا أعمل إبرة للجارة»، قالت له وهي تنظر إلى الأرض لأنَّها تكره أن تكذب من دون أن تحتفظ بحاجزٍ يحميها من عيني الشخص الذي تكذب عليه.

ما هي إلَّا لحظاتٌ حتى دسَّت الهاتف في جيب تنُّورتها السوداء الطويلة، حملت الورقة التي كتبت عليها الوصفة وتوجَّهت إلى الحقل المقابل، بل إلى أبعد نقطةٍ في الحقل، واختارت

شجرةً وارفة الظلّ لتجلس تحتها. فتَّشت عن هاتفها في جيبها العميق، وحين وجدته طلبت رقم إذاعة صوت الأرز. ردَّ عليها الشابّ تحت الهواء «أهلًا مدام ندى. يلَّا فقرتك بتبدأ بعد ثلاث دقايق، جاهزة؟» فتحت نبيلة الورقة التي كتبت عليها الوصفة كي لا تنسى أيًّا من الخطوات وقالت «جاهزة».

مرَّت شهور على اتِّصال نبيلة بالإذاعة لحلِّ الحزُّورة. نشأت نتيجة هذا الاتِّصال صداقة «تلفونيَّة» بينها وبين إحدى المذيعات الشابَّات، التي سرعان ما ارتاحت لنبيلة وصارت تتَّصل بها لتسألها عن وصفات طعام وتفضفض لها عن زوجها وطباعه وتشتكي من سوء علاقتها بأمِّها. لم تتردَّد نبيلة بالقبول عندما طلبت منها المذيعة أن تقدِّم فقرةً صباحيَّةً ثابتةً كلّ نهار أربعاء. ولم تغيِّر رأيها حين أخبرتها المذيعة، وبشيءٍ من الخجل يطغى على صوتها، أنَّه ليس هناك مقابلٌ ماديٌّ للفقرة.

إلَّا أنَّ هذا المشروع الذي بدأ كعملٍ تطوُّعيٍّ غير ربحيّ جلب لنبيلة جمهورًا من المستمعين الذين بدأوا يسألون عن كيفيَّة الحصول على مأكولات مدام ندى ومنتجاتها. في إحدى محادثتهما وبعد أن اقترحت عليها المذيعة أن تقوم بعمل مشروع «ديليڤري» للطبخات اليوميَّة، ردَّت نبيلة «لا لا، أكل ما بقدر. ما عندي حدا يوصِّل أكل. مونة إي تكرم عيونكم: خبز صاج ماشي، قاورما، زيتون، مخلَّلات، مربّيات، لبنة مكعزلة، زعتر، سمَّاق، كشك، صابون بلدي... وهيك ممكن» عدَّدت نبيلة الأصناف وهي تداعب بيدها الشراشيب المعلَّقة على زاوية إحدى وسادات غرفة المعيشة. وهكذا أصبح لنبيلة خلال بضعة أشهرٍ

بابُ رزقٍ جديدٌ يصلها بعالمٍ لا تعرفه إلّا عن طريق التخيُّل ويجعل مأكولاتها تدخل بيوتَ أُناسٍ غرباء يعيشون في المدن ولهم همومٌ لا تشبه همومها وأحلامٌ وطموحاتٌ لا تعرف عنها شيئًا.

اتَّفقت مع السائق العموميّ الوحيد في القرية على أن يأخذ الطلبيَّات إلى بيروت مرَّةً كلّ أسبوع. صار يأتي صباح الجمعة في الساعة السادسة صباحًا، يفتح صندوق سيَّارته المرسيدس القديمة ويتَّكئ على الجدار بكرشه الكبير ليدخِّن سيجارة، بينما تقوم نبيلة بنقل صناديق الكرتون المليئة بالبرطمانات ـ المزيَّنة بشرائط مصنوعةٍ من الخيش ـ ووضعها في صندوق السيَّارة. ثم تؤكِّد عليه أن يوصلها إلى العناوين المكتوبة على كلِّ كرتونةٍ قبل أن يبدأ بالعمل، وأن يقبض الثمن بالدولار.

لم يكن من الصعب على نبيلة أن تختلق سرديَّةً أخرى عن باب الرزق الجديد كي تقدِّمها لعليٍّ بينما تحتفظ لنفسها بسرٍّ شخصيَّة مدام ندى. فأخبرته أنَّ زبونتها التي تعيش في مدينة عالية على بعد ثلاث قرًى والتي تبيع منتجات نبيلة في إحدى خِيَم المهرجان الذي يُقام هناك، هي من دلَّت الزبائن الجدد عليها. «كتِّر خيرها» قال عليٌّ بطبيعته اللامبالية التي طالما وفَّرت على نبيلة الكثير من التطقيس والتبريرات.

أمل وحدها كانت تعلم بشخصيَّة أمِّها الإذاعيَّة. «يا محتالة! مش معقول شو ذكيَّة ومهضومة الفكرة!» قالت لأمِّها مشجِّعةً عندما أخبرتها نبيلة عن الأمر خلال إحدى المكالمات الهاتفيَّة. وصارت، حين يسمح لها الوقت وفرق التوقيت بين الدول، تشغِّل

الراديو في صباح يوم الأربعاء وتبحث عن تردُّد صوت الأرز كي تستمع إلى صوت والدتها القادم من بين تلك الجبال البعيدة، فيوقظ فيها خليطًا من المشاعر الملتبسة والمتناقضة.

طرق أحدهم باب بيت عليٍّ ونبيلة في السادسة صباحًا طرقًا قويًّا. «يلَّا ثواني»، صاح عليٌّ من الداخل وهو يرتدي كنزته السوداء فوق الفانيلا النصّ كمّ التي يلبسها في النوم. وخرجت نبيلة من غرفة النوم وهي تعدِّل منديلها وتقول «خير انشالله». وحين فتح الباب وجد ابن الجيران منتصبًا أمامه «العوض بسلامتكن توفّي عمّي أبو مكرم» قال الشابّ وأضاف «بما أنكن جيران قلت لازم تعرفوا قبل غيركم». مكتبة سُر مَن قرأ

«العوض بسلامتك» قال عليٌّ ثم سأل «ليك عرفت شي إذا استلم دينه قبل ما يموت؟».

«إيه استلم الخميس الماضي من الشيخ ريدان» قال الشابّ.

«الله يرحمه» قال عليٌّ باطمئنان، لأنَّ الرحمة أصبحت تجوز على أبي مكرمٍ بعد أن أصبح شيخًا.

«الله يرحمه ارتاح»، قالت نبيلة وأضافت «مسكينة أمّ مكرم! يلَّا خلّينا نلبس ونروح نشوف كيف فينا نساعدها».

حُدِّد وقت الدفن في تمام الساعة الثانية بعد الظهر، خاصَّةً بعد أن تأكَّد الأقارب المقيمون على تنظيم المأتم أنَّ ابنه الوحيد مكرمًا لن يحضر لوداع والده. عادةً ما تقوم العائلة بحفظ جسد المتوفَّى في برَّاد إحدى المستشفيات ريثما يأتي الأبناء من

المهجر، وكانت ابنته غيداء قد عادت من الإمارات من أجل الاطمئنان على والدها بعد أن علمت بتدهور صحَّته، لكنَّ مكرمًا لم يأت. لم يُسكت الحزن ألسنة النمَّامين ولا غاب اسم مكرم عن المأتم. «لو حضر كنَّا قاطعنا» قال أحد الشباب بصوتٍ مسموعٍ وهو يدخِّن سيجارة ويتَّكئ على باب قاعة المناسبات حيث يُقام المأتم. «كنَّا رح نطلب بشكل رسمي من المشايخ كمان يقاطعوا»، قال شابٌّ آخر مزايدًا على الشابِّ الأوَّل نافخًا عضلات صدره يملأ صوته اليقين إنَّه يقدِّم خدمةً لأهل القرية وللطائفة وللبشريَّة جمعاء.

بدأ كلّ شيءٍ منذ سنتَيْن حين انتشر ڤيديو لمكرمٍ وهو في إحدى الحفلات التي كان يقيمها مطربٌ لبنانيٌّ معروفٌ في القاهرة. في الڤيديو كان مكرمٌ يجلس فوق كتفي أحد الشبَّان ويحمل علمًا ملوَّنًا تبيَّن لاحقًا أنَّه لمناصرة حقوق المثليِّين الجنسيِّين. لم ينتبه للڤيديو أحدٌ قبل انتشار خبر توقيف مكرمٍ من قِبل الشرطة المصريَّة على خلفيَّة هذه الحفلة. لكن بعد التحقيق، وبعد أن تبيَّن أنَّه لبنانيٌّ مقيمٌ في دبي، أُطلق سراحه وعاد إلى الإمارات على متن أوَّل طائرة. ضيَّقت أمّ مكرمٍ عينَيْها وهي تنظر إلى الڤيديو لأوَّل مرَّةٍ ثم صاحت «شو فيه الڤيديو حتى قلبتو الدني عليه؟ شو بينكِّد إذا رفع علم الخمس حدود قدَّس الله سرّهم؟»، فلم يكن من الشابّ الذي جاء رفقة أمّه لينقل الخبر لأمّ مكرمٍ إلَّا أن انفجر ضاحكًا حتى سالت دموعه. لم يخطر ببال أحدٍ أنَّ الخالة أمّ مكرمٍ ستظنّ أنَّ مكرمًا جلب لنفسه الانتقاد والنميمة لأنَّه لم يستتر ورفع علم الخمسة حدودٍ الدرزيّ في مصر.

«ركِّزي منيح يا خالتي إمّ مكرم. هذا مش علم الخمس حدود!».

قال (فاعل الخير) وهو يفكّر كيف سيصوغ كلماته بعنايةٍ ليشرح لها أنَّ ابنها «شاذٌّ» ومناصرٌ لحقوق الشواذّ. لقد رفض فاعل الخير هذا كلمة «مثليِّين» رفضًا قاطعًا. «ما رح نَمّق تعابير حتى برِّئ ولاد الحرام من أعمالهم. قول للأعور أنت أعور بعينه. الله يقطعهم. تفه!!!»، قال مستاءً وهو يقف بين شباب القرية تحت شجرة السنديان المعمِّرة حيث تجتمع كلّ ليلةٍ الطاقات الشبابيَّة المهدورة ويتمّ تناول أعراض الناس وخصوصيَّاتهم من أجل التسلية وتضييع الوقت.

بعد أن فهمت التلميح هتفت أمّ مكرم «فشر بعينه يلّي بيقول شي عاطل عن مكرم!» وقفت فجأةً وكأنَّ سربًا من الدبابير قد اجتاحها. «مكرم بعمره مش آذي نملة وبيظلّ يبعت حسنات مخفيَّة للأرامل والمساكين. شو بدكم فيه للمعتَّر؟»، قالت وهي تمشي ذهابًا وإيابًا. ثم رفعت أصبعها محذِّرة «إيَّاك تقول شي لعمَّك أبو مكرم. السكَّري طالع معه من غير شي».

ولكنّ أبا مكرم علم بالأمر. علم، لأنَّ الدكَّنجي والكهربجي واللحَّام كلّهم علموا. وتحوَّل الحديث عن مكرم إلى تسليةٍ تُغني أهل القرية عن فقفقة البذور وشرب المتَّة ولعب الورق. كان لنبيلة الدور الأكبر في التخفيف عن أمّ مكرم لأنَّها ربَّت عائلةً من البنات وعرفت كيف تتحصَّن ضدَّ هجمات النميمة خاصَّةً بعد طلاق أمل وانتقالها للعيش في بيروت بمفردها.

لا يتذكَّر سكَّان عينصورة الموت إلَّا حين ينطلق المذياع من على سطح بيت المختار صادحًا «إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون»، ليتردَّد الصدى في أرجاء الوادي، وضريبة عدم تذكُّر الموت هي ارتفاع النباتات الشوكيَّة والأعشاب البرِّيَّة في الدرب الضيِّق المؤدِّي إلى المقبرة الوحيدة في القرية وانسداد بابها. فيركض أهل الفقيد ويتوسَّلون إلى الشبَّان كي يقوموا بتقشيش الطريق وقصّ العشب. ولكن غالبًا ما يتهرَّب الجميع من هذه المهمَّة وغيرها من المهامّ المستعجلة لتقع في النهاية على عاتق مهنَّدٍ السوريّ.

مسكن مهنَّدٍ ليس بعيدًا عن المقبرة، وقد حرص منذ أن أتى مراهقًا إلى هذه البقعة قبل سبعةٍ وأربعين عامًا على أن يبتعد عن البشر قدر الإمكان. فاستقرَّ أوَّلًا في المدرسة القديمة بعد أن حصل على إذنٍ من المختار بترميمها بُغية السكن فيها، وعندما بدأ بعض السكَّان بمضايقته مدَّعين أنَّهم يريدون إعادة بناء المدرسة، غادر المكان وسكن في مرآب أحد البيوت. ولكنَّ المضايقة عادت بعد أن شاع الكلام عن حادثة اغتصاب شابٍّ سوريٍّ لفتاةٍ لبنانيَّةٍ في الضيعة المجاورة. استيقظ ذات صباحٍ ليجد رأس دجاجةٍ مقطوعًا ومعلَّقًا على مقبض بابه ومرَّةً أخرى وجد كومة رمالٍ عند مدخل الغرفة حيث يسكن. وعلى الرَّغم من أنَّه كان على علاقةٍ طيِّبةٍ بمعظم السكَّان وأشاد الجميع بحسن خلقه وشهامته إلَّا أنَّ المواقف تلك كانت تذكِّره بتشرُّده وافتقاره إلى وطنٍ يشعر فيه بالأمان والانتماء.

9

غادر مهنَّدٌ قرية عينصورة عدَّة مرَّات، لكنَّه كان لا يلبث أن يعود بعد أسبوعَيْن أو ثلاثةٍ يكون قد عمل خلالها في أحد المشاريع في القرى المحيطة. ولا يذكر أحدٌ أنَّه تغيَّب أكثر من شهرَيْن. كان كالريح، يتحرَّك باستمرارٍ ولا يستقرّ في مكان. كانت أصعب الفترات عليه حين وصلت الحرب الأهليَّة إلى جبل لبنان عام 1983، فكان يلزم غرفته ويتجنَّب الظهور في العلن. اختار أن يبقى بين الدروز، رغم أنَّ الحرب أجبرت كلّ فردٍ على العودة إلى طائفته والاحتماء بها. لكن في عام 2005 وبعد مقتل سياسيٍّ لبنانيٍّ كبيرٍ بانفجارٍ دوَّى معه كلّ شبرٍ في لبنان، هاجت الدنيا وأُعلن العداء على سوريا والسوريِّين من ساحة الشهداء. كثرت حينها المضايقات وداهم عددٌ من الشبَّان، الذين يجتمعون تحت السنديانة ويقدِّسون الزعيم السياسيّ الذي كان على خلافٍ مع النظام السوري، غرفته وطردوه. «شو قاعد تعمل بيناتنا؟ إنت

مخابرات ولاك؟ معك 24 ساعة لتضبّ أغراضك» قال أحد الشبَّان الصغار الذي وُلد بعد قدوم مهنَّدٍ إلى القرية بعشرين سنةً على الأقلّ.

لم يكن مهنَّدٌ الأربعينيّ آنذاك ذو المنكبَيْن العريضَيْن والساعدَيْن القويَّيْن عاجزًا عن الدفاع عن نفسه، لكنَّه كان غريبًا. و«الغريب جناحو مكسور» كما قالت له إحدى النساء وهي تناوله صحن الطبيخ وتلحّ عليه أن يأخذه. «إبني مثلك بالغربة وبتمنَّى الله يحنِّن قلب العباد عليه». تجنَّب مهنَّدٌ الصدام قدر الإمكان، ولذلك قبل نصيحة أحد المشايخ حين أوصاه بمغادرة عينصورة ريثما تهدأ الأمور. وهكذا استيقظ ذات صباح وجمع أغراضه وغادر القرية التي عاش فيها قرابة ثلاثين سنةً تاركًا وراءه الورود التي زرعها في الفناء وكانون الفحم الذي كان يشوي عليه العصافير والأسماك التي يصطادها، وكذلك صوت أمّ كلثوم، الذي من فرط ما سمعه أهل القرية، تخيَّلوه سيبقى صادحًا في ذاكرة الوادي مختلطًا بخرير ماء النهر وصوت الرياح.

لم يعرف السكَّان أنَّه غادر إلَّا حين توقَّف صوت الموسيقى. الموسيقى التي كانت تشقّ الليل وتزعج الكثير من القرويِّين، قبل أن يعتادوا عليها وتصبح جزءًا من سهراتهم وحياتهم، توقَّفت مرَّةً واحدةً مقدِّمةً الصمت على طبق الليل النقيّ لتنهشه أصوات الذئاب والثعالب والضفادع.

رحل عند الفجر وتوجَّه شمالًا إلى عكَّار وتعلَّم هناك مهنةً جديدةً وعاش وحيدًا لخمسة عشر عامًا كان يعود خلالها لزيارة عينصورة مرَّةً كلّ سنةٍ أو سنتَيْن. فيستأجر عرزالًا بناه أحد الشبَّان

فوق شجرة بلُّوطٍ معمِّرةٍ ويمكث لأسبوعَيْن ثم يغادر. ومع كلِّ زيارة كان يعلن عن عودته بصوت أمّ كلثوم الذي يصدح في الوادي حتى الصباح:

«فات المعاد وبقينا بعاد

والنار بقت دخان ورماد»

في إحدى ليالي الشتاء الباردة في عكَّار أصابته حمَّى لم يختبر مثلها في حياته. خرج من كوخه الخشبيّ بعد أن لفَّ بطَّانيَّةً حول كتفَيْه وملأ كانون الفحم بالخشب الرفيع وأشعله. اصطكّت أسنانه وتجمَّعت نقاط العرَق على جبينه قبل أن ينساب العرَق من كلِّ مسامّ جسده. خُيِّل إليه أنَّ البرد يأتي من صدعٍ في الذاكرة، من مكانٍ عميقٍ في داخله يشبه انكسار ماسورةٍ تحت البلاط، وشعر أنَّ الماضي يحاصره وهو مُلقى على الأرض عاجزًا عن الحراك. «مش هلَّق!» تمتم وهو في حالة هذيان. لوَّح بيدَيْه أمام وجهه وكأنَّه يصارع شبحًا. «لا تنقضّ عليي وأنا بقمَّة ضعفي ومرضي!» توسَّل هاذيًا. لكنَّه في تلك اللحظة لم يكن يعلم إلى من يتوسَّل ولا ممَّ يخاف. الرغبة الوحيدة التي تملَّكته كانت أن يعود إلى شيءٍ يشبه الوطن. فكَّر مطوَّلًا في كلمة «وطن» وأدرك أنَّ وطنه سيبقى دائمًا إلى جانب النهر في قرية عينصورة. فهو لم يزر قريته في طرطوس منذ صعد إلى صندوق تلك الشاحنة المتَّجهة إلى لبنان (بالثياب التي عليه) وغادر إلى غير رجعة. يخاف أن يتذكَّر ذلك النهار. ربَّما من فرط ما حفظ تفاصيله أمضى معظم أيَّامه في ردع تلك الذكرى الحاضرة بقدر الجهد الذي يتكبَّده في محاولة طمسها وتغييبها.

في كوابيسه لا يهرب مهنَّد، بل يبقى مختبئًا خلف حاوية النفايات مراقبًا الدم المنساب من رأس أمّه على شكل حبلٍ أسود وهي منكفئةٌ على وجهها. في كوابيسه لا ينهار الأب الثمل باكيًا بعد أن أطلق النار على رأس زوجته بل يستدير ويصوِّب البارودة الطويلة ناحية مهنَّد. ومهنَّد، مهما كبر، يبقى ذاك الصبيّ المذعور الذي لم يجرؤ على الاقتراب من جسد أمِّه ولا حتى على ستر جثَّتها بشرشفٍ قبل أن يتدفَّق سكَّان الحيِّ إلى فناء بيتهم. لم يصرخ مهنَّدٌ حين رأى ما رأى ولا بكى ولا حتى فكَّر في الإبلاغ عن والده. لكنَّه ركض. ركض حاملًا فردتي حذائه بيدَيْه. ركض فوق التراب والحجارة والأسفلت. ركض حتى غاب البيت والحيّ والقرية. حتى غابت الأصوات ووأد التعب الصرخة المكتومة في حلقه.

يأتيه الماضي على شكل صورٍ خاطفةٍ أحيانًا. كأن يرى فردة حذاء أمِّه على بعد مترٍ من جثَّتها، بمقدِّمته صوب الباب، وكأنَّ حذاءها يحاول أن يهرب. كأن يرى الأسماك الصغيرة المنقوشة على تنُّورتها الطويلة بوضوح، ويستغرب لماذا لم يرَ تلك الأسماك من قبل مع أنَّ والدته لا تملك سوى تنُّورتَيْن. الحمَّى تفتح أبواب الجحيم على مهنَّدٍ وتضع ذلك المشهد على «وضع التكرار» فلا ينتهي حتى يبدأ من جديد. ومهنَّدٌ طفلٌ مجبرٌ على رؤية أمِّه تُقتل أمام عينَيْه من غير توقُّف.

في كلِّ مرَّةٍ يتعافى من المرض يقرِّر حزم أمتعته والعودة إلى عينصورة، لكنَّ الالتزامات لا تلبث أن تُنسيه عزمه فيعود إلى العمل راضيًا بحياته مستأنسًا بأصوات الموسيقى التي تتصاعد من

مسجِّله لتسيطر على المكان وتذيب كلّ الأصوات الأخرى داخلها. لكنَّه هذه المرَّة لم يسمح لشيءٍ أن يثنيه عن المغادرة. في الصباح حزم أمتعته وترك رسالةً لصاحب الأرض حيث كان يعمل وعاد إلى عينصورة عازمًا أن يستقرَّ فيها إلى الأبد.

مع كلِّ عودةٍ لمهنَّدٍ كان صدر نبيلة ينقبض لدى سماعها صوت أمّ كلثوم في الوادي، تشعر وكأنَّ أحدهم «سكب عليها سطل ميّ باردة» كما كانت تقول لراغدة في شبابها حين تلتقي بمهنَّدٍ صدفة. فهي، وبعد كلّ تلك السنوات، تتساءل عن إصراره على العودة إلى عينصورة، تتعجَّب من عدم إقدامه على الزواج والإنجاب، ومن جدوى هذه الحياة التي يعيشها في الأحراش والغابات والتي تشبه حياة الذئاب أكثر من حياة البشر.

عند منتصف الليل، وقف مهنَّدٌ أعلى هرم خشب السنديان الذي صنعه منذ عدَّة أيَّام من أجل صناعة الفحم ونظر إلى القمر المكتمل فوق رأسه. شعر برغبةٍ في العواء كما كان يفعل في سنواته الأولى في هذه المنطقة. حين يبدأ أبناء آوى بالعواء، كان يخرج من غرفته ويكوِّر راحتَيْه أمام فمه ويبدأ بالعواء معها وكأنَّه جزءٌ من تلك السيمفونيَّة المتناغمة. دائمًا ما يحاول أن يفهم تصرُّفاته بأثرٍ رجعيّ. ومن تلك العادة القديمة فهِم أنَّ العواء كان فرصته الوحيدة للصراخ، وأنَّ الكلام حين يتراكم ويتخمَّر ويتحلَّل داخل الإنسان يصبح كتلة عواءٍ لا تنتظر إلَّا أن تسمع صداها.

حمل عصًا طويلةً غليظةً وأدخلها في فوهة الهرم من أعلى، فتصاعد الدخان على شكل سحاباتٍ بيضاء تلتفّ وتتمايل تحت قمر آب المكتمل. وعندما دخلت كمِّيَّة أكسيجين كافيةٌ إلى باطن

الهرم، أتى برفشٍ ملأه بالتراب وغطّى الفوهة مجدَّدًا.

نزل بحذائه الضخم وهو يصغي لامتزاج صوت تكسُّر الأوراق اليابسة والأغصان الرفيعة التي غطّت هرم الخشب بصوت النهر الشحيح. ملأ إبريق الشاي ووضعه على موقدٍ صغيرٍ صنعه عبر رصف عدَّة أحجارٍ على شكل نصف دائرةٍ ضيِّقة، ثم استلقى على ظهره في انتظار أن يغلي الماء وراح يحدِّق في النجوم. لقد عمل في صناعة الفحم طيلة سنوات إقامته في عكَّار، لكن عودته إلى عينصورة أيقظت فيه كلّ الأفكار والمشاعر التي نجح في ردمها، وجعلته يرى صناعة الفحم من منظورٍ جديد. انتفض من نومته وجلس. نظر حوله ببطءٍ ثمّ توجَّه إلى الهرم من جديد، تسلَّقه بخطواتٍ بطيئةٍ وحين وصل إلى أعلاه، أغمض عينَيْه وراح يشعر بكلِّ ما يحدث تحت قدمَيْه. نزع حذاءه الضخم، قلع جوربَيْه، ووقف بقدمَيْه العاريتَيْن فوق الأتربة والأغصان التي تغطِّي هرم الفحم. أغمض عينَيْه مرَّةً أخرى وشعر بحرارة الخشب الذي يتفحَّم تحت قدمَيْه. تخيَّل أنَّ عينَيْه تفارقانه وتدخلان الفوهة وتتغلغلان وسط الأخشاب السوداء التي تمتصّ الأكسجين ببطءٍ كي تتحوَّل إلى فحم. تحتاج تلك الأخشاب إلى القليل من الأكسجين فقط، إلى ما يكفي للتفحُّم لا للاشتعال. فصانع الفحم لا يريد الحصول على النار، بل يريد الاحتفاظ بها داخل الخشب.

الاشتعال نارٌ آنيّةٌ وموقَّتة، كلَّما توهَّجت كلَّما اقترب حتفها. أمَّا الفحم فنارٌ كامنة. دفءٌ مؤجَّل. واشتعالٌ مشتهى. توالت عليه الإدراكات: كيف لم ينتبه من قبل أنَّ صناعة الفحم هي النسخة

الأقرب إلى شخصيَّته؟ وأنَّ حياته لو ترجمت إلى مهنةٍ لن تكون سوى صناعة الفحم.

قبل بناء المفحمة، كان على مهنَّدٍ أن يسوِّي الأرض ويزيل الأحجار، وبعد ذلك يسرح في الغابات ليقلِّم الأشجار ويأتي بالأغصان، فيزيل منها الأوراق ويقطِّعها إلى قطعٍ متساوية. يرسم دائرةً كبيرةً فوق الأرض ويضع الأحجار على محيطها ثم يأتي بأسطوانةٍ حديديَّةٍ ويضعها في مركز الدائرة. بالارتكاز على تلك الأسطوانة يبدأ مهنَّدٌ ببناء مفحمته على شكل هرم. فيوقِّف قطع الخشب بشكلٍ مائلٍ على الأسطوانة، وكلَّما اكتملت دائرةٌ من قطع الخشب المائلة، يصنع دائرةً أخرى حتى تصبح المفحمة هضبةً صغيرة. فيأتي بعدها بأغصان البلُّوط ذات الأوراق الخضراء ويغطِّي الخشب. وبعد ذلك يغطِّي أغصان البلُّوط بطبقةٍ عازلةٍ من التراب مراعيًا سدَّ جميع الثغرات التي قد تتسرَّب منها كمِّيَّةٌ كبيرةٌ من الأكسجين إلى داخل الهرم، تاركًا فتحةً صغيرةً في الأعلى. لكنَّ الجزء المفضَّل عند مهنَّدٍ بعد هذا العمل الشاقّ هو الجزء الأخير، حيث يأتي بأغصانٍ رفيعةٍ ويابسةٍ ويُشعلها عند الفوهة. سرعان ما تتحوَّل تلك الأغصان اليابسة إلى جمرٍ يتساقط إلى داخل الهرم، فيسارع مهنَّدٌ ويسدّ الفوهة بالتراب ليحبس الدخان في الداخل وليمنع دخول المزيد من الأكسجين. بهذه الخطوة تبدأ عمليَّة التفحيم.

في تلك الليلة أدرك أنَّه، أيضًا كتلك الأخشاب، تدرَّب على استهلاك القليل من الأكسجين، فقط بما يكفيه للتفحُّم لا للاشتعال. أمضى عمره يتنفَّس ببطءٍ ويتكلَّم ببطءٍ ويلجم انفعالاته

ببطءٍ كي لا يشتعل. كيف لم يخطر بباله أنَّه حوَّل قلبه إلى قطعة فحمٍ كبيرةٍ لا يمكن أن يوقظ نارها الكامنة شيءٌ سوى شرارة حنينٍ من الماضي... مثل تواجده هنا على بعد أقلّ من كيلومترٍ من منزل المرأة الوحيدة التي أحبَّها.

«ياما كنت أتمنَّى أقابلك بابتسامة

أو بنظرة حبّ أو كلمة ملامة

بس أنا انسيت الابتسام

زيّ ما نسيت الآلام..»

أدار مفتاح التحكُّم بالصوت في مسجِّله إلى أقصاه تاركًا الصوت يتردَّد متصاعدًا مع سحابات الدخان الأبيض من أعلى جبل الفحم ومن كاسة الشاي إلى جانبه. كلّ شيءٍ كان يتصاعد إلَّا قلبه الذي تحوَّل إلى حجرٍ يهوي في ظلمة بئرٍ سحيق، وليقاوم هذا السقوط أطلق عواءً طويلًا اهتزَّت معه ضلوعه وسَكِينة الوادي ووحشته.

لم يكن يعرف في تلك اللحظة أنَّ صوت الموسيقى أخرج نبيلة من سريرها لتقف في الظلام على سطح منزلها وتراقب ظلَّ هذا الرجل المجهول الذي بدا لها تحت ضوء القمر وكأنَّه يقف على حافَّة بركانٍ ذي فوهةٍ مفتوحةٍ ويعبث بالنار.

قبل حوالي خمسةٍ وأربعين عامًا أودع مهنَّدٌ عند راغدة رسالةً لنبيلة يخبرها فيها أنَّه استعار منظار دبَّابةٍ حربيَّةٍ وحضر زفافها من على الجبل المقابل لضيعة تلِّ الخروب. بكى طوال فترة الزفاف خاصَّةً وهو يراقبها تخرج من بيت والدها بفستانٍ أبيض سادة

وطرحةٍ بيضاء تغطّي شعرها المرفوع لتغادره إلى بيت زوجها. بدا الألم الذي رافقها في خطواتها تلك، وكأنَّه يتدفَّق عبر عدسة المنظار إليه، لكنَّه لم يستطع فعل شيءٍ سوى المشاهدة. لم تردّ نبيلة على الرسالة، بل دحشتها في يد راغدة:

«دخيلك خلص طوينا هي الصفحة أنا هلّق مرا مزوَّجة»، قالت بانفعال.

«كان حلم وصحيت منه... كلّنا منعرف شو مصير الحبّ بهالبلاد»، أضافت وكأنَّها تؤكِّد لنفسها أنَّ ما تفعله وتقوله هو عين الصواب.

صحيحٌ أنَّ مهنَّدًا لم يحاول أن يتحدَّث معها، لكنَّه أيضًا لم يغب غيابًا تامًّا يسمح فيه للماضي أن يصبح ماضيًا. وحين غاب سنة 2005 شعرت نبيلة براحةٍ عارمة. ظنَّت أنَّه قد رحل إلى الأبد وأنَّه أخيرًا سيتزوَّج وتكون له عائلةٌ ويعيش مثل جميع البشر في بيتٍ صالحٍ للسكن، يأكل طعامًا ساخنًا، وينعم برفقة امرأةٍ تحبّه وتحنو عليه.

لكنَّ مهنَّدًا لم يتزوَّج ولم تَحْنُ عليه أيّ امرأةٍ مذ توفِّيت أمّه. يحاول أن يتذكَّر أمّه أحيانًا، وجهها الأحمر الذي لوَّحته شمس الحقول، طبقات الثياب الكثيرة التي كانت ترتديها فوق جسدها المكتنز، الإيشارب الذي تعقده تحت كعكة شعرها والأساور النحاسيَّة في معصميها. يفكِّر في مأتمها الذي لم يحضره وفي قبرها الذي لا يعرف مكانه، وفي مصير والده وإخوته... لكنَّه سرعان ما ينتبه أنَّه دخل منطقةً محظورةً في الذاكرة وينصرف عنها

متظاهرًا أنَّ تلك الحياة التي تلاحقه ـ مثل قطَّةٍ شاردة ـ تخصّ شخصًا آخرَ ولا علاقة لمهنَّدٍ الحاليّ بها.

ظلَّ يحمل ماضيه فوق كتفَيْه من غير أن ينتبه إلى حمولته. وحين قرأ روايةً لنجيب محفوظ عن متاهات القدر، فهم أنَّ الإنسان لا يستطيع أن يهرب من مصيره. أعاد قراءة الرواية عدَّة مرَّاتٍ حتى بدأ يشعر بثقل حمولته وينتبه إلى أنَّه سيبقى رهين قدره إلى الأبد. لم يختر مهنَّدٌ أن يولد في سوريا، ومع أنَّه هرب منها وهو في الثالثة عشرة من عمره، إلَّا أنَّ كُنيته بقيت «مهنَّد السوريّ». ولا هو اختار والدَيْه أو أن تكون حياته عبارةً عن تشرُّدٍ لا نهاية له، ومع ذلك لا يتوقَّف والداه عن مطاردته في الصحو وفي المنام. أحيانًا يفكِّر ما إذا كانت المعرفة التي سعى إلى امتلاكها عبر قراءةِ كلّ ما تقع عليه يداه هي التي عمَّقت شعوره بالتعاسة وإذا ما كان المرض يصبح أكثر بطشًا عندما يتمّ تشخيصه.

يتمنَّى لو يستطيع أن يسأل نبيلة عن الأمر.

«لا يغرّك منظر المنديل والستحة. نبيلة من جوَّا مفتَّحة مش مثل أهل البلد غاشيين وماشيين»، قالت له راغدة ذات مرَّةٍ وهي تنقر على رأسها مشيدةً بانفتاح نبيلة وذكائها. غالبًا ما كانت تسلّي مهنَّدًا بالحديث عن نبيلة حين يأتي إلى الفناء ليساعد والدها في عمله. يصمت مهنَّدٌ حين تبدأ راغدة بالحديث ويمسك أنفاسه متمنِّيًا أن تستمرّ في سرد القصص التي تفصح عن أفكار نبيلة وطبائعها. تتصارع الأسئلة في رأسه. يودّ لو يسألها مائة سؤالٍ على الأقلّ: «كيف صحَّتها؟ كيف علاقتها ببناتها؟ كيف صار لون

عينَيْها؟ بعدها بتحبّ أمّ كلثوم؟ شو صارت تحبّ وشو بطّلت تحبّ؟» لكنَّه يعلم أنَّ هذا الأمر سوف يضرّ بنبيلة ولن يعود عليه بالنفع. سمح لنفسه أن يطرح سؤالًا واحدًا فقط عن نبيلة.

«سعيدة بحياتها؟».

سأل راغدة وهو ينظر إلى الأرض. لكنَّ راغدة فهمت أنَّه يسأل عن نبيلة، وعلى غير عادتها المتسرِّعة، صمتت لبرهةٍ وقلبت شفتها السفلى:

«باعتقد راضية أكثر ما إنَّها سعيدة. نبيلة عندها رضى وتسليم وقبلت بنصيبها».

لكنَّ الرضا لا يولد في طبع الإنسان، إنَّما يُدجَّن. ونبيلة دجَّنت الرضا في حدائق روحها الخلفيَّة وفي أصص الزرع وفي شراشف الكروشيه التي تحوكها بالإبرة. دجَّنته في ابتسامة أطفالها وفي ضفائرهنَّ النظيفة وفساتينهنَّ التي تحرص، رغم تواضعها، على غسلها وكيِّها. «الحمد لله على كلِّ شي. الله يبعد النُغَص» تقول كلَّما قست عليها الظروف وذلَّها الفقر وكثرت أسئلة بناتها عن عدم قدرتهنَّ على شراء الملابس والأحذية الجديدة. حاولت نبيلة قدر الإمكان أن تتجنَّب طرح الأسئلة حول قدرها بعد أن رُزقت بأطفالها. تخلَّت عن السؤال حين لم تعد تمتلك رفاهية وشجاعة تلقِّي الإجابات. ولكنَّ الأسئلة كان تأتي أحيانًا مثل الطوفان الذي اجتاح القرية عام 1970.

ماذا لو لم يأت ذلك الطوفان ويهدم المدرسة؟ هل كانت ستكمل تعليمها؟ ماذا لو توفِّي عليٌّ في الحرب بدلًا من أخيه؟

ماذا لو كانت هي البنت الكبرى بدل نجاة التي حُرمت من الزواج لتكرِّس حياتها لتربية أخيها إبراهيم الـ (سبحان من خلقه)؟ ومهنَّد... هل كان مهنَّدٌ ليسلك طريقه إلى هذه البقعة لولا متعهِّدو مشروع إصلاح الأراضي الذين أتوا به إلى هنا بسبب الطوفان؟ ماذا لو قبلت حين أرسل لها برسالةٍ قبل زفافها بيومَيْن يرجوها فيها أن تأتي ببطاقة الهويَّة وتغادر معه (إلى آخر ما عمَّر الله)؟ ماذا لو لم تكن أمّها صانعة خبز؟ ماذا لو لم تولد على بعد شبرَيْن من الموقد المفتوح؟ هل كانت لتصبح ثمرة نارٍ وهل كان لكلِّ هذا الاحتراق أن يصيبها؟

10

ضيعة تلِّ الخروب 1960

في القرى الجبليَّة النائية، التي يسكن كلّ حكمائها في التاريخ ولا يخترق عزلتها سوى أكياس القمح المستوردة، يولد معظم الأفراد ليجدوا مصائرهم مرسومةً مسبقًا ولا تحتمل أيّ قدْرٍ من الارتجال. في السادسة صباحًا، بعد أن ذهب الفلَّاحون إلى الحقول كما سيذهب أبناؤهم بعد عشرات السنين، وبعد أن وقف الحرفيُّون خلف أدواتهم كما كان يفعل آباؤهم وأجدادهم منذ مئات السنين، أغلقت مهيبة الباب على طفلتَيْها، ثم رفعت وعاء العجين ووضعته فوق حائط الحقل لتتمكَّن من تحميله فوق كتفها. «الله بيعلم هيذي آخر مرَّة بخبز قبل ما ولِّد»، قالت المرأة الثلاثينيَّة لنفسها عندما شعرت بثقل بطنها وهي تنقل قدمَيْها بحذرٍ

فوق المنحدر الذي يوصلها إلى المرملة التي تقع على بعد 200 مترٍ من منزلها المتواضع. على الرَّغم من أنَّ الطريق إلى المرملة كانت وعرةً وشديدة الانحدار، إلَّا أنَّ التجويف الصخريّ الذي خلَّفه استخراج الرمل من تلك البقعة في الوادي ترك سقفًا يقي النساء من المطر أثناء صناعتهنَّ للخبز.

بعد أن جمعت إبر الصنوبر وأشعلت النار تحت الصاج الحديديّ الذي يستريح فوق صفٍّ من الأحجار على شكل نصف دائرة، شعرت مهيبة بمغصٍ شديدٍ أسفل بطنها. استراحت لدقيقةٍ وطمأنت نفسها أنَّها لن تلد قبل أسبوعَيْن لأنَّ طريقة الحساب التي تعلَّمتها من والدتها لم تخطئ أبدًا، ثم انصرفت لتُحضر الخشبة التي سترصف عليها كتل العجين والوسادة التي ستجلس عليها والكارة التي ستشدّ عليها الرغيف حتى يصبح رقيقًا.

نظرت مهيبة حولها وشعرت بالوحشة. غالبًا ما تكون هناك أصواتٌ تؤنسها في الوادي مثل طرقة معول فلَّاحٍ على أحجار الحقل المطمورة بالتراب أو دندنة عاملٍ يجمع الحطب من الحرش. لكنَّ الصمت التامّ الذي لا يخترقه سوى صوت قرقعة الخشب المحترق تحت الصاج جعلها تشعر بالوحدة والقليل من الخوف. مدَّت يدها إلى وعاء الطحين لتأخذ حفنةً وتنثرها فوق الطبليَّة الخشبيَّة، لكنَّها شعرت بتقلُّصٍ قويٍّ أسقطت على إثره الوعاء فوق ثوبها الأسود والوسادة التي تجلس عليها. وحين نهضت لتصلح الفوضى التي أحدثتها اندفع الجنين من تحت ثوبها، تغمَّس بالدقيق ثم تدحرج باتِّجاه نار الموقد المفتوح بألسنته البرتقاليَّة. صرخت مهيبة وانحنت لتلتقط المولود لتدرك

أنَّها فتاة. وعندما نظرت إلى وجهها المنتفخ المغطّى بالطحين رفعت سبَّابتها بحركةٍ لاإراديَّةٍ ورسمت فوقه سيفًا ونجمةً ثم طبعت رؤوس أصابعها الخمسة على وجهها وهي تتمتم بأدعية. بعدها انحنت لتلتقط قطعة القماش من فوق كتل العجين ولفَّت المولودة به. تلك المولودة كانت نبيلة.

ظلَّت نبيلة لسنواتٍ طويلةٍ تصدِّق ما قالته أمّها أنَّ ميلادها السرياليّ فوق الدقيق على بُعد قدمَيْن من النار هو ما جعلها صانعة خبز. لكنَّها أدركت فيما بعد أنَّ الإنسان لا يُقذف من بطن أمّه إلى مصيره بهذه السلبيَّة التي يصوِّرها أهالي القرى. أدركت في عِقدها السابع أنَّ المرء يخطو باتِّجاه ما سيصبح حياته مدفوعًا بالنقصان لا بالإرادة. بالعجز، لا بالقدَر. وذلك لأنَّه حين يأتي ما يريده المرء كردِّ فعلٍ على ما لا يريده، تنتفي عنه صفة الإرادة الحرَّة أو إرادة القدَر.

سلكت نبيلة إلى مصيرها طريقًا معبَّدًا بالنقصان. ربَّما بدأ استعدادها لأن تصبح صانعة خبزٍ وهي طفلةٌ تختبئ داخل وعاء العجين حين يبدأ والدها بتعنيف أمِّها وركلها، وربَّما بدأ في سنِّ التاسعة حين انتبهت أنَّها أصبحت مكرَّسةً لسلك الوادي الوعر واجتياز الجسر الذي يربط الضيعتَيْن الوحيدتَيْن في تلك البقعة البعيدة. «نبيلة قويَّة ما بخاف عليها تقطع الوادي ليل أو نهار»، كانت مهيبة تكرِّر هذه العبارة في وجود جاراتها اللاتي كنَّ يستهجنَّ إرسال فتاةٍ صغيرةٍ وحدها لعبور الوادي وشراء الأشياء من الضيعة الأخرى حيث يوجد متجرٌ وحيدٌ وطريقٌ سالكٌ لاستقدام البضائع. كان صوت أمّها يأتي مثل زمُّور الخطر «يا

نبيلة اقطعي جيبي بارد» تصيح مهيبة كلَّما أتى ضيفٌ وأرادت أن تقدِّم له مشروبًا غازيًّا. «يا نبيلة ودِّي الزوَّادي لأبوكي»، «يا نبيلة خذي هذا الغرض لفلانة». في الأشهر الأولى، كانت نبيلة تشعر بالخوف حين تترك المنزل وتبدأ بالانحدار نزولًا تجاه النهر حيث تنقطع المنازل ويصبح الوادي المظلم، بسبب كثافة الأشجار، حاضرًا بكلِّ تفاصيله في مخاوف فتاةٍ في التاسعة من عمرها. لكنَّها كانت تغنِّي لتقاوم خوفها. تبدأ بالدندنة على مدخل الوادي وتصدح بصوتها مردِّدةً أغنية فيروز كلَّما اشتدَّ الانحدار والخوف معًا.

«أنا عصفورة الشمس.. أنا وردة الحرِّيَّة

أنا وردة المسافي.. مربَّى الحفافي

مكتوبة ع دراج

مكتوبة ع جسور الميَّ»

لكنَّ نبيلة لم تعترف لأمّها بخوفها من عبور الوادي ولا أخبرتها عن المرَّات التي سمعت فيها صوت خشخشةٍ في العشب وراحت تجري حتى تتيبَّس قصبتها الهوائيَّة ولا عن المرَّات التي من شدَّة خفقان قلبها وتسارع نبضاته، شعرت أنَّ صدرها قد ينفجر. ظلَّت تغنِّي وهي تجتاز الجسر المقوّس فوق النهر ذهابًا وإيابًا راضيةً بدورها، مستخلصةً حقائقها الخاصَّة عن قيمتها لدى أمّها وعن جدوى وجودها في هذه العائلة.

لم تتوقَّف مهمَّة نبيلة على تأمين حاجيات المنزل من القرية المقابلة، بل تحوَّلت إلى ساعي بريدٍ ينقل كلامًا شفهيًّا من والدتها

إلى والدها الذي كان يعمل في أراضي الآخرين بأجرٍ بسيطٍ على بعد عدَّة كيلومتراتٍ من منزله. كانت نبيلة تساعد شقيقتَيْها نجاة وسمر في فتِّ الزعتر اليابس حين نادتها أمّها وطلبت منها أن تذهب إلى الحقل وتطلب من والدها أن يعود إلى المنزل لأنَّ أخاها جاء لزيارتهم. نظرت نبيلة إلى قرص شمس حزيران الذي يربض في قبَّة السماء وتنهَّدت ثم نهضت وبدأت بالهبوط إلى الوادي. بعد حوالي نصف الساعة وصلت إلى والدها، وبأنفاسٍ متقطِّعةٍ قالت له «قال أمِّي لترجع على البيت لأنَّ خالي إجا يزورنا». تمتم والدها بغيظ، سحب فوطته من جيب شرواله الفضفاض ومسح بها جبينه وشاربَيْه المعقوفَيْن ثم اتَّكأ على عصا مِعوله، وقال «قولي لإمِّك عندي شغل، وإنِّي مش مثل خيَّها الفاشل يلِّي عم يوزِّع زيارات بطقَّة الظهر». استدارت نبيلة وعادت إلى المنزل من غير أن تتفوَّه بكلمة. وعندما لمحتها أمّها قادمةً من بعيدٍ صاحت وهي واقفةٌ أمام الباب «لشو رجعتي بلا أبوكي؟ وينو؟ شو قلِّك؟» لكنَّ نبيلة كانت مقطوعة الأنفاس فأشارت لها بيدها أن تنتظر وألقت بجسمها الصغير فوق كومة رملٍ بجوار الدار. بعد أن هدأت أنفاسها أخبرت أمّها بما قاله والدها. فاغتاظت مهيبة وصاحت «روحي وقليلو إنُّو لحم كتافو من خير أخي، وذكِّريه إنُّو بعد ولاداتي الثلاثي شربت حليب من بقرة أخي».

كانت الشمس لا زالت متربِّعةً وسط السماء حين همَّت نبيلة بقطع الوادي للمرَّة الثالثة. أرادت أن تشرب الماء قبل أن تنطلق، لكنَّ أمَّها نهرتها «يلَّا تحرَّكي. بعدين بترتاحي». حين وصلت نبيلة

إلى النهر توقَّفت قليلًا. لاحظت أنَّها لم تعد خائفةً بقدر ما هي غاضبة، وانتبهت للمرَّة الأولى أنَّها لا تحبّ هذا الشعور. اكتشفت في هذه اللحظة أنَّ الخوف رغم قسوته يسمح لها بالغناء والركض، ولكنَّ الغضب يخرسها ويجعلها عاجزةً وثقيلة. وصلت إلى والدها وأوصلت له البرقيَّة الشفهيَّة وهي تنظر إلى الأرض محرَجةً من وقع تلك الكلمات عليه. فاستشاط والدها غضبًا وانحنى حتى أصبح قريبًا منها وراح يصرخ «قوليلها تروح معو وتظلّ تشرب من حليب بقرتو لتشبع! الله لا يردَّها».

بكت نبيلة في طريقها إلى البيت. بكت لأنَّها غاضبةٌ ولأنَّ أمَّها قد ترحل مع خالها وقد يصبح لها زوجة أبٍ كتلك التي في حكايات أمِّها وجدَّتها. زوجة أبٍ شرِّيرةٌ تطبخ أولاد زوجها وتقدِّمهم له على العشاء من غير أن يعلم أنَّه يأكل أطفاله. وقد تصبح مثل أخيها ذوقان الذي ماتت أمّه ورحل بعدها إلى الأرجنتين ليعيش بعيدًا عن قريته وأهله. بكت لأنَّها متعبةٌ ولأنَّها لا تعرف بما يحقّ لها أن تشعر. هل تغضب من أمّها المقهورة الكادحة؟ هل من حقِّها أن تغضب من والدها الذي يعمل بالأجرة كي يطعم عائلته؟ مسحت دموعها وأنَّبت نفسها على هذا الفعل الأنانيّ.

عندما بلغت المنزل كانت أمّها مشغولةً بإطعام خالها، فاحتفظت نبيلة لنفسها بالجملة الأخيرة وشكرت الله فيما بعد أنَّها لم توصل الرسالة. في المساء، عندما عاد والدها من العمل اغتسل وسحب علبة قصديرٍ مدوَّرةٍ من درجه القديم وأخرج منها صمغ الشجر ليعقف شاربه. لم يفتح أحدٌ الموضوع، ولم يتحقَّق

أيٌّ من سيناريوهات الرعب التي كانت تدور في رأس نبيلة. كلّ ما في الأمر أنَّ أباها خرج من غير أن يعطي زوجته الحقنة التي تساعدها على تحمُّل آلام الظهر.

«الله يأخذ حقِّي منك يا بو ذوقان»، صاحت مهيبة وهي تتلوَّى من الألم ثم قالت لابنتها «إنتي قلبك قوي يا نبيلة عمليلي إنتي الحقنة». تلعثمت نبيلة «بخاف آذيكي أو أوجعك يا أمِّي» تلك كانت أقصى محاولات الرفض لديها. لكن والدتها أصرَّت وشرحت لها كيف تقيس مسافة فترٍ من الورك إلى المؤخّرة وتضرب الحقنة في البقعة التي تحت إصبعها. لم تكن نبيلة تعلم أنَّ إتمامها العمليَّة في ثوانٍ معدودةٍ من غير أن تشعر والدتها بأيِّ ألم سيحوِّلها إلى ممرِّضةٍ صغيرةٍ تجوب الضيعتَيْن مشيًا على الأقدام لتعطي الحقن للنساء على نيَّة الخير من دون أجر.

باستسلام الطحين الناشف لأصابع العجَّان، ارتسمت الخطوط الأولى في شخصيَّة نبيلة. وتكفَّلت الحياة بتزويد طحينها بالماء لتكتمل معالم تلك الشخصيَّة ويساهم كلّ حدثٍ في تشكيلها.

11

تلّ الخروب 1970

الماء عند نبيلة كان يعني النبع حيث تذهب هي وأخواتها لملء الجِرار والتحدُّث مع صبايا القرية، وكان يعني النهر حيث تقف مطوَّلًا تتأمَّل انعكاس الأشجار فوق المياه الجارية. المياه التي تتسرَّب من أسفل برك الريّ لتجري في أخاديد الحقل وتروي الأشجار والزرع. لكن في الخامس عشر من آذار انفجر العديد من الينابيع المسقوفة منها والمكشوفة، وجلبت معها سيلًا من الصخور التي مسحت كلّ القنوات واجتاحت أقبية البيوت وأغرقت المؤن وأكياس الطحين.

لم ترافق الماء هذه المرَّة حالةُ التأمُّل والسكينة، بل جاء معه الخوف والحديث عن غضب الله وضرورة تجنُّب المعاصي

وإعطاء الدين مساحةً أكبر من الحياة اليوميَّة. فأصبحت النساء أكثر تشدُّدًا مع بناتهنَّ بشأن اللباس والزينة وكشف الشعر. قبل الطوفان لم تكن مهيبة تعارض حين ينزلق المنديل من على رأس نبيلة أو إحدى أخواتها وهنَّ يعملن في الدار، ولكن بعد الطوفان تغيَّر كلّ شيء. أصبحت كلّ خصلة شعرٍ مكشوفةٍ خطرًا محدقًا وكلّ ما يظهر من جسم الفتاة مدعاةً للتأنيب والتذكير بغضب الإلٰه وما قد يرسله من عقابٍ لمرتكبي تلك الآثام. «شوفي طريقة تثبِّتي فيها المنديل، إذا بعد شفت شعرك رح دقلّك دور مسامير على جبينك ليثبت على راسك»، كانت مهيبة تصيح في وجه نبيلة كلَّما انزلق المنديل من على شعرها الناعم واستقرَّ على رقبتها.

في مساء اليوم التالي حين اجتمع الرجال في دار أبي ذوقان لإحصاء الخسائر ومناقشة كيفيَّة إعادة إعمار ما تهدَّم من الجدران في الحقول والمنازل، قام أحد الرجال بذكر كلّ البيوت المهدَّمة ما عدا المدرسة. المدرسة، التي تقع مقابل بيت نبيلة فوق النهر، والتي كانت تتألَّف من خمس غرفٍ لأنَّها تتوقَّف عند الصفِّ الخامس، اقتلعها النهر بفعل الفيضان، جرف جدرانها، ولم يتبقَّ منها سوى نصف غرفة. تردَّدت نبيلة لأيَّامٍ قبل أن تتجرَّأ على طرح السؤال على والدها، فهي غير معتادةٍ على التحدُّث معه أو النظر إلى عينَيْه بشكلٍ مباشر. «أيمتى رح تبنوا المدرسة يا بيّي؟» سألت نبيلة وهي تنظر إلى الأرض وتضغط بنعلها القديم على حبَّة بحص».

«أنت بأيِّ صفّ؟» سألها وكأنَّه يراها للمرَّة الأولى.

«في الصفّ الرابع»، أجابت من غير أن تنظر إلى وجهه.

«بتعرفي تقرأي وتكتبي؟» سألها وهو يمضغ قطعة خبزٍ ناشفة.

«بعرف»، أجابت باقتضاب.

«قدّامك سنة واحدة لتحصلي شهادة السرتيفيكا، وهذا مش رح يقدِّم ولا يأخِّر بحياتك». رفع إبريق الفخّار إلى أعلى وصبَّ الماء في فمه المفتوح، ثمّ مسحه بظهر كفِّه وأكمل «نحنا مش رح نعمِّر المدرسة. في أهمّ منها. خلّي الوزارة تعمِّرها».

كانت المدرسة مساحة الفرح الوحيدة في حياة نبيلة. أستاذ كامل الذي يجلب في طيَّات شخصيَّته وجيوب هندامه إلى القرية جزءًا من العالم المحجوب، كان ألطف رجلٍ عرفته في حياتها. لم يكن أستاذ كامل شيخًا كباقي رجال الضيعة ولم يكن حليق الرأس ولا له شوارب كثَّة. بل كان يرتدي قميصًا وبنطالًا عصريَّيْن، يسرِّح شعره من اليمين إلى اليسار ويستخدم كلماتٍ مهذَّبةً مثل «إذا بتسمحي آنسة نبيلة» أو «تفضَّلي بالقراءة يا ابنتي». وبعد أن تجيب على جميع أسئلته، كانت تنتظر جملة الـ «عفاكي يا شاطرة» التي تمدُّها بشحنة فرحٍ لا يضاهيها شيء، فتبقى مستلقيةً على غيمة المديح حتى تعود إلى المنزل لتهبط عنها وترتطم بأرضيَّة الأوامر والكلام الفظّ.

ولكن غضب الله ابتلع مساحة الفرح تلك. ولم يعد هناك مدرسةٌ ليأتي إليها أستاذ كامل ويمزج خلطة الكلمات تلك التي تخلق نسخةً أخرى من نبيلة، نسخةً يُصغى ويُنظر إليها وتُعامَل

بها باحترام. سوف تمرّ عدَّة سنواتٍ قبل أن تعرف نبيلة أنَّها مرتبطةٌ بالكلمات ارتباط الأشرعة بالرياح، وأنَّ الكلام الذي يوجَّه إليها يضع بيوضه في أذنَيْها ليتكاثر مع الظروف الملائمة.

الحدث الأسعد في حياتها أتاها عن طريق المدرسة أيضًا يوم نظَّم أستاذ كامل رحلةً إلى محميَّة أرز المعاصر ودار على منازل القرية بنفسه ليحصل على موافقة أولياء الأمور. كان الرفض هو الردّ البديهيّ لمعظم الأهالي لولا أنَّ أستاذ كامل تدارك الأمر وشمل زيارة مقام مولانا بهاء الدين في برنامج الرحلة ليقنعهم بأنَّ قبولهم سيكون مأجورًا. وهكذا خرجت نبيلة من القرية للمرَّة الأولى برفقة أختها سمر لأنَّ نجاة، التي كانت في الرابعة عشرة، أصبحت بحسب كلام والدها كبيرةً على هذه الولدنات وعليها مساعدة أمّها في الطبخ وصناعة الخبز. حين انطلقت البوسطة التي كانت الأولى من نوعها في الجبل، والتي استُقدمت من إحدى الضيع الكبيرة لهذه الرحلة، اجتاحت نبيلة موجةُ فرحٍ عارمةٌ غمرت صدرها بالسعادة، لكنَّها سرعان ما تحوَّلت إلى بكاء. «شو بكي؟» اختلط صوت سمر بزعيق الأطفال والضوضاء التي يخلِّفها محرِّك البوسطة. «عم إبكي لأنّ نجاة مش معنا»، قالت نبيلة ومسحت عينَيْها بكمِّها.

عاشت تلك الرحلة في رأس نبيلة بتفاصيلها لسنوات. عاشت لأنَّها فعلت كما يفعل أهل القرى ببذور الفواكه بعد أكلها، واحتفظت ببذور فرح تلك الرحلة لتغرسها في رأس أختها نجاة. في المساء، جلست أمام أختها، وكمن يتوق ليتخلَّص من حمولةٍ ثقيلةٍ أخبرت نجاة بكلِّ شيء. أخبرتها كيف يتغيَّر لون الجبل مع

الصعود وكيف يصبح الهواء منعشًا في الأعالي، وكيف في فيء الأرز وجدوا رجلًا يجلس مع عودِه ويغنّي رفقة عازفين آخرين:

«عاللومة اللومة اللومة

دخل الله ودخل عيونك

يا حلوة ويا مهضومة»

وحين اقتربت منه نبيلة وقالت له إنَّ صوته يشبه صوت وديع الصافي الذي تسمعه في الراديو، ضحك الرجل وعازفوه، وقال لها إنَّه وديع الصافي بالفعل وقدَّم لها حبَّة ملبَّس. على حفافي عين الضيعة والصبايا ينتظرن جرارهنَّ لتمتلئ، أخبرت نبيلة أختها نجاة قصَّة وديع الصافي عشرات المرَّات، حتى صدَّقت نجاة أنَّها كانت هناك بنفسها ورأت وديع الصافي بأمِّ عينها وتمايلت على أنغام عوده وأخذت منه حبَّة ملبَّس. ومع قدوم كلِّ صبيَّةٍ زائرةٍ كانت نجاة تخترع تفاصيل جديدةً حول ذلك الحفل المجَّانيّ، فتزيد فرقة دبكةٍ وطبَّالًا حين يحلو لها وتصدح بصوتها وهي تقلِّد أداءه والفتيات يصغين باهتمام. أصغت نبيلة مع الفتيات بحماسٍ إلى مغامرة أختها التي لم تحدث ولم تكذِّبها ولا مرَّة.

قبل أن يُتَرجَم غضبُ الله إلى ماءٍ كان اسمه الفقر. والفقر خللٌ مثل الحَوَل في العَيْن، يصعب عدم ملاحظته. تعامَل أهل القرية مع الفقر على أنَّه عورةٌ يجب سترها. فأخفوه خلف ستائر فُصِّلت لتقسيم البيوت المؤلَّفة من غرفةٍ واحدةٍ إلى نصفَيْن. قسمٌ لليل وقسمٌ للنهار، قسمٌ للجوع وقسمٌ لنصف الشبع، قسمٌ يُهان

فيه الأبناء ويُضربون، وقسمٌ يلبسون فيه الأطقم الجديدة ويصطفُّون بأدبٍ لمقابلة الضيوف. والفقر مثل حائطٍ مائل، كلَّما حاول الإنسان سنده بيدَيْه أصبح أكثر ثقلًا. بين نصفي الغرفة، وتحت حائط الفقر المائل، ربَّت مهيبة بناتها الثلاثة وابنًا «لِقِّيسًا» جاء متأخِّرًا عن أخواته بأحد عشر عامًا. والثمرةُ اللقيسُ تُبهج المُزارع لأنَّها تُطرح بفضل خللٍ ما بعد أن ينتهي الموسم بفترةٍ طويلة، لكنَّها تبقى غريبةَ النكهة قليلةَ الدسم وطعمها أقرب إلى الماء منه إلى الثمر. هذا كان حال إبراهيم الأخ الصغير لنبيلة.

استنتجت نبيلة منذ البداية أنَّه مع وصول إبراهيم تراجعت هي وأخواتها إلى المقاعد الخلفيَّة في العائلة. شعرت أنَّ أخاها بذرة شجرةٍ برِّيَّةٍ جرفتها الريح لتنغرس وسط غرفتهم الصغيرة وتُحيلها وأختَيْها إلى أعشابٍ جانبيَّةٍ لا قيمة لها. تكريسهنَّ لحمله وتسليته والهدهدة له حتى يغفو، رَفْض أمّها لعرسان نجاة وتحويلها إلى مربِّيةٍ له، كلّها كانت إشاراتٌ التقطتها نبيلة مبكرًا.

عيد الأضحى كان المناسبة الوحيدة في السنة التي تمنح كلّ فردٍ من العائلة حقَّه بأن يكون فردًا، حيث يرسم أبو ذوقان فوق الكرتون المقوَّى خطوطًا حول أقدام بناته ليأتي لهنَّ بأحذيةٍ قبل العيد بيومَيْن، ويجلب معه ثلاثة ألواحٍ من شوكولاته «توتي فروتي» ذات المكعَّبات الخمسة المحشوَّة بنكهاتٍ وألوانٍ مختلفة. لطالما أخذت تلك النكهات نبيلة إلى عوالم لم ترها. إلى جزرٍ بعيدةٍ ينمو فوقها شجر الأناناس، وسهولٍ مزروعةٍ بالفراولة الحمراء اللذيذة. كانت شقيقتاها سمر ونجاة تنقضَّان على إصبع الشوكولاته كلّه حالما يخرجه والدهم من جيب سرواله الفضفاض

وتشربان بعده الماء مثل نوقٍ عطِشة، أمَّا نبيلة فكانت تقسمه إلى خمس قطعٍ لتستمتع به خمسة أيَّام، كلّ يوم قطعة. كلّ يوم نكهة. لكن في هذا العيد لم يصلها إصبع الشوكولاته لأنَّ والدها لم يحسب حساب إبراهيم الذي لم يكمل عامه الأوَّل، ولأنَّ أمَّها قرَّرت أن تُعطي حصَّة نبيلة لأخيها. قبل أن تعرف نبيلة بالأمر، كان لها محاولاتها للفت نظر والدَيْها إلى أنَّ حصَّتها لم تصلها. فراحت تتنحنح كلّ خمس دقائق، ولمَّا لم تُجدِ النحنحة نفعًا بدأت تفتعل السعال. سعلةٌ كلّ عشر دقائق ثم كلّ خمس، ثم كلّ دقيقة. لكن وسط بكاء أخيها وفرحة أختَيْها بالعيديَّة لم ينتبه لها أحد سوى والدها. «مش أوانك تمرضي وتبلينا عالعيد، خذي ادهني صدرك بأبو فأس وبكرا بتشربي طيُّون مقطَّر»، قال وهو يناولها القمقم ذا رائحة المنثول النفَّاذة. أخذت القمقم من يده، وبقرار مدفوعٍ بالقرف من طعم الطيُّون المرّ، قرَّرت أن تتنازل عن المطالبة بحقِّها في إصبع الشوكولاته وتوقَّفت عن السعال.

منذ سنٍّ مبكرةٍ أصبحت نبيلةٌ ضليعةً في قوانين الفقر فأدركت أنَّ البقلاوة للآخرين ولهم ما عَلق في كعب الصدر وجُمع في تنكة القحاطة. الذبائحُ واللحومُ للآخرين، ولهم قطرميز القاورما. الثياب والفساتين الجاهزة للأخريات، ولها ولأخواتها قماشٌ بالذراع تشتريه أمَّهُنَّ من البائع المتجوِّل وتفصِّله على مقاس نحافتهنَّ. كانت سعيدةً بال «توتي فروتي» حتى أخذه منها إبراهيم. لقد أخذ منها جُزرًا بعيدةً لا يعرف عنها شيئًا.

هكذا، من دون تذمُّرٍ أو استنكار، توصَّلت نبيلة إلى استنتاجاتٍ بشأن حياتها. وما الحياة سوى الاستنتاجات التي

يعتصرها الإنسان منها، وما أماني البشر سوى أن يصبحوا مثل ذلك الآخر الذي ينعم بحياةٍ أفضل. والآخر هدفٌ ومصيدة. غموضه شرارة فضولٍ في ألفة أفكارنا، والاستنتاجات التي ننسجها من ذلك الفضول قد تصبح حبلًا نتسلَّقه خارجين من بئر واقعنا أو شبكةً تكبِّلنا وتعيق عودتنا إلى براءة ما قبل الحلم.

مكتبة
t.me/soramnqraa

12

قرية عينصورة 2022

لم تغادر نبيلة منزل أمّ مكرم قبل أن تنتهي من غسل آخر طبقٍ في الحوض. كانت تجلي وتفكّر، وقبل أن تنتهي بقليلٍ أتت إحداهنَّ ووضعت كومةً جديدةً من الأطباق المتَّسخة واستحلفتها أن تتوقَّف عن غسل الصحون لتتولَّى هي المهمَّة. كثرت محاولات النسوة لإقناعها بترك الجلي لسواها والانضمام إلى بقيَّة المعزِّيات والأقارب في صالة الاستقبال، لكن نبيلة تفضِّل العمل على الخوض في المحادثات التي تبدأ بالسؤال عن كلِّ الغائبين فردًا فردًا وتنتهي بالسؤال عن الصحَّة ومواسم الزرع. «أهون عليَّ إفلح ليل نهار ولا إتحدَّث أحاديث بلا طعمة»، كانت تقول لابنتها أمل حين تتذمَّر من انشغال أمِّها الدائم وتجنُّبها للراحة والرفاهية.

تقول نبيلة إنَّ العمل «يجوهر الجسم»، ومع أنَّ أهل القرية كانوا يقولون إنَّ العمل «يطرد الشيطان»، يقصدون بذلك الأفكار السوداويَّة والأسئلة التي تؤرق الإنسان، إلَّا أنَّ انشغال نبيلة بالعمل لم يطرد شياطينها، فمعظم الأفكار التي غيَّرت حياتها ومعتقداتها كانت تنتابها وهي تخبز أو أثناء غسل الصحون وهي تتأمَّل شجرة التوت من النافذة التي تقع فوق الحوض.

حين عادت إلى المنزل لم يكن عليٌّ قد نام بعد. أنزل الهاتف من يده حين دخلت. «الله يجزيكي الخير» قال متمنِّيًا أن يعوِّضها الله خيرًا عن تعبها. «أقلّ واجب»، قالت وهي تجلس على الكنبة المقابلة له.

«كم رحمة رحموه؟» سألت نبيلة مستوضحةً عن عدد الرحمات التي نالها أبو مكرمٍ من المشايخ خلال الصلاة على جثمانه قبل الدفن.

«بعتقد رحمة واحدة، أو يمكن اتنين. كنت بعيد وقت الصلاة» أجاب.

«أبو مكرم بيستاهل أكتر من هيك»، قالت نبيلة مستنكرة.

«الشيخ ريدان أدرى بأحكام الدين»، قال عليٌّ محاولًا أن يُنهي النقاش.

«الزلمة كلّ عمره تعبان على لقمة الحلال، وكان آدمي وكريم وما بيعرف النميمة»، قالت نبيلة موضِّحةً استنكارها.

«هَي الأمور ما بتمشي بالرأي والقياس وإلَّا كان كلّ شخص رحم أهل بيته خمس رحمات» قال عليٌّ بشيءٍ من نفاذ الصبر.

«خلّيني ذكّرك إنّه أبو كميل لأنّه من قرايب الشيخ ريدان رحموه ثلاث رحمات وكان آكل رزق القطايع وعليه دين» فكّت نبيلة ستحتها وأرجعت طرف المنديل إلى الوراء، ثم قالت «يا ربّ تسامحني ما بدّي إحكي عن الأموات بسّ انجبرت».

«إسّا بدها تصير بيني وبينك الشغلة؟! شو إلي علاقة أنا. سألتيني وخبّرتك»، قال عليٌّ وقد ضاق ذرعًا بمناكفتها.

«بعد في كثير، بدّك نحكي عن رحمات الشيخ هادي؟»، قالت مستفزّة وكانت ترمي إلى الشيخ الإقطاعيّ الذي خرق الكثير من قواعد الدين في تعامله مع المصارف وتورُّطه بمناقصات غير قانونيّة ومع ذلك، وبسبب تبرُّعاته الكريمة لترميم المقامات، نزلت عليه الرحمات بعد موته من كلِّ حدبٍ وصوب.

لطالما كان لنبيلة آراؤها الخاصّة حول معظم العادات والتقاليد. ولكنّ موضوع عدد الرحمات التي ينالها الإنسان بعد وفاته أصبح يؤرقها منذ أن توفّيت سمر. يعمل القرويّ لآخرته، لكنَّ آخرته لا تعني فقط يوم الحساب أو حين يقابل ربّه، بل تعني في المقام الأوّل يوم وفاته وتأبينه. انتبهت نبيلة إلى هذه الحقيقة المُرَّة عندما صارت أمُّها تتحدَّث عن يوم موتها بحماسٍ غريب، وكلَّما زارها أحفادها تستحلفهم أن يقوموا بتوزيع مكاتيب النعوة على القرى حتى يأتي المعزُّون بأكبر عددٍ ممكن، وتؤكّد لهم أنَّها ادَّخرت ما يكفي من المال لشراء النعش ووضع «حسنة» في كلِّ ظرفٍ من ظروف النعوة.

«صمَّدْت مصاري بتكفي خمسة وأربعين ضيعة. مش مطلوب منكم غير توزّعوهم بعربيَّاتكم»، تقول أمّها كلَّما زارها أحدهم

وكأنَّ الأحاديث انتهت وصار الموت وعدد الرحمات وعدد القرى التي سيتمّ إرسال مكاتيب النعوة إلى قاطنيها هو شغلها الشاغل.

وتعمَّق شعور نبيلة بالعبثيَّة حين زارت والدتها هي وابنتها أمل بعد الأزمة الماليَّة التي ألمَّت بلبنان سنة 2021. وقبل أن تدخلا إلى المنزل كلَّمتهما أختها نجاة على انفراد ـ كما تفعل مع كافَّة الزوَّار ـ وبصوتٍ منخفضٍ حذَّرتهما من إطلاع مهيبة التسعينيَّة على الأحداث الأخيرة المتعلِّقة بانهيار العملة. لم يمضِ ربع ساعةٍ على الزيارة حتى تبيَّنت حكمة نجاة، رفعت أمّ إبراهيم أصابعها الثلاثة التي أصبحت جلدًا على عظمٍ وقالت «معي ثلاثمية ألف ليرة حقّ التابوت. الحمد لله مشّ رح إحتاج حدن» وهكذا حرصت نجاة على ألَّا تعرف والدتها أبدًا أنَّ الثلاثمئة ألف، التي كانت تعادل مئتي دولارٍ أميركيٍّ منذ بضعة أشهر، أصبحت قيمتها ثلاثة دولاراتٍ فقط ولا تشتري سوى ساندويشة شاورما.

المستفيد الوحيد من هذا الانهيار كان أخوها إبراهيم الذي انتهى به الحال في العلِّيَّة، في الغرفة التي بنوها على السطح خصِّيصًا له بعد محاولات هروبه التي لا تُحصى، والتي انتهت جميعها بإعادته إلى المنزل مقيَّدًا من قبل أحد رجال القرية. ظلَّ يصرخ لأسابيع بعد أن وضعوه في العلِّيَّة وأقفلوا عليه الباب، لكنَّه وجد خلاصه في دلو ماءٍ باردٍ ومنشفة. راح يبلّ المنشفة بالماء ثم يعصرها ويضعها فوق رأسه ويردِّد «هيك منيح، هيك صرت منيح»، والكلمة الأخرى التي كان يردِّدها هي «ألف». يجلس أمام الشبَّاك المطلّ على فناء بيتهم وفي كلِّ مرَّةٍ يلمح فيها أحد الزوَّار داخلًا يمدّ ذراعه ويرفع سبَّابته ويقول «ألف، ألف» قاصدًا

بذلك أنَّه يريد ألف ليرةٍ لبنانيَّة. بعد أن كانت الألف ليرةٍ تساوي 80 سنتًا أصبحت تساوي سنتًا واحدًا وصارت نبيلة تجمع الألوف الورقيَّة وتأتي بها إلى إبراهيم في العلِّيَّة (شميلات) من أجل أن تجبر خاطره، فيبتسم والمنشفة على رأسه مظهرًا لها ما تبقَّى من أسنانه.

هكذا خسر معظم القرويِّين جنى عمرهم بفرق العملة، ولم يتبقَّ في رصيدهم سوى عدد الرحمات الذي لا يخضع لعبثيَّة المصارف وسعر الصرف العالميّ، بل لعبثيَّةٍ أخرى تتمثَّل في سلطة الرحمة التي يحتكرها رجال الدين. تذكَّرت نبيلة الشيخ أبو طاهرٍ وقوله المأثور «إنَّ رحمة الله واسعةٌ ولا تقاس بالأرقام». تذكَّرت أنَّه امتنع عن الصلاة على الجثامين لأنَّ تواضعه لا يسمح له بتحديد عدد الرحمات التي تستحقها أيّ روحٍ على وجه هذه الأرض وليس فقط في القرية أو في الطائفة. «النفس البشريَّة مليئةٌ بالأسرار وعلمها عند خالقها»، كان يردِّد دائمًا كي ينأى بنفسه عن تلك المحاكم.

«بدّك تشرب متِّي؟» سألت نبيلة زوجها وهي واقفةٌ عند الباب محاولةً تلطيف الأجواء بينها وبين عليّ.

«لا الوقت تأخَّر. ما بعود أقدر نام» قال معتذرًا.

«طيِّب، أنا رايحة إتسطَّح. تصبح على خير» قالت نبيلة وانصرفت إلى غرفتها.

تقلَّبت كثيرًا قبل أن تفقس تلك الفكرة في رأسها. هشَّتها كما يهشّ النائم ذبابةً حطَّت على أنفه. لكنَّ الفكرة لم تتركها في سلامٍ

بل ظلَّت تحوم داخل رأسها حتى استقامت في جلستها وحملت هاتفها:

«مسا الخير يا شيخنا. هناك فنَّان اسمه مكرم من بلدة عينصورة وأنت أخبرتني أنَّك أيضًا من عينصورة. هل تعرفه؟» كتبت عاشقة الظلّ.

سمعت نبيلة رنين صوت هاتف عليٍّ من الغرفة الأخرى ينبِّهه إلى وصول رسالةٍ عبر ماسنجر. انتظرت بضع دقائق قبل أن يصلها الجواب.

«مساء الخيرات. كيف الحال؟ أتمنَّى أن تكوني والعائلة بخير... نعم أعرف مكرم، لكنَّه ترك القرية منذ عدَّة سنوات وسمعت من ابنتي أمل أنَّه يرسم. اليوم كان مأتم أبوه العواض بسلامتك».

«وأنتم سالمون. أعمال هذا الفنَّان مدهشة. بلِّغه مواساتي حين تراه»، كتبت عاشقة الظلّ محاولةً جرّ عليٍّ للحديث عن مكرمٍ وأزمته.

«لم يأتِ مكرم إلى المأتم. ما زال مسافرًا».

«غريب جدًّا! دائمًا ما يحرص الغائبون على الحضور في تلك الظروف» حاولت أن تستدرجه أكثر.

«للحقيقة مكرم أقحم نفسه في موقف مليء بالشبهات. وهذا الأمر أثَّر على صحَّة والده وقد يكون السبب في مرضه ووفاته» كتب عليٌّ لعاشقة الظلّ.

«أخيرًا بَقِّيت البحصة؟» غمغمت نبيلة في عتمة غرفتها

وفكَّرت مليًّا قبل أن تردَّ على عليّ.

«نعم سمعت بأمر الڤيديو بحكم انتشاره على مواقع التواصل الاجتماعيّ. أنا أحترمك جدًّا يا شيخنا وأعرف أنَّك أكبر منِّي وربَّما أكثر حكمة، ولكن هل تظنُّ أنَّ الشبهة كافية كي نحكم على شخص ما وأن نتَّهم شابًّا بأنَّه السبب في موت والده؟» كتبت عاشقة الظلّ.

لاحظت نبيلة بعد إرسال الرسالة أنَّها تقمَّصت دور ابنتها أمل وأساليبها في الدفاع عن أفكارها وقيمها. دار هذا الحديث بينها وبين أمل منذ مدَّةٍ ليست ببعيدة، لكن نبيلة كانت حينها في موضع عليّ. تساءلت ما إذا كانت أفكار أمل تؤثِّر عليها وتقنعها أم أنَّ مآخذها على أفكار عليٍّ هي التي تدفعها لمناكفته في أيّ مناسبة.

تأخَّر الردّ... ورأت أنَّ عليًّا يكتب ويحذف، فتأفَّفت من بطئه في الكتابة ومن انتظارها له، لكنَّ الرسالة وصلت أخيرًا.

«من واجب الإنسان أن ينأى بنفسه عن الشبهات خاصَّةً حين يكون أهله ملتزمين بالدين. وكلُّنا نعرف أنَّ مرض السكَّري يتأثَّر بالضغط النفسيّ والهمّ. كما أنَّ حضرتك شيخة وتعرفين أنَّ العمل بالرأي والقياس خطأ».

لم تفهم نبيلة ما الذي استدعى ذكر الرأي والقياس هنا. فهي سألت سؤالًا مشروعًا عن الشبهة، لكنَّها أدركت أيضًا أنَّ النهي عن إبداء الرأي والقياس هو المتراس الذي يحتمي خلفه عليٌّ من سهام الأسئلة التي لا يعرف إجابتها أو تلك التي تضعه في موقفٍ حرِج.

أرادت أن تكمل حديثها معه، لكنَّ رسالةً أخرى من أمل وصلت على تطبيق الواتس آب. «إمِّي بعدك سهرانة؟ خبريني عن خالي ذوقان. خلِّينا نحكي اتِّصال!».

«خير إن شاء الله شو خطر لها تسأل عن ذوقان الساعة 11 بالليل؟»، كلَّمت نبيلة نفسها وهي تمدّ يدها لتنير المصباح الصغير جانب سريرها. لم يرِد ذكر أخيها ذوقان في المنزل منذ سنواتٍ طويلةٍ لذلك لا تعرف بناتها أيَّة تفاصيل عنه وعن غيابه. لكن أمل «حشُّورة» كما يصفها والدها حين تكثر من الأسئلة ويعتريها فضولٌ قويٌّ حيال المواضيع والأسماء التي تسبِّب توتُّرًا بين والدَيْها وتجعل أجواء الغرفة مثقلةً بالصمت. كانت أمل لا تزال في الثالثة عشرة من عمرها عندما نهر عليٌّ نبيلة وهي تتحدَّث إلى زوجةٍ زبونةٍ قائلة.

«أخي رجل أعمال مهمّ، هو المسؤول عن تصدير المتَّة من الأرجنتين للموزِّعين في لبنان».

«ما عندك أخ بهذا الإسم» قال عليٌّ باقتضابٍ من غير أن يراعي مشاعرها أمام تلك المرأة الغريبة. ولكن أمل التي التقطت المشهد شعرت بغصَّةٍ كبيرةٍ وحاولت أن تعرف المزيد من أمّها عن ذلك الخال المنبوذ. فانهالت على نبيلة بوابلٍ من الأسئلة «شو عمل ذوقان؟ ليش ممنوع تحكي عنه؟ ليه بتسمحي لأبي يحكيكي بهالطريقة؟» اكتفت نبيلة وقتها بأن تعترف لأمل أنَّ ذوقان خرج عن الأعراف وتزوَّج امرأةً غير

درزيَّةٍ في الأرجنتين. لكن قصَّة ذوقان كانت أكثر تشعُّبًا وكان أثرها لا يزال حيًّا في وجدان نبيلة. ظلَّ السؤال عمَّا كان سيحدث لو تقبَّل أهل القرية هديَّة ذوقان، يؤرقها إلى يومها هذا.

رأت نبيلة أخاها ذوقان للمرَّة الأولى وهي في السابعة. عاد وقتها من سفره لأوَّل مرَّةٍ وطاف على بيوت الأقارب في القرية. كان في بداية العشرينيَّات، شابٌّ نحيلٌ ذو شاربٍ رفيعٍ يتأتئ حين يتكلَّم ويتجنَّب النظر مباشرةً في عيني من يحدِّثه.

على الرَّغم من جزع أمّها من اسمه ومن وجوده ككلّ، كانت تختلج نبيلة مشاعر طيِّبة حين يُذكر اسم ذوقان. لقد قرأ معها درس اللغة العربيَّة عندما كانت في الثاني ابتدائيّ وتعمَّد أن ينطق الكلمات خطأً كي تضحك وتصحِّح له نطقه، كما ناولها كيسًا من السكاكر المغلَّفة بالسيلوفان الملوَّن وعلَّمها أن تحتفظ بالأغلفة بعد أكل حبَّة الملبس، وتنظر من خلال الورقة لترى العالم باللون الذي تختاره. اللطف والقلق والتلعثم هي صفاتٌ ظلَّت مقترنةً باسم ذوقان في وجدانها.

عانى ذوقان الأمرَّيْن بعد موت والدته بالسلّ وهو طفل. كانت قد أمضت أكثر من سنةٍ في مستشفى الأرمن التي أنشأوها في الأعالي لاستغلال هواء الصنوبر في مساعدة المرضى على الشفاء. لكن أمّ ذوقان التي كانت ترسل كلّ الهدايا التي يأتي بها الزوَّار إلى المستشفى لابنها ذوقان، لم تنج من السلّ وأعادوها

إلى القرية في نعش. استدعى رجال الحارة ذوقان الذي كان في التاسعة من عمره ونهوه عن البكاء «أوعك تبكي مثل النسوان»، صاح أحدهم. «رح تهتزّ هيبتك كلّ عمرك وما رح تلاقي ولا مرا ترضى تتزوَّجك»، أكَّد آخر وهو يربِّت على كتفه بقوَّة. أثناء مراسم التأبين وقف ذوقان إلى جانب والده معطِّلًا بكاءه بالعضِّ على لسانه حتى امتلأ فمه بالدم. لا أحد يذكر ما إذا كان يتأتئ قبل ذلك ولا كيف عاش في منزل جدَّته المسنَّة قبل أن يسافر مع خاله إلى الأرجنتين ويبدأ هناك حياةً أخرى لا يعرف عنها أحدٌ شيئًا.

غاب ذوقان... لم يبق منه بعد تلك الزيارة الأولى سوى خناقات مهيبة وأبي ذوقان. كانت مهيبة تنفر من ذوقان لأنَّه يذكِّرها بحياة زوجها مع امرأةٍ قبلها. لطالما تعجَّبت نبيلة من كره أمِّها لامرأةٍ ميِّتةٍ منذ أكثر من عشرين عامًا، وتساءلت عمَّا إذا كانت تكرهها لأنَّها وصلت إلى قلب أبي ذوقان، الأمر الذي عجزت هي عنه؟ أم لأنَّها استطاعت أن ترحل عن مكانٍ تحلم جميع نسائه بالرحيل عنه... لأنَّها خرجت من هذه الحياة القاسية التي لا تجرؤ مهيبة على التفكير في تغيير بندٍ واحدٍ من بنودها؟

في زيارته الثانية من الأرجنتين عام 1975، سبق التوتُّر ذوقان إلى بيت أبيه، تمامًا كما سبقت الإشاعات والأقاويل وصوله إلى البلدة. أرادت مهيبة زوجة أبيه أن تبدو وأولادها بأفضل حالٍ في حضوره، وقرَّرت أن تذبح دجاجتَيْن بدل الواحدة وأن تكثر من وضع حبوب الصنوبر على الأرز كي يقول ذوقان إنَّ زوجة أبيه تُحسن معاملة والده. كما أنَّها ستفصِّل لإبراهيم سروالًا

جديدًا لأنَّ سرواله أصبح قصيرًا وبالكاد يغطّي كاحلَيْه ممَّا قد يضفي المزيد من البلاهة على فراغ نظراته وارتخاء حنكه.

ربَّما كان التوتُّر البادي بوضوحٍ على ملامح مهيبة في ذلك النهار يعود إلى حالة إبراهيم الذي دخل عامه الخامس ولم ينطق بكلمةٍ بعد. الكلّ كان يعلم أنَّه ليس كبقيَّة الأطفال، لكنَّ أحدًا لم يجرؤ على ذكر الأمر. وحده إبراهيم ساعد مهيبة على تخطّي عقدة أمّ ذوقان وساواها بالمرحومة التي أنجبت لأبي ذوقان ذكرًا قبلها. لكن من ينظر إلى إبراهيم يعلم أنَّه تبرَّأ من هذا الدور وراح يحدِّق إلى ما وراء الآن وهنا، إلى عالم لا يراه أحدٌ سواه. فيضحك أحيانًا حتى تنزل دموعه، وأحيانًا أخرى يغضب ويبدأ برمي الأشياء وإصدار صرخات ذعرٍ لا يستطيع أحدٌ فهم أسبابها. خيَّب إبراهيم مهيبة بقدر ما خابت بإنجاب بناتها الثلاث.

قبل يومٍ من الزيارة، كان الجدل قائمًا في المنزل والأصوات مرتفعة: «لشو بدنا نعزم كلّ العيلة على الأكل؟ ما فينا ننطر للعيد؟» سألت نجاة أمّها برجاء. تعاطفت نبيلة مع شقيقتها نجاة المثقلة بالأعمال المنزليَّة ورعاية إبراهيم الذي اختلط عليه الأمر واستأنس لفكرة أنَّ نجاة هي والدته. غالبًا ما يتعلَّق بساقها وهي تطبخ، ينام بجانبها في المساء، وينتظرها في الظلام أمام بيت الراحة المنفصل عن المنزل. لكن ما يؤلم نبيلة حقًّا هو إدراكها أنَّ عطاء نجاة لا يعود عليها بالامتنان والعرفان بقدر ما يغري والدتها بطلب المزيد منها من دون أيّ نقاشٍ أو اعتراض. تسمع نبيلة شقيقتها نجاة تبكي في الليل وحين تضع يدها على كتفها وتسألها «شو بكي؟» تقول نجاة إنَّها اشتاقت لسمر، ولكنَّ كلتَيْهما

كانت تعلم أنَّ غياب سمر أصبح مجرَّد سترةٍ واقيةٍ من رصاص الأسئلة.

عرفت نبيلة لاحقًا أنَّ عريسًا آخر سأل عن نجاة وأنَّ أمَّها رفضت أن يقوم أهله بزيارةٍ لمنزلهم، «مين بدُّو يربّي إبراهيم؟» تبدأ مهيبة بالولولة والابتزاز العاطفيّ شاكيةً ضيق الحال وعيشة الفقر التي تحمَّلتها في بيت أبي ذوقان، فتتحوَّل نجاة بقدرة قادرٍ إلى منقذةٍ وتقوم بطمأنة والدتها والاعتذار منها وتحاول التعويض عن الضرر الذي سبَّبته بتلبية المزيد من الطلبات. استغلَّت مهيبة شعور نجاة بالذنب وقرَّرت أن تقيم مأدبةً حين علِمت أنَّ ذوقان سيعلن عن أمرٍ هامٍّ نهار غد. توقَّعت أن يتعلَّق الأمر بنفيه للشائعات المتعلِّقة بزواجه من امرأةٍ من الأرجنتين وأن يكلِّفها بالبحث عن عروسٍ درزيَّةٍ له.

غالبًا ما تخطئ حسابات القرويِّين لأنَّها لا تتخطَّى حيِّز حيواتهم الصغيرة وتطلُّعاتهم المحدودة. انشغلوا بحياة ذوقان الخاصَّة ولم يخطر ببال أحدهم أنَّ ذوقان أتى من أجل تشييد مدرسةٍ حقيقيَّة، مدرسةٍ مبنيَّةٍ من الإسمنت لا من الطين، مدرسةٍ لا يستطيع فيضان النهر أن يعطِّل مستقبل أبنائها. بعد أن انتهى ذوقان من قراءة خطابه المختصر بدرجةٍ مقبولةٍ من التأتأة التي لم تَحُلْ دون فهم المعنى، صفَّق له الحاضرون. ولكن سرعان ما تحاذق أحد أولاد عمِّه الذي شعر بنصل الحضارة يخترق بدائيَّته. «صحيح إبن العمّ، ما بدنا نفرح منك؟» سأل بدهاء، ثم صمت كلّ الحاضرين المتشوِّقين لمعرفة حقيقة الشائعات. «ك ك كلّ شي بوقتو إبن عمِّي، هـ هـ هلَّق خلِّينا بموضوع المدرسة»، أجاب

ذوقان بدبلوماسيَّة، لكنَّ الأمور لم تنتهِ عند هذا الحدّ. فقد تحاذق آخر قائلًا «ما رح تشتروا سكوتنا بفرُّوجين». نفض الشابّ حبيبات الرزّ عن ثيابه ووقف قائلًا «إذا مظبوط متزوِّج واحدة من الشرايع ما بدنا لا مدرستك ولا حضارتك المعفنة». الضوضاء التي تلت تلك الجملة والأصوات التي علت مستنكرةً زواج ذوقان أو منكرةً إيَّاه أنقذته من المواجهة فانسحب وترك المأدبة بما فيها من تراشقٍ بالطعام والتهم.

في المطبخ كانت نجاة تطبِّل لأخيها إبراهيم على قفا وعاءٍ معدنيٍّ وتغنِّي له «شبّ حليوة أفندي... قميصه تفتا هندي» ودموعها تتدحرج على وجنتَيْها. الأصوات العالية تجعل إبراهيم يهيج ويدخل في نوبات غضب، وكان لنجاة أساليبها المبتكرة في حمايته من تلك النوبات. ظلَّت تغنِّي له وتطبِّل وظلَّ يدور حول نفسه ويضحك حتى انفضَّ العراك في فناء الدار وداخ إبراهيم وخلد إلى النوم.

في صباح اليوم التالي، كان ذوقان قد حزم أمتعته وعزم على العودة من حيث جاء، فقد وصلته تهديداتٌ تدفعه إلى مغادرة القرية والتخلِّي عن أيّ مشروعٍ ينوي إقامته. عرفوا لاحقًا أنَّه زار الشيخ أبي طاهرٍ ليخبره بالتراجع عن مشروعه والتنازل عن الأرض التي كان أبو طاهرٍ قد تبرَّع بها لبناء المدرسة على أن يتكفَّل ذوقان بموادّ وأجرة البناء.

كتم أبو ذوقان غيظه حين بدأت زوجته بتطعيم حديثها عن ذوقان بشيءٍ من الشماتة، ولم توفِّر مناسبةً لنقل كلام أهل القرية عن قلَّة أصل ذوقان وخيانته لعائلته ودينه، من غير أن تنتبه إلى

غضب زوجها الذي بدأ يتجمَّع ويموج في داخله لينفجر في وجهها: «ما بقى عندك سيرة غير ذوقان؟ إبراهيم المعاق عاجبك أكثر يا بنت الحرام؟» قال قبل أن يصفع الباب وراءه ويغادر المنزل.

هكذا يتحوَّل الأولاد من وعودٍ جميلةٍ إلى نصالٍ حادَّةٍ يتراشق الناس بها لأنَّها تعرف طريقها إلى قلوبهم جيِّدًا. ربَّما تكون التوقُّعات التي يحمِّلها الأشخاص تجاه أولادهم هي التي تحُول دون حبِّهم وتقبُّلهم لهم. لو لم يتوقَّع أبو ذوقان أن يكون ذوقان فخر العائلة لما جلب له خبر زواجه من أجنبيَّةٍ هذا الشعور بالعار، ولو لم ينتظروا من إبراهيم أن يعوِّضهم عن خلفة ثلاث فتياتٍ لما آلمهم حاله كما فعل.

لم تخبر نبيلة أمل أنَّها تشتاق لأخيها وتفكِّر فيه على الدوام. ولم تخبرها أيضًا أنَّها بحثت عنه على الفايس بوك وراحت تتأمَّل صوره مع أبنائه وأحفاده من دون أن تجرؤ على التواصل معه.

13

دبي 2023

تفقَّدت أمل ساعة يدها وعادت لتنظر إلى المراكب المركونة في مرسى المارينا وهي تتهادى بخفَّة. اختارت مطعمًا قريبًا من أحد مداخل المارينا لأنَّها تحبّ تلك المنطقة الحيويَّة التي يسهل الوصول إليها. تفقَّدت قائمة الطعام مرَّةً أخرى وقرَّرت أن تطلب فنجان قهوةٍ قبل أن يصل مكرم. فتحت هاتفها النقَّال على محرِّك جوجل، كتبت weather Ainsura وراحت تتصفَّح الحرارة العليا والدنيا للأيَّام العشرة القادمة. «الله يعين أهلي على البرد»، غمغمت وراحت تراقب المارَّة الذين يلبسون ثيابًا خفيفةً ويستمتعون بدفء شمس كانون الثاني في دبي بينما يجلس والداها في قرية عينصورة إلى جانب صوبيا الحطب ويدعمانها بكروز

الصنوبر والخشب الرفيع لتشتعل نارها. تذكَّرت تلك الصديقة الألمانيَّة ـ التي كلَّما شعرت بالوحدة ـ تبحث عن بيت والدَيْها على تطبيق google earth وتجلس أمام الشاشة تحدِّق إلى البيت وتتخيَّلهما في الداخل يعيشان حياتهما بدونها. وحين سألتها أمل عن السبب الذي يمنعها من زيارتهما بشكلٍ متكرِّر، قالت إنَّ الدفء الذي تشعر به وهي على بُعد مئات الأميال يتبخَّر حين تدخل إلى المنزل.

ـ «بعتذر كتيير منِّك. تأخَّرت عالطريق».

التفتت لترى مكرمًا فسلَّمت عليه بحرارة.

ـ «أوَّل شي العواض بسلامتك يا مكرم والله يرحم الوالد»، قالت وهي لا تزال ممسكةً بيده.

أطرق مكرم:

ـ «شكرًا أمل. والله بعدني مش مستوعب إنِّي ما بقى رح شوفه»، قال وقد اختفت الابتسامة العريضة التي دخل بها إلى المكان.

لم تلجأ أمل إلى مقدِّماتٍ بل تكلَّمت بشكلٍ مباشرٍ شارحةً له أنَّها لا تعتبر أنَّ هناك شيئًا أقسى من حرمانه من وداع والده لأيِّ سببٍ كان. «رح تقدر تسامح؟» سألته على حين غرَّةٍ وهو يقلب الرغوة في فنجان الكابوتشينو.

ـ «وين أهمِّيَّة الأمر يا أمل؟ إن سامحت أو ما سامحت شو رح يتغيَّر؟» سأل بشيءٍ من اليأس.

ـ «أنا هون بسبب هذا الموضوع بالذات يا مكرم. بسبب

رغبتي إنُّو كلّ شي يتغيَّر».

أرهف مكرمٌ السمع حين بدأت أمل بالحديث عن الوثائقيّ الذي تنوي إعداده وإخراجه عن مجموعةٍ من الأسماء اللامعة في الطائفة الدرزيَّة الذين نبذهم مجتمعهم بسبب اختلافهم. بدا مندهشًا من ثقتها خاصَّةً عندما رفعت يدها لتكمل فكرتها في كلِّ مرَّةٍ حاول فيها مقاطعتها.

ـ «ما بتخافي؟» سأل بتعجُّبٍ عندما انتهت.

ـ «ليش بدِّي خاف؟ أنا مش هدفي الإدانة ولا التجنِّي. بالعكس تمامًا، هدفي قرِّب وجهات النظر».

ـ «ما بعرف يا أمل. أمِّي بعدها بالضيعة ما بدِّي حدا يضايقها».

ظهر شيءٌ من الخيبة على وجه أمل وأخبرته أنَّ والدَيْها أيضًا لا يزالان في عينصورة وأنَّ هدفها هو الإضاءة على الشخصيَّات اللامعة في الطائفة والاحتفاء بها. أوضحت له أنَّ الصعوبات التي يواجهونها ستكون جزءًا من التقرير وليست موضوعه الأساسيّ.

ـ «أبدًا ما بشوف مشكلة إنَّك تحكي عن يلِّي صار معك وكيف انحرمت تحضر مأتم والدك». قالت له.

ـ «ما حدا منعني يا أمل. أنا ما رحت»، قال وقد أخفض بصره ليثبّته على بقعة قهوةٍ فوق شرشف الطاولة.

ـ «ما رحت لأنَّك كنت خايف. خلِّينا نعترف إنُّو ربينا عالرعب!» قالت بشيءٍ من الانفعال. ثم أخبرته أنَّها قصدته لأنَّها تعوِّل على موهبته، ولأنَّها تظنّ أنَّ من واجبه أن يتكلَّم عمَّا حدث

معه وأن يواجه الأمر، لأنَّ الهروب لن يفيده.

ـ «من شو عم تهرب؟ من فكرة؟ من حكمهم عليك؟ من نظرتهم إلك؟» تفقَّدت أمل هاتفها الذي ارتجَّ قليلًا لدى وصول رسالةٍ وأكملت «إنت مكرم! تذكَّر مين إنت!».

راحت ترفع من معنويَّاته مذكِّرةً إيَّاه بالاحتفاء الذي ناله عقب معرضه الأوَّل والمعارض العالميَّة التي دُعي إليها والمجلَّات والمواقع التي كتبت عنه وعن رؤيته الفريدة للتراث الدرزيّ. ثم أخبرته أنَّها لا تنتظر موافقته الفوريَّة، بل ستعطيه مهلةً ليفكِّر في الأمر على أن يجيبها في اليوم التالي. أضافت أنَّ عليها أن تسافر إلى بيروت بعد ثلاثة أيَّام، وأنَّها تفضِّل أن تنهي التصوير معه قبل أن تغادر للقاء الشخصيَّات الأخرى.

جلس مكرمٌ أمام الكاميرا بظهرٍ مستقيم وقد بدا عليه القلق. «تنفَّس بعمق. خلِّي النفس يوصل لبطنك!» قالت له أمل محاولةً مساعدته على التخلُّص من التوتُّر. كان مكرمٌ قد اعتاد على اللقاءات التلفزيونيَّة والمقابلات، لكن هذه المرَّة كانت مختلفة. شعر أنَّ وميض الضوء الأحمر في الكاميرا المصوَّبة نحوه يخترق كلّ طبقات جلده ويعرِّيه. فهو لولا عجزه عن توصيل أفكاره ومشاعره عن طريق الكلام لما برع في الرسم. لو استطاع أن يقبِّل يدَي أمّه ويطلب منها السماح على ذنبٍ لا يعرفه لما كرَّس عشرات اللوحات كي يرسم يدَيْها. أراد أن يقف ويسحب الميكروفون المعلَّق على ياقته ويهرب من الاستوديو. أخذت

راحتاه تتعرَّقان وأنفاسه تتسارع، وإذا بأمل التي كانت تتكلَّم مع المصوِّر بشأن الكادر تقترب منه وتضع يدها على كتفه مذكِّرةً إيَّاه بأنَّ هذه هي فرصته للتوقُّف عن الهروب ومساحته الآمنة لمعاتبة الذين حكموا عليه وأبعدوه.

بدأت حديثها معه عن لوحاته وارتباطه بالأرض وحنينه إلى تلك الجبال البعيدة. عرَّجت على بداياته وتحدَّثت عن دور الفنَّان في كسر النمطيَّة في الأسلوب والتفكير وعن الانتقادات التي عادةً ما تترتَّب على هذا الأمر، وعندما شعرت أنَّه أصبح مرتاحًا في الكلام سألته:

«عملك ولوحاتك هم عبارةٌ عن رسالة محبَّةٍ وتقديرٍ لأهلك وقريتك. لكن يقولون إنَّ العتب هو الوجه الآخر للحبّ... على مَن يعتب مكرم؟».

تلعثم قليلًا ونظر إلى الأرض قبل أن يجمع أفكاره، ثم قال بصوتٍ منخفض «أعتب على كلّ مَن أطلق عليَّ الأحكام لمجرَّد أنِّي شاركت أصدقائي في الدفاع عن حقوقهم. أنا مع حقوق الإنسان مهما كان انتماؤه الدينيّ أو السياسيّ أو ميوله الجنسيَّة. وأعترف أنِّي أحيانًا أتصرَّف بعفويَّةٍ مفرطة....»، صمت قليلًا ثم أضاف «وأعتب على مجتمعي لأنَّ الشيء الأوَّل الذي يتبادر إلى أذهانهم حين يُذكر اسمي هو ذلك الڤيديو والشكوك التي ترافقه. النقَّاد والصحفيُّون ومحبُّو الفنّ في جميع الدول يفكِّرون في فنِّي عند ذكر اسمي، أمَّا مجتمعي فيحاول أن يختزلني في النقطة التي لا يرضى عنها».

ختمت أمل الفقرة الخاصَّة بمكرم وشكرته على فنِّه وحضوره قبل أن تودِّعه مؤكِّدةً له أنَّه أبلى بلاءً حسنًا. لكنّ مكرمًا الذي شعر أنَّه أصبح محصَّنًا بعض الشيء من الخارج بسبب ما أدلى به عن دعم حقوق «الآخرين»، كان يعلم في قرارة نفسه أنَّه تنكَّر لحقيقته. هل كذب لأنَّه أراد أن يُنقذ أهله ويقيهم شرّ كلام الناس والنبذ؟ أم أنَّه خائفٌ أن يرفضوه؟

الحرص على رضا الأهل وتجنُّب رفضهم له هو الشيء الأوَّل الذي يتعلَّمه الطفل. فهو يعلم أنَّه غير قادرٍ على الاستمرار من غير حماية والدَيْه له. لكنَّ الصغار يكبرون ويتبوَّؤون المناصب ويصبحون أشخاصًا فاعلين، إلَّا أنَّ الطفل الذي يخشى رفض والدَيْه له يبقى حيًّا في داخلهم، فيظلّوا خائفين منفصلين عن واقعهم وعن نجاحاتهم. أدرك مكرمٌ كلّ هذا خاصَّةً بعد أن شاهد وثائقيًّا عن حياة الفنَّان جورج مايكل الذي لم يستطع أن يعترف لأبوَيْه بميوله الجنسيَّة حتى بعد أن أصبح نجمًا عالميًّا. فقط عندما توفّي حبيبه كتب خطابًا من أربع صفحاتٍ اعترف فيه لوالدَيْه أنَّه مثليٌّ وأنَّه فقد شريكه للتوّ. اعتبر جورج مايكل أنَّ حبيبه منحه بموته الشجاعة والحرِّيَّة كي يعترف بحقيقته ويخرج من دائرة الخوف. غالبًا ما يكون ثمن الحرِّيَّة باهظًا، لكنّ مكرمًا خسر والده ولم يستطع أن يتحرَّر حتى أمام نفسه.

انتهت أمل من المقابلة واتَّصلت بشقيقتها سناء التي انتقلت إلى الإمارات منذ ثلاثة أعوام لتُخبرها بقدومها. «حطّي الإبريق عالنار، جايي لعندك أشرب متّة» قالت لها عبر الهاتف بمرح.

رغم التباين في شخصيَّتهما واختلاف توجُّهاتهما في الحياة، وجدت أمل في شقيقتها سناء ما يستحقّ التقدير والإعجاب. سناء التي لا تعرف كيف تعبِّر عن نفسها وتتلعثم وسط الشجارات، دائمًا ما تلجأ إلى الصراخ والبكاء في مواجهة أيِّ عراكٍ أو اتِّهام.

ـ «اشرحي وضعك واطرحي قضيَّتك بشكل طبيعيّ ليه بتصيري تبكي بس تتخانقي مع رياض؟» سألتها أمل بعد شجارٍ كبيرٍ حصل بين سناء وزوجها وانتهى بتكسير الصحون والشتائم من الجانبَيْن.

ـ «الكلمات ما بيقعدو جنب بعضن. بحسّ راسي صار كبَّاية زيت والكلمات عم تسبح فيه... يمكن لأن بكون خيفانة كتير». أجابت سناء حينها بصدقها المعتاد وعدم اكتراثها بتلميع صورتها أمام شقيقتها أمل.

حين سُرِّح رياضٌ من عمله كمحاسبٍ في إحدى الشركات الكبرى إثر الأزمة التي أطاحت باقتصاد لبنان، شمَّرت سناء عن ساعدَيْها وقالت إنَّها ستتصرَّف. لم تكن حينها سوى موظَّفةٍ على ستاند المكياج في السوق الحرَّة في مطار بيروت الدوليّ، وكان راتبها بالكاد يكفي مصاريف الطريق والمساحيق التي تستخدمها لتبرز جمالها وتقنع الزبائن بأهمِّيَّة مساحيق التجميل. لكنَّ الخبرة التي اكتسبتها من وقوفها وراء ذلك الستاند ومساعدة الزبونات في وضع المكياج إلى جانب الڤيديوهات التي شاهدتها على يوتيوب جعلت منها ماكيور محترفة. ساعدها وجودها في المطار أيضًا على تكوين صداقاتٍ مع زبوناتٍ خليجيَّاتٍ ولبنانيَّاتٍ مغتربات، لذلك لم يكن من الصعب عليها أن تجد وظيفةً في صالون تجميلٍ

في دبي حين بدأت بمراسلة معارفها من أجل فرصة عمل.

ساعدت رياضًا عن طريق معارفها أيضًا في العثور على وظيفةٍ كمدقِّق حساباتٍ في إحدى الشركات، وبذلك تخطَّى جرحه النرجسيّ الذي نتج عن فصله من وظيفته الأولى وحوَّل المعيشة معه إلى شقاء. لكن رياضًا لم يكن مسالمًا يومًا. لا تزال أمل تذكر ذلك النهار منذ عشر سنواتٍ وكأنَّه حدث البارحة. كان هذا قبل طلاق أمل من سالم وقبل تركها لبنان. تلقَّت أمل يومها اتِّصالًا من شقيقتها سناء «ضربني يا أمل! ضربني» قالت وسط بكائها وكأنَّها غير مصدِّقةٍأنَّ الأمر قد حدث.

«صرلك شي؟ البايبي منيح؟» سألتها أمل بترقُّبٍ وقبل أن تنتظر الجواب، أضافت «جاي آخذك فورًا»، قالت لسناء التي تسكن في بلدة دير قوبل على بعد ساعةٍ من بيتها. انتعلت أقرب حذاءٍ على عجلٍ وتناولت مفاتيح السيَّارة من فوق الطاولة وأسرعت لنجدتها. مشاكل سناء وزوجها ليست بالشيء الجديد، لكنَّه لم يتطاول ويضربها قبل ذلك. لم تتَّصل سناء بوالدها لأنَّها تعرف أنَّه سيحلّ المشكلة بالطريقة التي تكفل رجوعها إلى بيتها. قد يندم زوجها ويعتذر، وقد يجبره والدها على الاعتذار، لكن كلّ هذا سيحدث بطريقةٍ تضمن إعادة المياه إلى مجاريها. تؤمن أمل أنَّ الشخص لا يستطيع البحث عن أيِّ حلولٍ طالما ظلَّ متمسِّكًا بالمحصِّلة النهائيَّة التي يتوقّعها الجميع. كلمة «بحث» فيها تواضع التائه والانفتاح على احتمالاتٍ لم تخطر على بال المرء يومًا. فكَّرت في كلِّ هذا وهي تقود السيَّارة على المنعطفات الجبليَّة المؤدِّية إلى دير قوبل.

بينما راحت سناء تبكي وتشتكي إلى جانب أمل في المقعد الأماميّ للسيَّارة، كانت أمل تفكِّر في المكان الأمثل لمبيتهما في تلك الليلة. لم تُرِد أن يتبع رياضٌ سناء إلى منزلها أو إلى منزل والدَيْها بعد أن تهدأ موجة الغضب وتبدأ موجة الندم. أرادت لقلبه أن يحترق وكانت متأكِّدةً أنَّ اصطحاب سناء إلى مكانٍ لا يعرفه سيفي بالغرض. هاتفت زوجها سالمًا وشرحت له الوضع. أخبرته أنَّهما ستمضيان الليلة عند صديقتها منى وطلبت منه أن يأخذ رحمة لتنام عند جدَّتها نبيلة. بدا متفهِّمًا خاصَّةً وأنَّه يعرف منى التي تعيش مع أمّها الأرملة في بيتٍ كبير.

«ما تخبِّر حدا بمكاننا يا سالم ولا حتى أمِّي»، قالت مؤكِّدةً عليه قبل أن تغلق الهاتف.

في غرفة منى جلسن ثلاثتهنَّ يتسامرن ويدخِّنّ، لكن قبل أن تشعل سناء سيجارةً، سألتها أمل:

«متأكِّدة بدِّك تدخني؟ حرام البايبي شو ذنبه؟».

حرَّكت سناء رأسها ساخرةً، وقالت «من كم ساعة كان أبوه عم يضربني قتلة. إذا أبوه ما فكَّر يحميه ليش لأحرم حالي من سيجارة بعد هاليوم الفظيع؟!».

كان لقاء منى مرَّةً كلّ بضعة أشهرٍ فرصةً جيِّدةً لتدخين السجائر في السرّ. «رح نام على الأرض. برتاح أكثر»، قالت سناء بعد أن انتبهت لوجود سريرَيْن صغيرَيْن في الغرفة. ولم تنجح أمل في إقناعها بالنوم على السرير.

بعد أن نام الجميع جلست أمل في سريرها تفكِّر. كان ضوء

الشارع المتسرِّب من بين الستائر يُضيء فرشة سناء المتكوِّرة أسفل الخزانة ببطنها الكبير والبطّانيَّة التي شدَّتها فوق رأسها. شعرت بعاطفةٍ جارفةٍ نحوها، نوع من العاطفة يصيب المرء حين ينظر إلى شخصٍ نائم. كلّ النيام يعودون أطفالًا حين تنام حيواتهم وصراعاتهم وخيباتهم ويغسل النوم التوتُّر عن ملامحهم. خُيِّل لها أنَّ جسد سناء ينتفض كلّ بضع لحظاتٍ وأعادها تكوّره إلى طفولتهما معًا. ربَّما كانت أمل في السابعة حين اصطحبهما والدهما إلى بلدة بتلون ليشتري قطعة غيارٍ للسيَّارة من محلّ صديقٍ له. حين أوقف السيَّارة أمام المتجر إلى جانب ستاند الجرائد والمجلَّات شهقت سناء لرؤية صورة وائل كفوري على غلاف إحدى المجلَّات المعروضة. «بدِّي شوفا عن قريب» هتفت سناء ثم فتحت الباب ووقفت تتأمَّل الصورة وتقلب صفحات المجلَّة بلهفة. لم تمضِ دقيقة حتى خرج والدها من المحلّ رفقة صديقه الذي انحنى ليحيّي نبيلة داخل السيَّارة، وإذا بعليٍّ ينظر إلى سناء ويسألها «عاجبتك المجلَّة؟ بدِّك ياها؟» لا تذكر أمل أنَّها رأت بعد ذلك اليوم نظرة الفرح التي رأتها في عينَي أختها حين سمعت سؤاله. هزَّت سناء رأسها موافقةً بخجلٍ وهي تضمّ المجلَّة إلى صدرها بيدَيْها الاثنتَيْن. سحب عليٌّ محفظته من جيبه العميق ودفع لصديقه ثلاثة آلاف ليرةٍ لبنانيَّةٍ ثمن المجلَّة قبل أن ينطلق عائدًا بعائلته إلى المنزل. ولكن ما إن توارت السيَّارة عن عيني الصديق حتى مدَّ عليٌّ يده وأخذ يصفع سناء التي كانت تجلس خلفه مباشرةً «الشو انقبرتي حرجتيني وقلتي إيه؟» راح يصرخ «قرِّبي لهون»، صاح بينما سناء تحضن مجلَّتها وتلصق جسدها بالباب هربًا من صفعاته.

في البيت قصَّت سناء صورة وائل كفوري من المجلَّة وعلَّقتها فوق سريرها وهي تنتحب، بعدها نامت وبقي جسدها المكوَّر تحت البطَّانيَّة ينتفض كلّ بضع لحظاتٍ حتى بعد أن غطَّت في النوم. ها هي اليوم تتعرَّض للضرب ثانيةً وبدل صورة مطربٍ تعشقه، تنتصب فوق رأسها مرآةٌ طويلةٌ مثبَّتةٌ على خزانةٍ في منزل غرباء. مرآةٌ ستضعها في مواجهةٍ مع نفسها ما حييت، في مواجهةٍ مع الانطباعات التي اكتسبتها عن تلك النفس منذ طفولتها حتى الآن. لم تتَّصل سناء بوالدها لتخبره أنَّ زوجها عنَّفها لأنَّ الطفلة التي كانتها ما زالت تخاف من هذا الرجل، لا تفرِّق بينه وبين زوجها، تلك الطفلة المذعورة ما زالت مختبئةً في داخلها، تمدّ رأسها بين الفينة والأخرى لتبحث عن الحبّ والقبول، لكنَّ الغضب يبتلعها مع كلِّ محاولة. بعد بضعة أشهرٍ من ذلك الحادث ولدت سناء طفلًا جميلًا بعينَيْن زرقاوَيْن، وحين تعلَّم المشي والكلام راح يطوف على أفراد العائلة ويكرِّر سؤالًا واحدًا «بتحبِّيني ماما؟»، «بتحبِّيني خالتو؟»، «بيتحبِّيني تيتا؟»، «بيتحبّني جدُّو؟».

حين دخلت أمل المطبخ في الصباح كانت والدة منى تعدّ القهوة. «عفوًا خالتو تقَّلنا عليكن»، قالت أمل معتذرةً عن زيارتهما المفاجأة في الليل، ثم اقتربت منها وأضافت بصوتٍ منخفض «أختي عم تواجه مشكلة عائليَّة». همست بتلك الكلمات رغم أنَّهما كانتا وحدهما في المطبخ. أخفضت صوتها كما أخفضت خالتها نجاة صوتها وهي تسأل عن ثوبٍ للموت في فرن الشبَّاك، كما أخفضت أمّها صوتها قبل سنواتٍ وهي تقف في

الليل أمام بيت الجيران لتستقرض المال، كما سيخفض والدها صوته بعد سنواتٍ وهو يقول لموظَّف دائرة النفوس أنَّ ابنته أصبحت مطلَّقةً وأنَّه يريد أن يعدِّل أوراقها الشخصيَّة. لم يعلِّمها أحدٌ أن تخفض صوتها حين تتكلَّم عمَّا يكسرها، لقد شاهدتهم يفعلون ذلك، وحين أصبحت راشدةً وطالتها الانكسارات طأطأت رأسها وخفضت صوتها مثلهم. أظنّنا نتعلَّم أن نخفض أصواتنا عندما نفقد السيطرة على حيواتنا، حين نُهزَم أمام الموت والفقر والقوانين الاجتماعيَّة الصارمة. نخفضها حين نحاول إنقاذ صورتنا أمام الآخرين بعد أن فشلنا في الدفاع عنها أمام أنفسنا.

في اليوم التالي، انتهت رحلة تمرُّد أمل وأعادت أختها سناء إلى منزل والدَيْهما لتتفاوض هي وزوجها على شروط العودة. تطلَّب الأمر سنواتٍ لتدرك أمل أنَّها لا تستطيع أن تنقذ أحدًا وأنَّ ما فعلته في تلك الليلة ليس سوى عملٍ طفوليٍّ انفعاليٍّ لم يغيِّر شيئًا في حياة أختها ولا في سلوك زوجها ولا في طريقة والدَيْها في إيجاد الحلول. أدركت أيضًا أنَّ سناء لم تكن مستعدَّةً لأيِّ تغييرٍ حقيقيٍّ في حياتها لأنَّها اكتفت بالتأرجح بين أقصى درجات الغضب وأقصى حدود الصبر والتسامح وأنَّ أيّ قرارٍ جدِّيٍّ يحتاج إلى الكثير من الهدوء والصدق مع الذات.

ربَّما لا تذكر سناء تلك الحادثة بكلِّ تفاصيلها كما تذكرها أمل لفرط ما تكرَّرت. وربَّما أصبح الحمل المتكرِّر هو طريقتها للاعتذار عن حياةٍ لم تعشها كما أرادت. بدت سناء شاحبةً عندما فتحت باب شقَّتها في الطابق الرابع في منطقة «البرشا» في دبي. بعد الأحضان والقبلات، لمست أمل بطن سناء المنتفخ «شو

أيمتى رح يوصل البايبي؟» سألتها بلهفة.

ـ «بعد شهرَيْن إذا ما إجا بكّير ونسف كلّ المخطّطات». أجابت سناء بابتسامة.

ـ «قدرتي تقنعي أمّي تجي تعاملك؟» سألتها أمل وهي تزيح الستائر لتنظر إلى الشارع المكتظّ بالمشاة والسيَّارات.

ـ «أمّي عنيدة مش كأنّها رح تقبل تجي! أنا ما بقدر إنزل على لبنان بسبب شركات التأمين وقلّة الأدوية».

كانت شركات التأمين الصحّيّ قد توقّفت عن دفع تكاليف الطبابة بسبب تدهور سعر الدولار ولأنَّ المشتركين استمرُّوا في دفع العقود بالليرة اللبنانيَّة. وللسبب نفسه أصبح استيراد الأدوية وتوفُّرها صعبًا في المراحل الأولى التي تلت الانهيار ممَّا أدَّى إلى فقدانها من الأسواق وبيعها فقط في السوق السوداء.

ـ «المشكل إنُّو أنا وضعي الصحّي حسَّاس وخطير»، قالت سناء. ثم أضافت «وإذا يعني بعدوها من الخلوة؟ مش أوَّل وحدة ولا آخر وحدة بتنبعد».

أُصيبت سناء بجلطةٍ في الرأس بعد ولادة ابنها الأوَّل كريم، واحتاجت إلى رعايةٍ مطوَّلةٍ من نبيلة قبل أن تتمكَّن من الاعتماد على نفسها والاهتمام بابنها. لكن بعد انتقالها من لبنان لم يعد بمقدور نبيلة مساعدتها لأنَّ التزامها الدينيّ يمنعها من السفر. وإن اضطرَّت للسفر عليها أن تكفِّر عن ذنبها بطلب الإذن من شيخ الضيعة للعودة إلى العبادة. تتراوح فترة البعدة أو فترة الإقصاء تلك بين شهرٍ وستَّة أشهرٍ بحسب الذنب الذي ارتكبه الرجل أو المرأة التي خالفت القوانين.

ـ «ما سمعتي بالقانون الجديد بالقرية»؟ سألتها أمل وهي تمدّ يدها إلى صحن المكسَّرات، ثمّ أكملت من غير أن تسمع جواب سناء «الشيخ ريدان نزَّل تحديث جديد للدين وقال يلّي بتسافر ما بتنفصل موقَّتًا، بل بتنحرم من دخول الخلوة إلى الأبد. تخيَّلي؟!!» قالت أمل بتعجُّب، ثمَّ قضمت حفنةً من حبوب الذرة المقرمشة.

ـ «مش مشكلتي! هي مشكلة يلّي عايشين بالضيعة وقبلانين بهالظلم»! هتفت سناء بانفعالٍ واستنكار.

كانت أمل تعلم في قرارة نفسها أنَّ المشكلة الحقيقيَّة تكمن في الأشخاص الذين يقبلون بالقوانين من غير تساؤلاتٍ أو حتى تفكيرٍ بجدواها. وقرَّرت في تلك اللحظة أن تهاتف أمّها وتنبِّهها إلى حاجة ابنتها إليها خاصَّةً وأنَّ رياضًا زوج سناء مستعدٌّ للقدوم إلى لبنان ومرافقة نبيلة إلى دبي وبذلك يكون قد حلَّ مشكلة المحرم الذي يجب أن يرافق المرأة المتديِّنة في تنقُّلاتها برًّا أو جوًّا.

14

صحيح أنَّ نبيلة ترفض السفر مدفوعةً بأسبابٍ دينيَّةٍ في المقام الأوَّل، لكن بعد خسارة عليٍّ لذراعه أصبحت تستهجن تركه في المنزل بمفرده. تبدأ بتبرير رفضها باعتماد عليٍّ عليها، ثم بالشتلات التي عليها أن ترويها وتنتهي بالزبائن الذين لا يأكلون إلَّا من خبزها.

ـ «ما حدا بيموت من الجوع يا إمِّي! بس بنتك ما رح تسامحك إذا صار لها شي وإنتِ مش جنبها». قالت لها أمل عبر الهاتف معاتبة. وأضافت «بيّي مش معاق. صحيح ناقصة ذراع بس بيقدر يسقي الشتلات وياكل ويهتمّ بحاله لمدَّة شهر، وخيَّاتي أكيد بيزوروه من وقت للتاني».

لكن نبيلة تعلم أنْ لا أحد سيأتي ليسأل عن أحواله. فابنتهما نرمين التي عادت من أميركا منذ عدَّة سنواتٍ اختارت أن تكرِّس بقيَّة حياتها للخدمة في خلوات البيَّاضة، وابنتهما الكبرى أسمهان

لها عائلتها ومشاغلها وليس بينها وبين والدها حيط عمار.

«إذا صرلك شي أنا بقاش بفوت على هذا البيت»، تقول أسمهان لأمّها كلَّما دقَّ الكوز بالجرَّة وتخانقت مع أبيها بسبب بنطالها الضيِّق أو سترتها مكشوفة الظهر.

ـ وأنتِ يا أمل أيمتى بدِّك تجي لشوفك؟ سألتها نبيلة برجاء.

ـ قريبًا إذا الله راد. أجابت أمل باقتضاب.

همَّت بإخبارها أنَّها التقت بمكرم وأجرت معه مقابلة ولكن شيئًا ما جعلها تصمت. فهي لم تخبرّ أحدًا بشأن التقرير الذي تعمل عليه لأنَّها تعلم أنَّ النصائح ستنزل عليها من كلِّ حدبٍ وصوبٍ وستحاول العائلة أن تثنيها عن الفكرة، لأنَّ الكلام عن شؤون الطائفة وتوجيه النقد حتى ولو كان مبطَّنًا يشبه العبث في خليَّة نحلٍ من دون بدلة نحَّالٍ كما قالت إحدى الصديقات الدرزيَّات لأمل. وهكذا قرَّرت أمل أن تمضي بمشروعها في صمتٍ خاصَّةً بعد أن تمَّ تبنِّي الفكرة من محطَّةٍ تلفزيونيَّةٍ أجنبيَّةٍ ناطقةٍ بالعربيَّة.

في المساء حين طرحت نبيلة موضوع السفر أمام عليٍّ كي تسأله رأيه، مرَّر يده على شاربه وصمت مطوَّلًا قبل أن يقول لها:

ـ «الشيخ ريدان ما رح يقبل ترجعي على الخلوة». قال مذكِّرًا إيَّاها بالقرار الذي صدر مؤخَّرًا عن شيخ الضيعة.

ـ «الله يسامح الشيخ ريدان على هالقرارات. صاروا نصّ الشيخات عم يسهروا بَرَّات الضيعة».

كانت تشير إلى الشيخات اللواتي يحشرن أنفسهنَّ بباصٍ

صغيرٍ مساء كلّ خميسٍ ويذهبن برفقة الشيخ فوّاز صاحب الباص إلى القرية المجاورة حيث المشايخ أكثر تسامحًا والقوانين أقلّ صرامة. بدأ الأمر بثلاث نساءٍ رفضن قرار الشيخ ريدان بمنع المنديل «المنيّل» المائل إلى الزرقة نتيجة إضافة النيل في الغسيل. كنَّ شابَّاتٍ ومثقَّفات، تزوَّجن وأتين إلى عينصورة من قرى أكثر انفتاحًا وتنوُّعًا، وعلمن بعد ذلك القرار أنَّ القوانين لن تقف عند هذا الحدّ، بل ستزداد تطرُّفًا مع الوقت. تبيَّنت صحَّة الأمر عندما منع الشيخ ريدان استخدام العطور وجوارب النايلون السوداء وحرص على التشدُّد في منع بنات المشايخ من ارتياد الجامعات. وكانت أمل إحدى ضحاياه حيث منعها والدها من الدراسة الجامعيَّة، فاضطرَّت للزواج في عمر السادسة عشرة. وكان عليها أن تخوض معارك كثيرةً في بيت الزوجيَّة حتى تمكَّنت من الالتحاق بالجامعة.

وعلى الرَّغم من، أو ربَّما بسبب، تزمُّت الشيخ ريدان، فإنَّ محاولات التمرُّد بدأت بالازدياد في الضيعة. تضاعف عدد النساء في الباص وأصبحت، مع الوقت، الفكرة مقبولةً أكثر لدى أهل الضيعة. فكلّ من خالفت القوانين أو زارت أبناءها في الخارج مُنعت من ارتياد خلوة الشيخ ريدان، وهكذا قرَّر الشيخ فوّاز اقتناء باصٍ أكبر يتَّسع لكلِّ المتمرِّدين. إلَّا أنَّ عليًّا لم يكن من أولئك الذين أصابتهم عدوى التمرُّد.

ـ «هذا مش أصول. بنتك جسمانيَّة واختارت تلحق الدني وإنتِ اخترتي آخرتك. أحسن من الشيخ ريدان ما في بكلِّ المنطقة». قال موجِّهًا إصبعه إلى أعلى وكأنَّه يلقي خطابًا.

ـ «الشيخ ريدان بيحكي عن الزهد بالمال والبنين بس ولا مرَّة حكى عن الزهد بالسُلطة. العالم عم تهرب منه قد ما صعَّب عليهم حياتهم»، قالت نبيلة بشيءٍ من التحدِّي لأنَّها تعلم بمكانة الشيخ ريدان العالية لدى عليّ.

بعد أن أرهقه النقاش معها، قال:

ـ «هذا قرارك وكلّ إنسان منَّا يعمل لنفسو ولآخرتو. إنتي بهيذي الحياة زوجتي بس بالآخرة كلّ إنسان رح يكون مسؤول عن أعماله»، صمت قليلًا ثم أضاف «لو أنا مكانك ما بروح».

تمنَّت لو يطلب منها أن تبقى لأنَّها روح البيت وبركته كما يصف بعض الرجال نساءهم، لو يقول لها «يا مرا بقدرش عيش بلاكي، مين بدو يونّسني؟» لكنَّه تركها لقرارها الصعب مبرِّرًا جوابه بكلامٍ من الدين لا من القلب.

مرَّةً أخرى، وضع الالتزام الدينيّ نبيلة في مأزق، فوجدت نفسها عالقةً بين مطرقة الأمومة وسندان الطاعة. فالويل لها إن عصت قوانين شيخ الضيعة، ويا ويلها أكثر لو حصل لابنتها مكروهٌ وانشغلت هي بخلاص نفسها والعمل لآخرتها. أمضت الليل تتقلَّب في الفراش وتفكِّر في الموضوع حتى تحوَّلت أفكارها إلى حلقةٍ محكمة الإغلاق لا مخرج منها. راحت تقيس الأمور وتحسبها بدقَّةٍ ثم تعيد التفكير من البداية لتجد نفسها أمام طريقٍ مسدود. لم يكسر تلك الحلقة شيئًا سوى عواء «القعَّاية» في الحرش المقابل. أغمضت عينَيْها وراحت تستمع إلى الصرخات الحادَّة التي تتخلَّلها لحظات صمتٍ طويلة. للمرَّة الأولى لم تقل

«خير انشالله» أو «مدري مين بدُّو يموت»، بل سمحت لنفسها أن تصغي إلى الصرخات المتوحِّشة، أن تفكِّر في الحرِّيَّة التي تنعم بها تلك «القعَّاية» التي تطلق صيحاتها غير مكترثةٍ بالنيام وأطفالهم الرضَّع. القعَّاية تصرخ من دون حساباتٍ كي تتواصل مع صغارها أو لتعبِّر عن شعورٍ ما، ونبيلة تصغي إلى تلك الصرخات بلذَّةٍ تشبه الارتواء بعد ظمإٍ طويل.

قبل الفجر بقليلٍ توصَّلت إلى قرار. فنبيلة لم تعش لنفسها يومًا، بل كرَّست كلّ حياتها من أجل خدمة الآخرين وسعادتهم، بدءًا بعائلتها وصولًا إلى المعارف والغرباء، فلماذا تختار آخرتها وتتخلَّى عن ابنتها في هذا الموقف؟ ثم من قال إنَّ صعودها إلى الطائرة سيجعلها تتخلَّى عن آخرتها؟ ثم ما الفرق بين الطائرة والسيَّارة؟ فكَّرت بكلِّ هذا وهي تحدِّق من النافذة إلى السماء التي بدأ لونها بالتغيّر حتى شعرت بضرورة التوقُّف عن طرح الأسئلة. دوَّامة الأسئلة لن تجلب لها سوى غيابِ الطمأنينة وقليلٍ من الغضب. «يا ربِّي سامحني على هالأفكار يلي ما بتهدا»، غمغمت وهي تجلس في فراشها بعد أن فقدت الأمل في قليلٍ من النوم. نبيلة لا تعرف الغضب، لكنَّها سمعت أحدهم يقول على الراديو إنَّ الغضب دليلٌ على احترام المرء لنفسه. ومن ذلك الحين وهي منشغلةٌ بالأمر. أيعقل أنَّها لا تحترم نفسها؟

أشعلت النار في الصوبيا ثم وضعت إبريق الماء على سطحها كي يسخن ببطءٍ ريثما يستيقظ علي ويشربان المتَّة سويًّا. لاحظت آثار التعب على عينَيْه عندما دخل المطبخ:

ـ صباح الخير. ليش فايقة بكِّير؟ سألها مستغربًا وقد لاحظ

أنَّ النار مشتعلةٌ في الصوبيا والغرفة دافئة.

ـ ما نمت طول الليل. وإنت ليه مكعفش هيك؟ سألت مستفسرةً عن التعب الظاهر على ملامحه وعينَيْه.

ـ القعَّاية طول الليل عم تنبح ما خلِّتني نام. فكَّرت أطلع عالسطح وقوِّص ضربَيْن على الحرش حتى تخاف وتهرب. قال عليٌّ متذمِّرًا.

ـ القعَّاية الله خلقها. بدنا نعترض على ربّ العالمين ونقوِّص عليها؟ سألت مستنكرة.

ـ يا فتَّاح! قلتلك فكَّرت، بدك تحاسبيني على فكرة؟ بعدين القعَّاية شؤم.

ـ لا شؤم ولا شي ولا اسمها قعَّاية أصلًا. أمل خبَّرتني كلّ شي وإنُّو كلّها هالقصص خرافات.

عندما تزوَّجت أمل في السادسة عشرة وبعد أن تشاجرت مع زوجها وكافحت من أجل أن تلتحق بالجامعة، أصبحت ترى الأمور بمنظارٍ مختلف. راحت تنظر إلى الأشخاص في محيطها وكأنَّها تراهم للمرَّة الأولى وتصغي إلى أحاديثهم وكأنَّها تسمعها للمرَّة الأولى، فتسأل عن كلِّ شيءٍ وتقارب كلّ الأفكار بفضولٍ عجيب. سألت مرَّةً أمَّها عن القعَّاية: شو قصدكم بالقعَّاية؟ شو الإسم العلمي إلها؟

نظرت إليها نبيلة باستغراب «شو قصدك إسم علمي؟ قعَّاية يعني نبَّاحة. متل الكلب بس أكبر، وبتهجم عالبشر وصوتها فال شؤم. بس تنبح بيموت شخص بالقرية بذات الأسبوع» هكذا

اختتمت نبيلة شرحها عن هذا الحيوان الغامض الذي يجاورهم ويخافونه منذ ولدوا بين تلك الجبال، لكنَّ أحدًا لم يره من قبل.

وحين دخلت أمل إلى محرِّك البحث لتستكشف الأمر، لم تجد أثرًا لحيوانٍ اسمه القعَّاية، فراحت تبحث عن أصوات الحيوانات الليليَّة على يوتيوب. وبعد الإصغاء إلى عشرات الأصوات، سمعت أخيرًا صرخاتٍ مطابقةً لصرخات القعَّاية، وصاحت «أمِّي تعي بسرعة، مش هيذا صوت القعَّاية؟».

أصغت نبيلة وهي تنظر إلى أعلى بتركيزٍ، وقالت «إيه هذا صوتها، فرجيني كيف شكلها!».

ضحكت أمل عاليًا. «القعَّاية هي أنثى الثعلب يا أمِّي وحجمها أصغر من الكلب بكتير»، قالت وهي تشير إلى ثعلبٍ صغيرٍ على الشاشة يبدو أقرب إلى القطّ منه إلى الذئب أو أيّ حيوانٍ مفترس.

تلقَّت نبيلة هذه المعلومة من أمل منذ سنواتٍ طويلة، لكنَّها ما زالت تسمِّيها قعَّاية، وما زالت تقول «خير انشالله» حين تسمع صرخاتها، إلَّا أنَّها في ذلك الصباح بالذات استخدمت تلك المعلومة لتبيِّن لعليٍّ أنَّه على خطإٍ وليصبح اعتراضها على خوفه من أنثى الثعلب مشروعًا. ناولته قرعة المتَّة وقرَّبت له صحن السفرجل المنقوع بالماء والملح، وقالت «قرَّرت روح أعامل سناء بالإمارات. رح سافر قبل ما تولِّد بأسبوع» قالت من غير أن تنظر إلى عينَيْه. أكمل قطعة السفرجل التي كان يقضمها وشرب قرعة المتَّة حتى سمع صوت القرقعة فيها ثم رفع كتفَيْه ببرود. «إيه الله

يسهلِّك»، قال بلا مبالاةٍ شعرت نبيلة معها بغصَّةٍ حارقة.

كان عليٌّ يعلم في قرارة نفسه أنَّ سفر نبيلة سيحوِّله من رجلٍ مهفهفٍ مدلَّلٍ إلى عجوزٍ وحيدٍ بذراعٍ واحدة. لم تغب نبيلة عن البيت في السابق إلَّا لتهتمّ بإحدى بناتها بعد ولاداتهنَّ أو لتبقى في المستشفيات مع أحد أفراد العائلة، وكان عليٌّ في كلِّ مرَّةٍ يلاحظ كم يبدو البيت موحشًا في غيابها بعد أن تتوقَّف روائح الطبخ الشهيَّة عن الانبعاث من المطبخ، وتتوقَّف الجارات عن طرق الباب طلبًا للخبز الطازج ويتوقَّف الأولاد الذين يساعدون نبيلة في جلب المياه من عين الضيعة للعجين من التسكُّع في الفناء بانتظار خروجها في الصباح ليسألوها «خالتي نبيلة بدك مَيّ اليوم؟».

كان يحاول في اليوم الأوَّل لغيابها أن يحافظ على نظافة البيت. فيبلِّل إصبعه حين ينتهي من تناول الطعام وينحني ليلتقط الفتات الذي سقط على الأرض، ثم يضع الصحون المتَّسخة في الحوض واعدًا نفسه بأنَّه سيغسلها آخر النهار. ولكنَّه كان يشعر بالتعب حين يأتي المساء، وبدلًا من إشعال النار في صوبيا الحطب، العمليَّة التي تحتاج إلى الكثير من الصبر والأغصان الرفيعة وأعواد الكبريت، يكتفي بلفِّ نفسه بالبطَّانيَّة. ثم يتوقَّف عن حلاقة ذقنه فيبدو كثًّا وأبيض. في كلِّ مرَّةٍ كانت نبيلة تعود لتجده مكوَّرًا تحت البطَّانيَّة وقد بدا وكأنَّه أكبر بعشر سنواتٍ وتجد البيت «قايم قاعد» والغرف باردةً فتفهم من دون أن يقول شيئًا أنَّه سيبقى طفلًا وستبقى هي أمّه وأمّ بناته. بدلًا من محاسبته على إهمال هندامه وعدم إشعال النار لتدفئة البيت، كانت تشمِّر عن

ساعدَيْها وتُشعل النار ثم تنصرف لغسل الصحون وتنظيف المنزل وتحضير وجبةٍ تعوِّضه فيها عن أكل «النواشف» التي عاش عليها في غيابها.

نبيلة التي «تلحق الأفعى إلى وكرها» كما يقول لها عليٌّ أثناء الشجارات، لم تستطع أن تترك الأمر يمرّ مرور الكرام. «قال الله يسهلِّك قال!» راحت تكرِّر بانفعالٍ وسط اللهاث وهي تليِّن كتلة عجينٍ كبيرةً أمام النافذة. أرادت أن تذهب لعليٍّ وتقول له:

«جبر الخواطر ما بِكلِّف مصاري، ليه ما بتعترف إنَّك بتصير متل اليتيم بغيابي؟» لكن نبيلة التي حافظت على عزَّة نفسها في الحياة وكأنَّها شمعة نذرٍ تعبر بها نهرًا، لن تطلب الإحسان من أحدٍ حتى ولو بكلمة. فقرَّرت أن تلحق الأفعى إلى وكرها عن طريق عاشقة الظلّ. بحثت عن أقوالٍ وحكمٍ عن السفر ولمَّا وجدت اقتباسًا يقول إنَّ السفر يزيد الإنسان تواضعًا ويجعله يرى نفسه كجزءٍ صغيرٍ من عالمٍ لا متناهٍ حفظته ووضعته على صفحتها على الفايس بوك آملةً أن يساعد الاقتباس عليًّا في فتح موضوع سفر نبيلة مع عاشقة الظلّ. وقد كان لنبيلة ما أرادت. بعد مرور قرابة السنة على تراسلهما الأوَّل أصبحت لعاشقة الظلّ مكانةٌ ثابتةٌ وراسخةٌ في حياة عليّ. إلى جانب التفاصيل اليوميَّة البسيطة التي يطلعها عليها، كان يُخبرها عن زيارات بناته وأحفاده ومشاريعهنَّ ويرسل لها صورهنَّ التي يأخذها دون علمهنَّ بشكلٍ عفويٍّ حين يزرنه. لكنَّه تجنَّب الحديث عن نبيلة إلَّا حين كانت تسأله عاشقة الظلّ عنها. «كيف الأخت نبيلة؟» تسأله كلّ فترةٍ ثم تطلب منه أن يرسل لها سلامها.

أخبرها مرَّةً عن ابنته الكبرى أسمهان التي قرَّرت وهي في الثالثة والأربعين، وبعد أن سافر ابنها للدراسة في الخارج، أن تشتري سيَّارة نقلٍ صغيرةٍ وتصبح مصفِّفة قططٍ وكلابٍ تقدِّم خدماتها من غسلٍ وقصٍّ في مؤخرة السيَّارة خلال تنقُّلها بين القرى. قال عليٌّ لعاشقة الظلّ إنَّه يظنّ أنَّ ذلك القرار جاء كردِّ فعلٍ على شعورها بالفراغ بعد أن أصبح ابنها راشدًا ولم يعد بحاجةٍ إليها. استغربت نبيلة من تحليله هذا وتساءلت لماذا لا يشاركها هي بتلك الأفكار والاستنتاجات التي تخصُّ ابنتها؟!

«نبيلة تنوي أن تسافر الشهر القادم»، كتب لعاشقة الظلّ من دون مقدِّمات.

«جميل، نبيلة بحاجةٍ إلى استراحةٍ بعد كلِّ العمل المتعب الذي تقوم به في المخبز. لا بدَّ أنَّك ستشتاق إليها» كتبت عاشقة الظلّ.

«لن تسافر للاستجمام بل للاهتمام بابنتنا سناء التي ستلد بعد شهرَيْن تقريبًا. وأنا أستطيع أن أهتمّ بنفسي» كتب عليٌّ متجنِّبًا الكلام عن مشاعره أو إظهار عدم استحسانه لسفرها.

«ألا ترغب بالسفر معها»، سألته محاولةً معرفة المزيد.

«لا أبدًا. هذا ضدَّ قانون الدين وأنا اخترت خطِّي وطريقي في هذه الحياة ومقتنع باختياري الحمد لله».

«أعذرني يا شيخ، ولكنِّي لا أفهم ما المشكلة في ركوب الطائرة؟ أليست مثل السيَّارة؟» سألته عاشقة الظلّ متظاهرةً بالخجل من قصور معرفتها.

«أنت لا زلتِ صغيرة ولا عيب في السؤال. ركوب الطائرة محرَّم لأنَّه يعرِّض حياة الإنسان للخطر. كما أنَّ السفر بالطائرة لا يعتبر ضروريًّا مثل التنقُّل بالسيَّارة».

«نسبة الأشخاص الذين يلقون حتفهم في حوادث السيَّارات أعلى بكثيرٍ من ضحايا الطائرات. هل تعلم من سَنَّ هذه القوانين؟» سألت ببراءةٍ مصطنعة.

«نحن نتَّبع القوانين التي كان يتَّبعها السلف الصالح ولا نغيِّر فيها شيئًا لأنَّهم أعلم منَّا بأمور الدين وأكثر ورعًا من مشايخ هذه الأيَّام».

«حسنًا فلنتكلَّم عن شيءٍ آخر»، كتبت عاشقة الظلّ بعد أن لاحظت نبيلة أنَّ التوتُّر سينتقل إلى هذا الشبَّاك الافتراضيّ أيضًا. فهي لا تريد أن تخسر كلّ الطرق التي تؤدِّي إلى عليٍّ ولا أن تسدّ الكوَّة الأخيرة المتاحة لها للتلصُّص على دواخله والتحكُّم بها أحيانًا.

أكثر ما يؤلمها هو تقبُّل عليٍّ للاعتراض والأسئلة والنقاشات التي تأتي من عاشقة الظلّ، في حين أنَّه يستشيط غضبًا حين تُبدي نبيلة اعتراضًا على بعض الأفكار والقوانين. تشعر أنَّه يخاف من أسئلتها وقوَّة شخصيَّتها وثقتها بنفسها مع أنَّه يستغلّ كلّ هذا لصالحه حين يكون بحاجةٍ إليها. أثناء المواقف الصعبة يركض إليها طالبًا النجدة كالأطفال، كتلك المرَّة التي وقف فيها أمام ابن عمِّه متلعثمًا بعد أن قصده بغرض استئجار أرضه للزراعة وعرض عليه مبلغًا زهيدًا. دعاه عليٌّ للدخول من أجل شرب فنجان قهوةٍ

ومناقشة العرض وهرع إلى نبيلة في المطبخ شاكيًا قلّة ضمير بعض الأقارب الذين يستغلّون فقدانه ذراعه لعرض ثمنٍ بخسٍ مقابل أرضٍ كبيرةٍ ووفيرة المياه.

قدَّمت نبيلة القهوة لهما وسألت الشيخ عن عمله وعائلته. ولمَّا شعرت أنَّ عليًّا محرجٌ وشكَّت في قدرته على رفض طلب ابن عمِّه نظرًا لقربه من الشيخ ريدان، جلست على طرف الأريكة وتوجَّهت بحديثها إلى الزائر مباشرة. شكرته على عرضه أوَّلًا، لترفض بعدها طلبه بلباقةٍ زاعمةً أنَّها تنوي أن تستغلّ الأرض بنفسها بمساعدة أجراء من الرجال والنساء. ثم اختتمت قولها بأنَّ عليًّا وبعد أن فقد ذراعه صار بحاجةٍ إلى مصدر أكبر للدخل وأنَّ المبلغ الذي قدَّمه ضئيلٌ وغير منصف.

تغيَّر حال عليٍّ بعد تلك الزيارة بطريقةٍ ملحوظةٍ وأصبح يتجنَّبها ويكثر من الجلوس بمفرده. حين سألته عمَّا دهاه أنكر زعله. «ما في شي بس، أنا ما بحبّ الحكي»، قال بتجهُّم. تركته وشأنه حتى عاد إلى طبيعته. ثم تكرَّر الموقف مرَّةً واثنتَيْن وثلاثًا. أصبح بعد كلِّ مرَّةٍ تنقذه فيها نبيلة وتدافع عنه يظهر نحوها نفورًا غير مبرَّر.

«بيغار منك. لأنَّ ما عنده شخصيَّة وإنتِ ما بيهمّك حدا وبتحكي كلّ يلي بقلبك»، قالت لها راغدة منذ سنواتٍ بعيدة.

أيُعقل أن تكون راغدة على حقّ؟ تساءلت نبيلة بعد كلِّ موقفٍ مشابه.

15

موجةٌ أخرى من القلق اعترت أمل قبل إقلاع الطائرة بدقائق، جلست في مقعدها مغمضة العينَيْن تحاول استيعاب تلك المشاعر التي تتصارع في داخلها. ربَّما كان أقواها هو خوف الطفلة من ذنبٍ تقترفه من غير علم أمّها. توقَّفت عند كلمة «ذنب»، ثم سحبت دفترها من حقيبة الظهر الموجودة تحت المقعد الذي أمامها ونزعت القلم المربوط إلى جانبه ثم كتبت «ذنب» ورسمت حولها دائرة. قد لا تكون خطوتها التالية بريئةً تمامًا، لكن لأمل أسبابها التي تمنعها من إخبار أمّها بكلِّ مخطَّطاتها ومشاريعها. قطَّبت جبينها حين مرَّت بخاطرها تلك الفكرة. منذ متى وهي تخبر أمّها بمشاريعها؟ فهي تستاء من النساء اللواتي يخبرن أمَّهاتهنَّ بكلِّ شيءٍ وتعتبر ذلك مؤشِّرًا على غياب النضج. أسندت ظهرها إلى الوراء وبدت راضيةً عن التبرير الذي قدَّمته لنفسها. لكن بعد لحظاتٍ اجتاحها الخوف مجدَّدًا، وكأنَّ سائلًا ساخنًا قد

تصاعد من جوفها وانتشرت حرارته داخل رأسها. استسلمت للخوف مبرِّرةً لنفسها أنَّه شعورٌ طبيعيٌّ خاصَّةً وأنَّها في طريقها لمقابلة خالها ذوقان الذي انقطعت صلته بالعائلة منذ حوالى خمسين عامًا. وهي لن تراه فحسب، بل ستحاوره أيضًا، وسيكون حواره معها جزءًا من التقرير التلفزيونيّ الذي تعدّه عن الأشخاص اللامعين الذين نُبِذوا من مجتمعاتهم لسببٍ أو لآخر.

لم تستطع مقاومة صورة الحياة البديلة التي كانت ستحظى بها أمّها لو بنى ذوقان تلك المدرسة وأكملت نبيلة دراستها. هل كانت ستعيش حياتها بين تلك الجبال وتفني شبابها خلف الموقد وهي تصنع خبز الصاج؟ هل كانت ستمضي حياتها غريبةً بين أقرب الناس إليها؟ هل كانت ستتزوَّج عليًّا من دون كلّ الرجال وتحيا كنبتة حبقٍ غضَّةٍ في صحرائه؟

«رجاء أربطي الحزام يا آنسة» قالت لها مضيفة الطيران قاطعةً عليها أفكارها. ربطت أمل حزامها وعادت للتفكير مجدَّدًا.

أتتها فكرة محاورة الخال ذوقان بعد الاتِّصال الذي أجرته مع أمّها منذ أكثر من أسبوع، لكنَّها همَّشتها قبل أن تتجذَّر في رأسها وذهبت للنوم. راحت تتقلَّب في السرير واضعةً غطاء العينَيْن لتنعم ببضع ساعاتٍ من النوم قبل أن يأتي الصباح وتجتاح شمس الإمارات الستائر الرقيقة التي لا تصلح لتلك المدن. أخذت تشدّ غطاء العينَيْن حول رأسها وكأنَّها بذلك تطرد صورة الخال ذوقان وإغراء محاورته من أجل تقريرها. لكنَّها تعلم أنَّ عناد أفكارها يشبه شراسة الهندباء البرِّيَّة التي تقطع بذورها عشرات الكيلومترات لتغرس نفسها في حدائق بعيدة.

هكذا شعرت أمل بفكرة التواصل مع الخال ذوقان تمدّ جذورًا رفيعةً وقويَّةً إلى عمق رأسها وتصيبها بشيءٍ يشبه التيَّار الكهربائيّ الذي انتزعها من السرير ودفعها نحو الطاولة حيث يوجد اللابتوب. بحثت عن صفحته على فايسبوك، وكتبت له رسالةً مطوَّلةً قدَّمت فيها نفسها وأعربت عن اهتمامها برحلته وتجارته والمكانة التي وصل إليها في الأرجنتين، كما أخبرته باقتضابٍ عن التقرير الذي تقوم بإعداده وبرغبتها في محاورته. فقط عندما أنهت رسالتها وأغلقت اللابتوب أصبح بإمكانها الذهاب إلى الفراش.

أصابها الردّ المبكر الذي جاء عند ظهر اليوم التالي بشيءٍ من الصدمة. دلكت رأسها بيدَيْها «يا إلٰهي! لا بدَّ أنَّني تسرَّعت»، فكَّرَت بعد أن قرأت رسالته المقتضبة التي اقتصرت على بضع كلمات. ترحيبٌ وموافقةٌ على محاورتها مع سؤالٍ عن الوقت المناسب للقائهما. حفظت على هاتفها الرقم الذي تركه في آخر الرسالة وقرَّرت أن تنسِّق معه عبر الهاتف. حدث كلّ شيءٍ في غضون أيَّامٍ وها هي الآن على متن طائرةٍ ستأخذها إلى الماضي البعيد، إلى الرجل الهزيل في الصورة المعلَّقة داخل خزانة أمّها بدبُّوسٍ رأسه أحمر مفلطح. «مين هذا الرجّال يا أمّي؟» كانت أمل تسألها وهي طفلة، لكن نبيلة التي حرصت على الاحتفاظ بالصورة في عتمة خزانتها كانت تسرع لتُخرِج أمل من داخل الخزانة وتغلق الدرفة متذمِّرة «لشو بتدحشوا إيديكن بكلّ شي؟».

مع كلِّ سرٍّ تخفيه عن أمّها تشعر أمل بأنَّها تزيد مدماكًا جديدًا إلى الجدار الذي انتصب بينهما منذ اختارت الانفصال عن

سالم والانتقال للعيش في ألمانيا بعيدًا عن أبوَيْها وعن ابنتها رحمةً. لقد مرَّت سنواتٌ على مغادرتها البلاد واعتادت نبيلة على غيابها. «كلّ شي بيبلش كبير وبيصغر»، كانت تقول حين تذكر تلك الأيَّام الصعبة التي تلت رحيل أمل. لكنَّ هذا التقرير الذي تعمل عليه أمل سيغيِّر كلّ شيء. فهي لا تستطيع حتى أن تتخيَّل العواقب التي سيجلبها نشر التقرير والتبعات التي سيتركها على علاقتها بأبوَيْها وخاصَّةً بأمِّها. شعرت بشيءٍ من الغثيان وهي تفكِّر في تلك التفاصيل. كيف ستتلقَّى نبيلة خبر أنَّ ابنتها الصغرى قصدت قارَّةً أخرى لتلتقي أخاها ذوقان الذي حُرمت هي من رؤيته والتواصل معه لحوالي خمسين عامًا. هل يمكن أن تتفهَّم أنَّ أمل فعلت ذلك حِرصًا على مشاعر أمّها؟ أو أنَّها فعلت ذلك انتقامًا لحرمان نبيلة من أخيها. هل نحبّ أمَّهاتنا بطرقٍ لا يعرفن عنها شيئًا ويحبِبْننا بطرقٍ بعيدةٍ عن حاجاتنا الحقيقيَّة؟

كثرت الخربشات حول كلمة «ذنب» المكتوبة داخل دائرةٍ في دفتر أمل وأصبحت كلمات مثل: تواصل، احتواء، فشل، تجنُّب، هروب، غضب، تطفو حولها. الربط بين منع ذوقان من بناء المدرسة وتعاسة نبيلة أصبح حقيقةً مؤكَّدةً في رأس أمل. تملَّكتها الفكرة حدّ الاشمئزاز، حدّ الكراهية، حدّ الانتقام. لقد بدأت مشروعها مدفوعةً بإعطاء صوتٍ لكلِّ الذين ظُلِموا، لكنَّها الآن تجد نفسها مدفوعةً بتصفية حساباتٍ شخصيَّة. تجمَّدت الدموع في عينَيْها وهي تلقي برأسها على نافذة الطائرة. الكراهية ترهقها وتستنفد طاقتها. ماذا عساها أن تفعل بتلك الكراهية؟ فهي تعتبرها مادَّةً مستهلكةً لا تصلح لتصنع منها شيئًا. لو كان لها الخيار لتوقَّفت عند

الشعور بالغضب. لقد تدرَّبت لسنواتٍ على السماح لنفسها بالشعور بالغضب، وتعلَّمت كيف تستحضره من أجل أن تتعامل معه. اشتركت في مجلَّةٍ متخصِّصةٍ بالصحَّة النفسيَّة، كما جمعت كتبًا خلال أسفارها وقرأت دراساتٍ من أجل التمكُّن من تمييز ذلك الشعور واستغلاله لمصلحتها. من الطبيعيّ أن تفقد النساء القدرة على الغضب لأنَّ الجميع ينتظر منهنَّ أن يكنَّ جميلاتٍ ورقيقات، فيتدرَّبن منذ الصغر على طمس الشعور بالغضب ويستبدلنه بالانهيار، ثم يطلبن بعدها المساعدة من صديقاتهنَّ وأمَّهاتهنَّ أو من الأطبَّاء النفسيِّين. يُغرِقن الغضب بالمهدِّئات أو الكحول أو الاستهلاك والتبذير. ولكنَّ الغضب ينام ولا يموت. يعود على شكل كراهيةٍ للذات ومبالغةٍ في عمليَّات التجميل، على صورة أوجاعٍ في الرأس والمعدة، على شكل إرهاقٍ مزمنٍ وفقدان الشهيَّة للحياة. كما أنَّه لم يعد بالخبر الجديد على الأطبَّاء أنَّ الغضب المكبوت يعود على شكل انفجارٍ جسديٍّ ينقلب فيه الجسد على نفسه ويترجم هذا الكبت في إنتاج خلايا سرطانيَّة.

نظرت إلى الرجل النائم إلى جانبها في المقعد برأسه المنخفض وذقنه الذي التصق برقبته، ثمّ جالت بنظرها على رؤوس من حولها من المسافرين، شعرت بشيءٍ من التعاطف تجاههم جميعًا وتساءلت عن علاقاتهم بآبائهم وأمَّهاتهم، عمَّا إذا كان ذلك الشعور المريب، الذي يشبه الزئبق يتأرجح بين الغضب والذنب، يقضّ مضاجعهم أيضًا. سحبت دفترها للمرَّة الثالثة، أنارت الضوء الصغير فوق مقعدها، وراحت تفكِّر بالأسئلة التي ستطرحها على الخال ذوقان أثناء الحوار.

حين تحدَّثا عبر الهاتف علمت أمل أنَّ الخال ذوقان قد انتقل من الأرجنتين بعد أن تقاعد في سنِّ السبعين تاركًا إدارة مؤسَّسته لأولاده ليستقرَّ مع زوجته في فلوريدا حيث اشترى ڤيلَّا تطلّ على خليج المكسيك. شعرت وكأنَّها تكلِّم أحد الرجال المسنِّين في القرية حين هاتفته لأوَّل مرَّة. «ع مهل لصُفّ العربيَّة واحكيكي»، قال بلهجته الجبليَّة الأصيلة التي بدأت تنقرض في القرى بين الأجيال الصاعدة. لم يعد أحدٌ يقول عن السيَّارة عربيَّة، ولا عاد أحد يتكلَّم بمخارج الحروف الدقيقة تلك. دعاها للتصوير في بيته مؤكِّدًا لها أنَّها لن تجد مكانًا أكثر هدوءًا أو ذا إطلالةٍ أفضل من منزله. وافقت أمل بعد أن دعاها إلى العشاء في بيته عقب انتهاء التصوير.

من المفترض أن يصل فريق التصوير إلى فلوريدا في اليوم التالي لوصول أمل، لذلك استغلَّت بقيَّة النهار في التنزُّه على الشاطئ المقابل للفندق الذي نزلت فيه. راحت قدماها، مع كلِّ خطوة، تغرقان في الرمل الأبيض الذي يشبه الطحين بنعومته ولونه الفاتح. جلست على بعد عدَّة أمتارٍ من البحر وملأت قبضتَيْها بالرمال، ثم أغمضت عينَيْها وراحت تتخيَّل ملمس الطحين الذي أمضت طفولتها تلعب به. ملمس الطحين يشبه ملمس الغيوم، كانت تقول وهي طفلة، ثم قرَّرت أنَّه يشبه ملمس غزل البنات، وفي النهاية صارت تقول إنَّه يشبه الغرفة الجوَّانيَّة المبنيَّة من الحجر القديم في بيت جدَّتها. ربَّما ارتبطت برودة الطحين ورائحته في مخيِّلة الطفلة التي كانتها، بتلك الغرفة القديمة المظلمة. زعق نورسٌ كبيرٌ إلى جانبها، فتحت عينَيْها قليلًا، ولمَّا

طار أغمضتها مجدَّدًا ودسَّت قدمَيْها أعمق في الرمال الرطبة. حضرتها صورة نبيلة بالعصبة على رأسها وثيابها الملوَّثة بالطحين وهي تجرُّ شرشفًا تكوَّمت فوقه عشرات الأرغفة. تسرع نبيلة بنقل الأرغفة إلى غرفة المؤونة بينما تصيح أمل ذات الخامسة عشرة:

«إمِّي عجّلي! خبّي الخبزات، وصل سالم».

كانت أمل تصيح بتلك الجملة في كلِّ مرَّةٍ تسمع فيها توقُّف محرِّك سيَّارة خطيبها أمام البيت يليه صوت صفرةٍ قصيرةٍ تصدر من السيَّارة عندما يقفلها بالضغط على علَّاقة المفاتيح. لم تُرِد أمل في بداية الطريق أن يعرف خطيبها أنَّ أمّها تبيع الخبز من أجل لقمة العيش.

«بيقول أبي فاشل ومش سألان عنك»، قالت مدافعةً عن وجهة نظرها.

ولكن نبيلة، التي تستوعب الجميع والتي لم يكن بيدها حيلةٌ سوى أن تستمرَّ في صناعة الخبز وبيعه، حوَّلت الأمر إلى مزحةٍ وصارت في كلِّ مرَّةٍ يصل فيها سالمٌ تهرع لتخبِّئ كومة الأرغفة وهي تقول ضاحكة «بدِّي قوم أخفي معالم الجريمة». عندما كبرت أمل «وكبرو عقلاتها» كما تقول نبيلة، أصبحت تتباهى بأمِّها أمام الجميع وتأخذ من خبزها إلى الجامعة لتطعم رفاقها وأساتذتها. صارت في كلِّ مرَّةٍ تسأل أمّها عمَّا إذا قامت بصناعة الخبز تقول «شو ما في جريمة اليوم؟».

ابتسمت أمل وفتحت عينَيْها اللتين تبلَّلتا بالدموع. وقفت لتكمل نزهتها، ثم سرحت بنظرها صوب البحر والشمس التي

بدأت باستعراض مهرجان ألوانها العجيب. تساءلت عن طبيعة الجمال، عمَّا إذا كان يتحوَّل إلى ألمٍ عندما نكون مثقلين بمشاعر متناقضة. تمنَّت لو أنَّ أمَّها تسير إلى جانبها. لطالما تمنَّت لو يكون بإمكانها أن تطوي أيَّ منظرٍ طبيعيٍّ كما تطوي النساء الشراشف الكبيرة ذات الرسوم والألوان الزاهية وتأخذه لأمّها كي تتنعَّم برؤيته. لو كانت الحياة أقلّ تعقيدًا لكانت نبيلة الآن هنا، تمشي بجوارها وتستعدّ للقاء أخيها وقرَّة عينها بعد خمسة عقودٍ من الفراق. لكن ما قد يبدو بديهيًّا وبسيطًا في حياة الآخرين، كسفر أمٍّ وابنتها معًا، يصبح ضربًا من ضروب المستحيل حين يحيط الناس أنفسهم بأسوارٍ لا متناهيةٍ من القوانين والمحظورات فيذعنون لها ناسين متى وكيف ولماذا بدأت.

فكَّرَت أنَّه يشبه أحد التماثيل التي تراها أمام البحيرات في المدن الأوروبيَّة، وهي مقبلةٌ عليه من الصالون إلى الشرفة حيث كان بانتظارها. كان جالسًا مقابل المحيط ببدلةٍ كُحليَّةٍ مؤلَّفةٍ من ثلاث قطع، لفتتها أناقته والفولار النبيذيّ الذي التفَّ حول عنقه بعنايةٍ وأبرز بياض شعره الغزير. بعد السلام والتحيَّة، جلست قبالته وراحت تنظر إلى خطوط وجهه الهادئة تحاول ربطه بوجه الرجل الهزيل الذي رأت صورته في خزانة أمّها. أخبرته عن الصورة وأخبرها عن علاقته بنبيلة:

«كان في ذكاء وفضول بعينَيْها مش موجودين بعيون حدا من أولاد الضيعة» قال وكأنَّه يستحضر وجه أخته من بين ركام الذكريات.

«توفّى جدّي بو ذوقان من 12 سنة. العواض بسلامتك» قالت أمل بشيءٍ من الأسف.

هزَّ ذوقان رأسه وسرح في البحر. «بَعْرِف»، قال من دون أن ينظر إليها.

أتت أمل إلى فلوريدا عازمةً على سماع قصَّة ذوقان بلسانه، منتظرةً أن يُخبرها عن تفاصيل مشروع المدرسة التي لم تُبنَ وعن عذابات الشابِّ الذي رحل ولم يعد، لكنَّها لم تكن تعلم أنَّها ستستمع إلى حقائق أخرى لم تكن في الحسبان.

عادت المرأة التي استقبلت أمل ورافقتها إلى الشرفة مع كوب ماءٍ وحبَّتي دواءٍ هذه المرَّة، ففهمت أمل أنَّها ممرِّضته. عندما لاحظ نظرات أمل المتفحِّصة لها تذكَّر ذوقان أن يعتذر عن غياب زوجته التي ذهبت لتزور ابنهما في الأرجنتين. بعد أن شرب الماء، وضع الكوب على الصينيَّة وسحب فوطةً من جيبه وجفَّف فمه.

«كيف عرفتي إنِّي أنا عمَّرت المدرسة في عينصورة؟» سألها ذوقان وكأنَّه تحوَّل إلى شخصٍ آخر.

«أيّ مدرسة؟» سألت أمل بارتباك «قصدك المدرسة يلِّي هلق موجودة؟ كيف؟».

«عن جدّ ما بتعرفي؟» سأل باستغرابٍ أكبر. «إذا ما عرفتي إنُّو أنا يلِّي بنيتها شو خطر لك بعد كلّ هالسنين تيجي تعملي معي مقابلة؟».

أصغت أمل بانتباهٍ شديدٍ إلى الجزء المفقود من قصَّة خالها.

غادر ذوقان عشيَّة يوم صيفيٍّ من عام 1975 تجنُّبًا للفضيحة التي بدأت تقترب من العائلة بعد تلك المشاجرة وبعد انتشار خبر ارتباطه بامرأةٍ أرجنتينيَّة، لكنَّه لم يغادر لبنان كما ظنَّ الجميع، بل أقام في فندقٍ في منطقة المتن متجنِّبًا العاصمة حيث كانت الحرب مستعرَّة، وراح يلتقي بأشخاصٍ مؤثِّرين من القرى المجاورة. فاشترى أرضًا جديدةً وتطوَّع بعض معارفه للإشراف على البناء واستخراج التراخيص اللازمة من وزارة التربية وتدشين المدرسة. لم يغادر ذوقان لبنان قبل أن يوقِّع على جميع المستندات ويدفع جزءًا كبيرًا من التكاليف. تعهَّد شركاء ذوقان بإبقاء الأمر سرًّا فيما بينهم خاصَّةً بعد أن حذَّرهم من ذكر اسمه راجيًا إيَّاهم أن يعتبروها حسنةً مخفيَّةً لأنَّ هدفه هو تعليم أولاد القرية لا إثارة النعرات أو تحقيق سمعةٍ طيِّبة.

انتهى بناء المدرسة بعد ثلاث سنواتٍ من مغادرته واستلمت إدارتها السيِّدة «إنصاف»، صديقة ذوقان الشيوعيَّة التي تعيش في قريةٍ مجاورةٍ لعينصورة. كانت من القلائل اللواتي حصَّلن تعليمًا جامعيًّا قبل اندلاع الحرب. بدا الارتباك واضحًا على ملامح أمل وهي تستمع إلى القصَّة. صمتت قليلًا ثم قاطعته:

«هي ذاتا مِس إنصاف مديرة مدرستنا؟» سألت بدهشةٍ وكأنَّها غير مصدِّقة.

هزَّ ذوقان رأسه وأكمل «زرت المدرسة مرَّتَيْن. مرَّة بنصّ الثمانينيَّات ومرَّةً بأوَّل التسعينيَّات». ثم مدَّ يده إلى داخل سترته وأخرج من جيبه صورةً وأعطاها لأمل. شهقت أمل لدى رؤية الصورة وشعرت بشحنةٍ كهربائيَّةٍ تنتشر في جسدها. في الصورة

كانت نبيلة تقف بمنديلها الطويل وراء بناتها الأربع تحت الشمس الحارقة وكأنَّها دجاجةٌ مع صيصانها، بينما يظهر وراءهنَّ سور ملعب المدرسة. تبدو أمل ـ في مقدِّمة الصورة التي بدأت تميل إلى الاصفرار ـ وهي في الخامسة أو السادسة من عمرها بوجهٍ عابسٍ وشعرٍ قصيرٍ يشبه شعر الصبيان. تأمَّلت الصورة التي تعرفها جيِّدًا، فأمُّها تملك واحدةً مطابقةً لها في البيت، كما أنَّها تذكر اليوم الذي التقطت فيه تلك الصور بوضوح. يومها نُظِّمت حفلةٌ لعيد الأمّ في المدرسة وقاموا بتصوير كلّ امرأةٍ مع أطفالها لإرسال الصور إلى الأمَّهات مع بطاقات معايدة.

«إنصاف عطتني ياها»، قال ذوقان وهو يمدّ يده ذات الرجفة الخفيفة لاستعادة الصورة من يد أمل ووضعها في الجيب الداخليّ لسترته.

لربَّما أرادت إنصاف أن يرى ذوقان كيف عاد بناء المدرسة بالخير على أخته وبناتها، ولربَّما أرادت أن تريه كيف صارت نبيلة تلك الأخت الصغيرة التي أحبَّها وفقد التواصل معها بسبب معارك الكبار وحساباتهم.

«كيف صحَّتها؟ خبريني عنها. بعدها عم تقدر تخبز؟» سأل ذوقان، وفهمت أمل أنَّه يسأل عن أمّها.

كيف يعرف كلّ تلك التفاصيل عن نبيلة وكأنَّه تركها البارحة؟ تساءلت أمل في رأسها. لكنَّه أكمل ليوضح أنَّ إنصاف أحضرت له ـ حين زار المدرسة ـ الأرغفة التي أتت بها من عند نبيلة وحثَّته على الأكل منها. «خبزات أختك أطيب خبز ممكن تذوقو بحياتك»، كانت تقول له وهي تمضغ الخبز وتغمض عينَيْها.

«إيه أمِّي ما فيها تقعد بلا شغل». قالت أمل ثم سحبت موبايلها وراحت تريه صور العائلة فردًا فردًا من بينها صورٌ لنبيلة وهي تجلس خلف الصاج وتخبز الأرغفة الذهبيَّة.

«أمتين بدأت تخبز؟» سأل أمل مستوضحًا عن الوقت الذي بدأت فيه نبيلة بمهنة الخبز.

رفعت أمل كتفَيْها وكأنَّها تقول إنَّها لا تعرف. توقَّفت عند سؤاله واستغربت أنَّها لم تسأل نفسها ولا طرحت على أمّها هذا السؤال من قبل. لكنَّها أخذت دفترها وكتبت فيه السؤال واضعةً ثلاثة خطوطٍ تحت كلمتَيْ متى ولماذا.

«تواصلتْ مع حدا تاني من العيلة؟» سألته أمل وهي تأخذ رشفةً من عصير البرتقال الذي قدَّمته لها مساعدة ذوقان.

«كنت على تواصل مع أختي سمر»، قال وهو يراقب قاربًا شراعيًّا يجتاز المساحة الظاهرة أمامهما من المحيط. نظرت أمل إلى قسمات وجهه متسائلةً إذا كان يعلم بما حلَّ بسمر. أغمض عينَيْه للحظةٍ وأضاف «الله يرحمها».

أخبرها أنَّه تواصل مع سمر عن طريق تاجرٍ لبنانيٍّ يعيش في أستراليا وبعث لها معه برسالةٍ مكتوبة، فراحت بعدها تتَّصل به مرَّةً كلّ شهرٍ من مكان عملها قبل أن تنتشر الهواتف ويصبح لها جوَّالها الخاصّ مع بداية الألفيَّة.

«انقطع التواصل بيناتنا حوالى 2004 بعد أن عرف زوجها وحطَّم التلفون وضربها»، قال ذوقان وقد ترقرقت الدموع في عينَيْه.

«ما عرف إنَّك أخوها؟»، سألت أمل باستنكار.

«عرف أكيد وقال إنِّي كافر ولازم تتبرَّأ منِّي»، قال ذوقان وهو يجفِّف عينَيْه بالفوطة التي نُقش عليها حَرفان يمثِّلان اسمه وعائلته. عرف ذوقان لاحقًا عن طريق معارف له في أستراليا أنَّ أخته أصابها السرطان وأنَّها عادت لتموت بين أهلها في لبنان.

«لو عرفت، ولو سمحولي، كنت جبتها حكَّمتها بأميركا وتلقَّت أحسن رعاية».

«معقول خالتي سمر ما خبَّرت أمِّي بتواصلكم؟!» سألته أمل وكأنَّه يعلم كلّ ما كان يدور بين أختَيْه. ثم أخبرته عن الشهر الأخير الذي قضته نبيلة في رعاية سمر قبل وفاتها. تكلَّما أيضًا عن المسكينة نجاة التي نذرت أمّها حياتها لرعاية إبراهيم.

«حيواتهنَّ عم تروح هدر»، قال ذوقان وهو يهزّ رأسه متأسِّفًا على مصير أخواته.

اتَّفقا على التصوير في اليوم التالي ورجته أمل أن يخبر قصَّته كاملةً من غير أن يحذف الجزء المتعلِّق ببنائه المدرسة الحاليَّة. حاول ذوقان أن يتملَّص من ذكر هذا التفصيل معربًا عن رغبته في إبقاء الأمر حسنةً مخفيَّة. لكن أمل عادت وشدَّدت على الدور الإيجابيّ الذي يلعبه هؤلاء «الضالُّون» في مجتمعاتهم وعمَّا يقاسونه بسبب اختلافهم.

فتح ذوقان فمه ليقول شيئًا ثمّ صمت، وعندما لاحظ أنَّ أمل ما زالت تنتظره ليجد الكلمات المناسبة هزَّ رأسه بشيءٍ من الأسى وتكلَّم: «في واحد قلِّي إنُّو يلِّي مثلي بيعمل حسنات كرمال يكفِّر

عن ذنوبو ويشتري رضا الأهل والقرايب»، قال ذوقان واضعًا كلتا يدَيْه على رأس عصاه، ثم ابتسم ابتسامةً باهتةً ما لبثت أن اختفت.

«حكي فاضي»، قالت أمل بانفعال. «ما رح نسمح لإنسان تافه يحدِّد شو ينقال بالتقرير. لو بدَّك جاه ورضا الأهل ما كنت تكتَّمت على بناء المدرسة لأكثر من خمسين سنة».

بعد القليل من الأخذ والردّ، بدا ذوقان راضيًا عن تحليلها ورؤيتها للأمور، ووعدها بأن تسير المقابلة في اليوم التالي على ما يرام. وحين وقف عند الباب ليودِّعها، نظر ذوقان مطوَّلًا إلى الحلية المتدلِّية من قلادة أمل، ثم سألها.

«من أوَّل ما وصلتي وأنا عم حاول أعرف شو هذا يلِّي معلَّق بالسلسلة؟».

ابتسمت أمل ثم اقتربت منه وحضنته بقوَّة.

«بكرا بعد المقابلة بخبرك، تشرَّفت بمعرفتك يا خال»، قالت قبل أن تهبط الدرج العريض لتركب سيَّارة الأجرة التي كانت في انتظارها.

خرجت أمل من بيت خالها بسؤالَيْن كبيرَيْن يثقلانها. شعرت وكأنَّهما بندولَا ساعةٍ أثريَّةٍ يتأرجحان في اتِّجاهَيْن متعاكسَيْن داخل رأسها ويمنعانها من الانصراف عنهما: هل حقًّا يبحث المنبوذون عن رضا الأهل والقبيلة عن طريق التمادي في العطاء (حتى ولو حدث ذلك بطريقةٍ غير واعية)؟ هل حقًّا نواجه الرفض بالبذل أمام من رفضنا؟ تذكَّرت مكرمًا وحسناته، خالها ذوقان والمدرسة، أمّ

بيسان التي ستجري معها مقابلة حين تعود إلى لبنان، وفهمت أنَّ جميعهم يقدِّمون لقراهم وعائلاتهم الكثير وفي معظم الأحيان يقدِّمون ما يفوق قدراتهم على العطاء.

أمَّا السؤال الثاني فكان عن نبيلة: متى ولماذا بدأت بصناعة الخبز كمشروعٍ ربحيّ؟ هل كان هذا قدرها منذ البداية لأنَّ أمَّها صانعة خبزٍ أيضًا؟ أصابت أمل قشعريرةٌ خفيفةٌ وهي تستعرض تلك الأفكار في المقعد الخلفيّ للتاكسي الذي يقلّها إلى الفندق. لماذا ترعبها فكرة الأقدار المرسومة مسبقًا؟ ولماذا ترفض غياب الإرادة الفرديَّة بهذا الشكل؟ فهي لم تسأل أمّها من قبل عمَّا إذا كانت هناك لحظةٌ بعينها حثَّتها على اتِّخاذ ذلك القرار، لكنَّها تتذكَّر الكثير من التفاصيل على شكل صورٍ مخزَّنةٍ في الذاكرة. تميل أمل إلى الاعتقاد أنَّها كانت السبب في اتِّخاذ أمّها صناعة الخبز كمهنة.

ربَّما بدأت قصَّة انكسارهما بحذاءَيْن. أحدُهما أبيضُ ذو كعبٍ عالٍ محشوٌّ بالخرق كان على نبيلة أن تنتعله يوم زفافها في حفل استقبال المعازيم. حذاءٌ أكبر من قدمَيْها بثلاثة مقاساتٍ يغطِّيه فستانها الأبيض الطويل بينما تكشف عيناها الكبيرتان المحدَّدتان بالكحل عن نظرةٍ أقرب إلى الذلّ منها إلى حزن العرائس. ساعدتها أختها نجاة على ارتداء الحذاء وربَّتت على كتفها مواسية، شارحةً لها أنَّ حذاء الزفاف يُلبس مرَّةً واحدةً لذلك لم يشترِ أهل العريس لها واحدًا جديدًا على مقاس قدمَيْها. كانت في السادسة عشرة من عمرها عندما وقفت تستقبل المعازيم منتعلةً حذاء امرأةٍ غريبة. ربَّما قرَّرت في تلك اللحظة أنَّها ستصبح بائعة خبزٍ في يومٍ ما.

ولربَّما أتى ذلك اليوم عندما عادت أمل من ساحة القرية حيث كانت تلعب مع أطفال الحيّ باكيةً، وحين دخلت المنزل خلعت حذاءها الجديد ذا الساق العالي ورمت فردتَيْه بغضب، فارتطمتا بالجدار. حين سألتها نبيلة عن سبب غضبها، أخبرتها أمل وسط بكائها أنَّ الصبيَّ الغريب الذي يزور جارتهم يدَّعي أنَّ حذاءها كان له وأنَّها سرقته منه وهو نائم. حملت نبيلة الحذاء وخرجت من باب البيت مسرعة. راقبتها أمل بقدمَيْها الحافيتَيْن، من خلف سياج حديد النافذة، وهي تدخل إلى بيت الجيران. وبعد دقائق، عادت نبيلة إلى البيت من دون الحذاء، ثم أجلست أمل على ركبتها ووعدتها أن تشتري لها حذاءً جديدًا بعد عشرة أيَّام. لم تكن نبيلة تمتلك ثمن الحذاء ولا كانت تعلم كيف ستحصل على ثمنه، لكنَّها أعطتها موعدًا محدَّدًا لتتمكَّن أمل من رصد عدد الأيَّام على أصابعها. أرادت نبيلة لذلك الوعد أن يصبح محسوسًا، أن يحمي أمل من المذلَّة التي شعرت بها يوم زفافها ولا زالت تتذكَّر مذاقها بعد أكثر من عشر سنوات.

رفضت نبيلة أن تُلبِس بناتها الثياب المستعملة. كانت تعتذر عن قبولها من المحسنين بكلِّ أدبٍ من دون أن تشعر بحاجتها إلى التبرير. أرعبها الشعور بالذلِّ الذي قد تسبِّبه النظرة الفوقيَّة للمتبرِّعين بالثياب وخافت أن تشعر بناتها أنَّهنَّ لسن جديراتٍ بثيابٍ جديدة. لكن تلك الجارة، التي جاءت إليها بكيسٍ من الثياب والأحذية، حلفت لنبيلة أنَّ الحذاء كان لابن أختها الذي يعيش في محافظةٍ بعيدةٍ وأنّ لا أحد في عينصورة انتعله أو رآه من قبل. كان الشتاء على الأبواب، وحين حملت نبيلة الحذاء

الجلديّ الأزرق المبطَّن بالفرو، تذكَّرت قدمَيْ أمل الباردتَيْن طوال الشتاء ولم تستطع المقاومة. لم تأخذ من الكيس سوى ذلك الحذاء الذي بدا جديدًا بسبب قلَّة الاستعمال. لكنَّ الصبيّ المدلَّل الذي كان يزور خالته في عينصورة، لم يغفل عن أنَّ هذا الحذاء كان له بالفعل.

بعدها بيومَيْن حصلت نبيلة على مهنةٍ جديدة، وبعد عشرة أيَّامٍ حصلت أمل على حذاءٍ جديد.

نسمات شباط الممتزجة بشمس فلوريدا جعلت أشجار النخيل تتمايل ببطءٍ خارج الواجهات الزجاجيَّة الكبيرة لمنزل الخال ذوقان. ظهرت أشجار البلُّوط بأغصانٍ عاريةٍ بينما التقطت أوراق أشجار الماغنوليا أشعَّة الشمس وعكستها مخلِّفةً وهجًا يبعث على الشعور بالدفء. بدا الخال ذوقان النحيل في غاية الأناقة حين جلس أمام الكاميرا، لكنَّه بدا أيضًا أكثر جدِّيَّةً وتوتُّرًا من اليوم السابق. اضطرُّوا لأخذ استراحتَيْن بناءً على طلب ذوقان: واحدةٍ من أجل أن يأخذ الدواء، واستراحةٍ ثانيةٍ بسبب ترقرق عينَيْه بالدموع وهو يتحدَّث عن مغادرته لضيعة تلّ الخرُّوب وهو في الرابعة عشرة من عمره ووداعه لقبر أمّه.

ما عدا ذلك سار كلّ شيءٍ آخر على ما يرام وتحدَّث ذوقان بطلاقةٍ وتفصيلٍ عن الخطَّة السرِّيَّة التي اتَّبعها لبناء المدرسة وعن المشاجرة التي حصلت حين علم أهل القرية بزواجه من امرأةٍ أرجنتينيَّة، وعن قلبه الذي لا يحمل ذرَّة حقدٍ تجاه أيّ شخص.

وحين سألته أمل عمَّا إذا كانت لديه رسالةٌ يودّ أن يوجِّهها إلى أهل قريته وللطائفة الدرزيَّة، نظر مباشرةً إلى عدسة الكاميرا وإذا بنظرة عينَيْه تتغيَّر وملامح وجهه تصبح أكثر حدَّة. تنحنح قليلًا ثم قال:

«أنا لا أكنّ لأهل ضيعتي وطائفتي إلَّا كلّ خيرٍ ومحبَّة، ويحزنني كثيرًا أنَّهم يعتبروننني عدوًّا لهم، فقط لأنَّني اخترت لنفسي حياةً أخرى غير حيواتهم. تحزنني الطاقات التي يهدرها أهلي في ملاحقة ومعاقبة عقولٍ تفكِّر وقلوبٍ تعشق وأيادٍ تريد البناء لا الهدم. العالم كلّه تقدَّم لأنَّه سمح للمختلفين أن يكونوا مختلفين، ونحن لا زلنا نحارب الاختلاف والمختلف. الحرب الأهليَّة التي دمَّرت لبنان، ولا زالت، جاءت بسبب التعصُّب ورفض الاختلاف...».

رفع ذوقان بصره إلى سقف البيت وكأنَّه يبحث فيه عن كلمات، ثم قال:

«أريد أن أنهي حواري بأن أرسل سلامي إلى الجميع في قرية تلِّ الخرُّوب وسلامًا خاصًّا إلى شقيقتيَّ نجاة ونبيلة وإلى روح المرحومة سمر».

.Cut

قالت أمل ولاحظت معها الاسترخاء الذي ظهر على ملامح الخال ذوقان وقد مدَّ يده إلى ربطة عنقه وأرخاها على الفور. خلال التصوير، لم تستطع أمل أن تتجاهل الارتباك الذي بدا على هذا الرجل الكبير عمرًا وقيمةً حين بدأ يتحدَّث عن جذوره وأهله.

لثوانٍ بدا لها وكأنَّه طفلٌ تائهٌ مذعور، لكنَّها رجَّحت أن يكون تورُّطها في قصَّة خالها ذوقان وافتقارها للحياديَّة قد جعلاها تكثر من الملاحظة والتحليل.

غادر فريق التصوير وراحت أمل تتأمَّل المراكب الشراعيَّة من على الشرفة الكبيرة بينما تنتظر خالها أن يبدِّل ثيابه. سمعت رنين هاتفها في حقيبة يدها الكبيرة، فسحبته بحذر، وحين رأت اسم أمّها على الشاشة شعرت بقلبها ينبض وكأنَّه قنبلةٌ تتسلَّق الثواني في طريقها إلى الانفجار. أعادت الهاتف إلى حقيبتها بعد أن حوَّلته إلى وضعيَّة الصامت وجلست تفكِّر في ردَّة فعلها الغريبة على اتِّصال والدتها.

الأمَّهات يخبرن أطفالهنَّ أنَّهنَّ يعرفن عنهم كلّ شيءٍ بمجرَّد النظر إلى عيونهم أو سماعهم يتكلَّمون. وحين يكبر الأطفال تظلّ هذه الخدعة تنطلي عليهم. تنهَّدت أمل بعمقٍ وقد أدركت حجم المأزق الذي يشترك فيه الجميع والذي يسمُّونه «الخوف». وللخوف مئات الأوجه والصور، ولكلٍّ منَّا خوفٌ على مقاسه. خوفٌ مركَّبٌ من التجارب والأحداث والأصوات والروائح. «حين أشمّ رائحة العود أشعر برغبةٍ في الفرار»، قال لها أحدهم وهو يتذكَّر رائحة عطر والده الذي كان يعنِّفه ويعنِّف أمّه. وتقول شقيقتها سناء إنَّ صوت أمّ كلثوم يسبِّب لها انقباضًا في المعدة وشعورًا بالغثيان، لأنَّها في طفولتها كانت ترى أمّها تبكي وهي تسمع أغانيها. كلّ ما يهدِّد أمَّهاتنا هو خطرٌ وجوديّ. كيف الخلاص من هذا المأزق؟ كيف نتحرَّر من طفولتنا؟

«وهلَّق خبّريني شو هذا يلي بسنسالك؟» جاء صوت ذوقان

وقد تنحَّى عنه التوتُّر وخالطه شيءٌ من المرح.

ابتسمت أمل لأنَّ ذوقان لم ينسَ قصَّة الحلية المعلَّقة في سلسلتها الذهبيَّة، والتي وعدته أن تخبره إيَّاها اليوم.

«بتتذكَّر الخالة راغدة بقرية عينصورة؟»، سألته آملةً أن يتذكَّر تلك المرأة التي كانت صديقةً مقرَّبةً لأخته نبيلة.

ضيَّق عينَيْه وكأنَّه يسترجع صورةً ما في رأسه. «جسمها مليان وشعرها قاسي وبتضحك بصوت عالي. مزبوط؟» سأل مستفسرًا.

«إيه إيه بالضبط»، قالت أمل. «يمكن أمِّي تزوَّجت على عينصورة بسببها» قالت أمل ممازحة.

«ذكَّرتيني إسألك، شو كانت ظروف زواج نبيلة؟ أنا كنت سافرت»، سأل ذوقان وكأنَّه أدرك للتوّ أنَّ هناك أجزاءً فاتته من حياة أخته.

هزَّت أمل رأسها وقد فهمت أنَّه يريد منها أن تطلعه على كلِّ ما غاب عنه، فبدأت بإخباره القصَّة منذ البداية.

مكتبة
t.me/soramnqraa

16

ربَّما كانت راغدة بالفعل أحد الأسباب التي أتت بنبيلة إلى عينصورة. حين طلب عليٌّ يدها، كانت نبيلة على يقينٍ أنَّها ستموت قريبًا بسبب مرضٍ غامضٍ ألمَّ بها وجعلها تنزف لأيَّامٍ طويلةٍ كلّ شهر. أخفت الأمر عن أهلها من أجل حمايتهم ولعلمها بعدم قدرتهم على تحمُّل تكاليف علاجها، وأخفته عن راغدة لأنَّها تعلم أنَّ صداقتهما هي العزاء الوحيد لتلك المسكينة في قرية عينصورة النائية.

«هونيك بتعيشي حدّ الطريق»، قالت والدتها وهي تقطِّب جوارب أبي ذوقان المثقوبة عند الإبهام. وأكملت لتذكِّرها بصعوبة الحياة في تلِّ الخرُّوب التي لا تصلها طريق السيَّارات، وتقع على عاتق نبيلة مهمَّة جلب الموادّ الغذائيَّة للمنزل من قرية عينصورة سيرًا على الأقدام كلّ يوم. ولمَّا رأت أنَّ ابنتها لا تستجيب، ذكَّرتها براغدة. «صديقتك الزهراويَّة يلِّي بتحبِّيها بتصير جارتك»،

قالت مهيبة بدهاءٍ وهي تسترق النظر إلى نبيلة التي تجلس بقميص النوم متكوِّرةً في زاوية الغرفة بشعرها الأسود الطويل المنساب حول وجهها.

تركت بعدها مهيبة الجورب من يدها لتتفرَّغ لإقناع نبيلة بقبول طلب الزواج. فاقتربت منها وأكَّدت لها أنَّها لن تنال رجلًا بحسن عليٍّ ولطفه ما حييت، وأنَّها لن تسمح لها بمغادرة المنزل إذا ما رفضته. كان التعب قد تمكَّن من نبيلة التي فهمت ما أرادت لها أمّها أن تفهمه: أنَّ الخروج من المنزل لأجل إعطاء الحقن أو شراء الأغراض أو زيارة صديقاتها في القرية سيصبح محظورًا عليها إلى أن يأتي اليوم الذي تخرج فيه من بيت والدَيْها رفقة زوجها.

حين رأت نبيلة عليًّا للمرَّة الثانية كانت رائحة الخشب تملأ الهواء ووتيرة صوت طرق الفأس على الخشب تكسر صمت الصباح الذي غالبًا ما يكون هادئًا. استعجلتها مهيبة لتجهِّز الفطور وتخرجه للشابّ الذي يساعد والدها على تقطيع الحطب. كان يرفع الفأس فوق رأسه ليهوي به على عقدة الحطب حين أخرجت نبيلة صينيَّة الفطور لتضعها على الطاولة الخشبيَّة. تذكَّرت لحظتها أنَّ هذه ليست المرَّة الأولى التي تراه فيها. بعد التركيز في ملامحه تذكَّرت أنَّها رأته منذ عدَّة أشهرٍ في فناء بيت صديقتها حين مرَّ ليصطحب والد راغدة إلى الصيد. في اللحظة التي انتبه عليٌّ إلى وجودها، وضع رأس الفأس على الأسطوانة الخشبيَّة العريضة وأسند راحته على أعلى العصا وتبعها بعينَيْه الناعستَيْن حتى دخلت إلى المنزل. بدا لها بقامته الممشوقة وشاربه الكثّ

الذي يتّصل بسالفَيْه، كأنَّه محاربٌ خرج للتوّ من كتاب التاريخ. كان الجو حارًّا والغبار الناعم ينتشر في الهواء ويثير فيها القابليَّة للعطاس.

عندما عادت لتأخذ الصينيَّة إلى المطبخ كان والدها يغسل يدَيْه بالخرطوم على طرف الحقل وعليٌّ يجلس وحده خلف الطاولة. «يسلمو ديَّاتك الأكل كتيير طيِّب»، قال وهو يمدُّ الياء لينزع الطابع الرسميّ عن هذا التبادل المقتضب للكلمات. «صحتين»، قالت نبيلة من غير أن تنظر إلى وجهه. في المساء سمعتْ والدَيْها يشيدان بكرم عليٍّ وشهامته. «ما رضي ياخذ مصاري، ناوي يساعدني على نيَّة الخير»، قال أبو ذوقان وهو يتّكئ على المسند وينكش أسنانه بعود رفيع. «الله يكثِّر خيره، أبوه من الأجاويد وبيتهم بيت كرم»، قالت مهيبة بحماسٍ لا يرافق كلماتها إلَّا حين تتحدَّث عن مزايا الغرباء. فعلمت نبيلة أنَّهما تآمرا ضدَّها وفكَّرت أنَّها على أيَّة حالٍ ستموت بعد أشهر وأنَّها لا تريد أن تمضي أيَّامها الأخيرة مسجونةً داخل المنزل بل تفضِّل أن ترى راغدة أكثر وتشرب معها المتَّة وتسرح وإيَّاها في الجبال مع بقرتها «زينة».

مرَّ سربٌ من النوارس من أمام الشرفة فلاحظته أمل بطرف عينها، لكن ذوقان الذي كان يهزّ رأسه بين الفينة والأخرى بدا منغمسًا في الإصغاء لدرجةٍ قصوى جعلت كلّ شيءٍ من حوله يغيب. فأكملت.

لم تمت نبيلة بعد أشهرٍ بل علمت أنَّها، ككلِّ النساء على هذه الأرض، محكومٌ عليها بالنزف. وأنَّها ستنزف من رحمها

ومن قلبها ومن أمومتها ومن صداقتها حتى يتحوَّل النزيف إلى موردٍ بقدر ما هو عبء. لكن وجود راغدة كان فيه عزاءٌ لها، فقد ساندتها في تربية أطفالها وفي حفظ أسرارها وفي الترويح عنها في زعلها. وحاربتا معًا صرامة عليٍّ الذي كان يصغي أحيانًا لكلام الناس ويطلب من نبيلة أن تخفِّف مشاويرها إلى بيت راغدة المشبوهة وأن تمتنع عن مرافقتها في المناسبات. وحاربتا أيضًا الاحتجاج على هذه الصداقة من النساء المتديِّنات بعد أن نزلت الهداية على عليّ، بعد مقتل أخيه في الحرب الأهليَّة، وقرَّر أن يلتزم بالدين ويصبح شيخًا بعد مرور سنتَيْن على زواجه من نبيلة.

وبالعشوائيَّة نفسها التي زُجَّت نبيلةُ بها إلى هذا الزواج، اضطرَّت أيضًا أن تصبح شيخةً وترتدي زيّ الدين الكامل مثل زوجها. فالحرب والفقر جعلاها امرأةً بفستانَيْن فقط. وسكنها مع حماتها حوَّلها إلى امرأةٍ عديمة الخصوصيَّة، فقلَّما كانت تجد الوقت لتغلي السكَّر وتصنع عجينةً لتزيل الشعر عن ساقَيْها. وهكذا رضخت وفصَّلت ثوبًا أسودَ يلامس كاحلَيْها ومنديلَيْن أبيضَيْن. «ثوب الدين بيستّر الشعر والرجلَيْن والفقر»، قالت لراغدة في لحظة صدقٍ ممزوجةٍ بالذلّ.

ما زالت أمل تتخيَّلهما وهما تتهامسان وراء الموقد في ليالي صناعة دبس الرمَّان وتقهقهان بصوتٍ مسموعٍ بينما تتكوَّن فقَّاعاتٌ حمراء على سطع الوعاء المعدنيّ الكبير على النار. وحين تغمض عينَيْها تستطيع أن تراهما على سطح المنزل توزِّعان الكشك في كُتلٍ صغيرةٍ فوق شرشفٍ أبيض كي تجفّ تحت أشعَّة الشمس وتصبح قابلةً للفَتّ والطحن. راغدة دائمًا تضحك في ذاكرة أمل

أو تلوك الطعام أو تتحدَّث، فمثلها لا يعرف السكون ولا يقبل الترويض ولا يُساق بعصا.

لم تنس أمل أن تُجيب خالها ذوقان عن سؤاله بشأن الحلية. كانت في الثامنة من عمرها عندما رأت راغدة لآخر مرَّة، رأتها جالسةً إلى جانب نبيلة على الأريكة الطويلة في غرفة الجلوس وسمعتهما تتحدَّثان بصوتٍ منخفضٍ أقرب إلى الهمس. لاحظت أمل يومها أنَّ الفرح الذي عادةً ما يطغى على ملامح نبيلة في وجود راغدة كان غائبًا، لذلك جلست إلى جانب أمّها والتصقت بها. لكن راغدة أكملت الحديث واغرورقت عيناها بالدموع ثم رفعت الحلية المعلَّقة بقلادتها وعضَّت عليها قائلة: «برحمة إمِّي مش قادرة كفِّي هيك». وحين نهضت نبيلة لتجلب لها غرضًا من غرفة النوم، نظرت راغدة إلى عيني أمل البنِّيَّتَيْن الكبيرتَيْن اللتين كانتا تدرسان ملامحها باهتمام، وبعد لحظة تواصلٍ بالنظرات سألتها أمل «خالتي راغدة شو هذا المعلَّق بسلسلتك؟» وإذا براغدة، ومن غير أن تجيب، ترفع يدَيْها وتضعهما خلف عنقها لتفكّ القلادة وتعلِّقها على عنق أمل. لم تكن تعلم حينها أنَّها لن ترى راغدة بعد ذلك أبدًا.

في اليوم التالي عند السابعة صباحًا جهَّزت راغدة الفطور لوالدها ووضَّبت له زوَّادته ليأخذها معه إلى الحقل ثم دخلت إلى غرفتها. تأمَّلت نفسها مليًّا في المرآة قبل أن تلبس أجمل ثوبٍ لديها، وضعت بعدها الكحل على جفنَيْها وخطَّا من أحمر الشفاه القاني على شفتَيْها الرقيقتَيْن. ابتسمت وهي تضع على رأسها القبّعة الكبيرة ذات الشريط الكحليّ وتحدِّق إلى انعكاسها في

المرآة. أرسلت لنفسها قبلةً وسحبت حقيبة ثيابها وأطفأت الضوء في الغرفة.

من بين المنعطفات الجبليَّة ظهرت سيَّارة نقلٍ صغيرةٍ محمَّلةٍ بالخضار وتوقَّفت أمام منزل راغدة، وإذا بها تهبط السلالم تسحب حقيبةً جلديَّةً سوداءَ بيمينها وحقيبة يدٍ صغيرةً بيسارها. ركبت راغدة إلى جانب البائع الذي جاء من البقاع، فانحنى وقبَّلها على وجنتها. في المرآة الجانبيَّة لشاحنة الخضار، رأت نبيلة واقفةً على مفرق منزلها تلوِّح لها وتمسح دموعها.

تقافزت عينا الخال ذوقان فوق ملامح أمل وهي تخبره القصَّة، وكأنَّه قارئٌ نهمٌ يحاول أن يلتهم السطور ليعرف ماذا سيحدث لأبطال القصَّة. لكنَّ الفارق أنَّ ذوقان كان يعرف أولئك الأشخاص ويعرف حيواتهم الضيِّقة وقوانينهم الصارمة والحلول السطحيَّة لمعضلاتهم، لذلك ملأته الدهشة وفهم مدى الشجاعة والجنون اللذين على امرأةٍ أربعينيَّةٍ أن تتحلَّى بهما من أجل أن تركب سيَّارة رجلٍ أحبَّته وتذهب معه «خطيفة» إلى مكانٍ تجهله تمامًا.

سحب منديله من جيبه ومرَّره فوق عينَيْه وجبينه قبل أن يسأل أمل عن ردَّة فعل نبيلة وعن أصداء الفضيحة في القرية:

«قدِّيش حكيو عليها بعد ما هربت؟ ونبيلة شو عملت؟» استفسر باهتمام.

هزَّت أمل رأسها وكأنَّها كانت تتوقَّع أن يطرح عليها تلك الأسئلة واستمرَّت في الكلام. عندما كبرت أمل قليلًا راحت

تمطر أمَّها بالأسئلة حول الخالة راغدة لأنَّ الأجوبة الجاهزة التي انتشرت في القرية مثل: «واحدة مرتدَّة هربت مع رجَّال من دين تاني» أو «كلّ عمرها قحبة وبالآخر تخلَّت عن أبوها المسكين» لم تقنعها أبدًا.

وفي إحدى ليالي آب الدافئة أخبرت نبيلة أمل كلّ شيء عن راغدة. عن الفراغ العاطفيّ الذي عانت منه طوال حياتها، عن افتقارها للمسة حنانٍ من حبيبٍ أو قريبٍ وعن الأثر الذي تركه فيها تنمُّر أهل القرية ونعتهم إيَّاها بأقذر الأوصاف. أخبرتها أيضًا عن بائع الخضار الأسمر الذي كان يأتي من البقاع كلّ سبت، يفتح صندوق سيَّارة النقل ويتَّكئ على بابها لينادي على بضاعته. وحده ذلك الرجل رأى راغدة، وعندما كان ينظر في عينَيْها وهي تناوله المصاري كانت تشعر أنَّ وجهها يصبح حقيقيًّا وجميلًا. علمت نبيلة أنَّ راغدة تحبّه وعلمت أيضًا أنَّه كان يتردَّد على منزلها حين يهبط الظلام وتنقطع الكهرباء وتخلد القرية إلى النوم، لكنَّها ظنَّت أنَّها مغامرةٌ عاطفيَّةٌ عابرةٌ وأنَّ الأيَّام ستتكفَّل بإخمادها تمامًا كما تخمد كلّ قصص الحبِّ في تلك الوديان.

«ما كانت نبيلة عارفة إنَّها رح تهرب معه؟» سأل ذوقان بلهفة.

أفصحت راغدة عن مخطَّطها لنبيلة قبل ليلةٍ واحدةٍ من مغادرتها:

«هذا الموقف أصعب شي بالنسبة إلي. منشان هيك ما قدرت خبِّرك من قبل»، قالت راغدة وهي تمسك بيديْ نبيلة وتبكي ثم

أضافت «ما عندي شي إخسرو هون غير صداقتك، يا رفيقة روحي إنتي».

بكتا سويًّا بصمتٍ قبل أن تأتي أمل وتجلس ملتصقةً بأمّها. عندها وقفت نبيلة ودخلت إلى غرفة النوم لتأتي بغطاء طاولة كروشيه صنعته باستخدام سنَّارة حياكةٍ رفيعة، وحين عادت دسَّته في يد راغدة قائلة «هيذي هديَّة عرسك يا أحلى عروس. الله يهنِّيكي يا قلبي!».

تعانقتا عند الباب بينما كانت أمل مشغولةً بتفحُّص السلسلة الذهبيَّة التي وضعتها راغدة حول عنقها.

سحب ذوقان فوطةً ورقيَّةً من العلبة ومدَّ يده لأمل. أخذتها أمل وجفَّفت دموعها. راحا ينظران إلى المحيط بصمتٍ ويراقبان المركب الكبير الذي يتحرَّك ببطءٍ على بعد عدَّة كيلومتراتٍ من الشاطئ. وإذا بذوقانَ يسألها على حين غرَّةٍ عن السبب الذي جعل راغدة تعطيها القلب الذهبيّ:

«ليش بتفتكري أعطتك القلب إلك إنتي بالذات؟».

لم تكن أمل جاهزةً للردِّ على هذا السؤال لأنَّها ببساطةٍ لا تعلم لماذا اختارتها هي. لكنَّها تعلم أنَّ راغدة بتخلِّيها عن تلك القلادة، تركت وراءها مكانًا كانت فيه مجبرةً على القسَم على قبر أمّها كي يصدِّقوها؛ تخلَّت عن المجهود الذي بذلته من أجل إقناع الآخرين، واستغنت عن قلبها المقضوم. باختيارها الحبّ بدَّلت راغدة قلبها الذي أعياه اليتم والإهمال والإهانة بقلبٍ جديدٍ جاهزٍ لاختبار الحياة بحلوها ومرِّها. حياةٌ من اختيارها هي!

بدا ذوقان راضيًا عن هذا التحليل، لكنَّه زفر زفرةً طويلةً وكأنَّه امتلأ بمشاعر تفوق طاقته على التحمُّل.

ضحكت أمل مطوَّلًا حين سألها الخال ذوقان عمَّا إذا كانت ستجري مقابلةً مع راغدة من أجل تقريرها. ثم أوضحت له أنَّ راغدة غادرت منذ أكثر من ثلاثين سنةً وأنَّ أحدًا لا يعرف عنها شيئًا. لكنَّها قالت له: لو أنَّ الجنون والشجاعة يعتبران إنجازًا في معايير هذا العالم، لكانت بحثت عن راغدة وأجرت معها مقابلة.

نظرت إلى ساعتها ومدَّت يدها إلى حقيبتها وكأنَّها تستعدّ للمغادرة، لكنَّ الخال ذوقان أرادها أن تبقى لوقتٍ أطول.

«مين بدِّك تحاوري من بعدي؟» سألها محاولًا أن يربح المزيد من الوقت معها. مكتبة سُر مَن قرأ

وضعت حقيبتها جانبًا، طقطقت أصابعها، وابتسمت ابتسامةً مرحةً استعدادًا لمشاركته قصَّةً أخيرة.

تظنّ أمل أنَّ قصَّة أمّ بيسان كانت الشرارة التي أشعلت في رأسها فكرة إنتاج تقريرٍ عن الصعوبات التي تواجهها الشخصيَّات اللامعة في مجتمعها. لاحظت أمل أنَّ ملامح ذوقان اكتسبت شحنةً جديدةً من الطاقة حين بدأت بالحديث عن التقرير.

منذ سنةٍ تقريبًا، ومن أجل تسليط الضوء على إنجازات نساء الأرياف، طلبت إحدى زميلات أمل ـ وهي صحافيَّةٌ أيضًا ـ أن تمدَّها باسم امرأةٍ من القرية أسَّست شركةً وسجَّلتها في غرفة الصناعة والتجارة. فما كان من أمل إلَّا أن تسأل نبيلة عن رقم هاتف أمّ بيسان. بدأت الأرملة أمّ بيسان مشروعها ببقرتَيْن فقط،

وباعت الحليب حتى اشترت ثالثةً ثم رابعةً وسادسة. وبعد ذلك قامت بتوظيف عددٍ من النساء ليساعدنها في تصنيع الألبان والأجبان وتوزيعها على البيوت وعلى دكاكين القرى. كلّ شيءٍ كان يسير على ما يرام حتى استقدمت معدَّاتٍ أوتوماتيكيَّةً لحلب البقر وتصنيع الأجبان البلديَّة. لقد تبيَّن بعد التمحيص والتنقيب، أنَّ ابنتها الوحيدة بيسان، التي تعيش في كندا، هي التي ساعدتها على تسديد ثمن المعدَّات الحديثة. وأمرٌ كهذا يُعدّ طبيعيًّا بل محمودًا في عرف القرى لولا الشائعات التي انتشرت مؤخَّرًا عن زواج بيسان من رجلٍ كنديّ. وهنا قامت القيامة ولم تقعد وخاف المشايخ من دنس اللقمة التي يأكلونها، والتي تمَّ إنتاجها بمعدَّاتٍ ابتيعت بمالٍ حرام. لم يتوقَّفوا عند حدّ التوجُّس، بل اتَّفقوا على مقاطعة أمّ بيسان ومقاطعة كلّ دكَّانٍ يبيع منتجاتها.

حين سمعت أمل بالخبر من والدتها شعرت بغليانٍ يسري في عروقها ونظرت إلى أمِّها التي كانت تغسل الصحون فوق الحوض نظرةً حادَّة. «وأنتي شو رأيك؟» سألتها أمل بشيءٍ من الاتِّهام. وإذا بنبيلة ترفع كتفَيْها وتقول «قلَّة عقل»، وشرحت وجهة نظرها لأمل موضحةً أنَّ الزبدة الدانمركيَّة التي تستخدمها الشيخات لتصنيع الحلويَّات، كلّها صُنِّعت بمعدَّاتٍ أجنبيَّةٍ وبأموال أجانب، وأنَّ كلّ إنسانٍ مسؤولٌ عن نفسه ومصدر رزقه فقط.

«لو الشيخ أبو طاهر بعدو عايش ما كان رح يقبل بالتفتيش بالنفوس وقطع الأرزاق»، قالت نبيلة وهي تهزّ رأسها مستنكرة.

«ما إلهم أيّ سُلطة على الدانماركيِّين بس فيهم يحاسبوا هالمسكينة». قالت أمل بسخرية.

ثم ذكَّرت أمّها كم افتخر الدروز بأمل علم الدين حين تزوَّجت جورج كلوني، وكيف لعنوا راغدة حين هربت مع رجلٍ مسلم. وأضافت أنَّ السُلطة التي يمنحها الدين للأفراد للتحكُّم في الآخرين مغريةٌ لدرجةٍ تجعلهم يُقدِمون على معاقبة بعضهم بعضًا في كلِّ مناسبةٍ للاستمتاع بفرض الوصاية على الآخر.

«بعتقد أنّ معظم رجال الدين ساديِّين»، قالت أمل من دون أن تنتبه إلى أنَّ والدها يقف خلفها. وعندما تنحنح ليعلمها بوجوده في المطبخ، أغمضت عينَيْها وغمغمت بشيءٍ قبل أن تستدير وتواجهه.

دار بينهما سجالٌ طويلٌ حول قضيَّة أمّ بيسان، ورغم التزامهما بآداب الحوار وامتناعهما عن رفع الصوت إلَّا أنَّهما وصلا إلى طريقٍ مسدود. فتمسَّك هو بشيطنة العمل بالرأي والقياس وضرورة الالتزام بما قاله السلف الصالح، لأنَّ السماح بتلك التجاوزات سيفقد الطائفة هويَّتها وملامحها. بينما تمسَّكت أمل برفضها لمحاسبة أمّ بيسان على قرارٍ لا حيلة لها فيه ولا قوَّة، ومعاقبتها على خيار ابنتها الراشدة التي غادرت القرية منذ عشر سنواتٍ على الأقلّ.

«وهلَّق شو صار؟ كيف عم تبيع المسكينة منتوجاتها؟» سأل ذوقان وقد بدا قلق التعاطف جليًّا على ملامحه.

أخبرته أمل أنَّ أمّ بيسان استمرَّت في إنتاج الألبان والأجبان؛ وبينما قاطعها المشايخ، بقي الجسمانيُّون يشترون من بضاعتها. اتَّفقت كذلك مع موزِّعٍ على بيع منتجاتها في المدن

الكبيرة مقابل نسبة ربح، على أن تتكفَّل هي بثمن الوقود.

«أنا فخور فيكن يا أمل» قال ذوقان بهدوئه المعتاد.

«فينا؟» سألته متعجِّبة.

أراد أن يقول لها إنَّه فخورٌ بالنساء أمثالها وأمثال نبيلة وراغدة وأمّ بيسان اللواتي وجدن سبلًا للإنجاز والعطاء والحبّ على الرَّغم من فرض الوصاية عليهنَّ والمضايقات التي يتعرَّضن لها. فهو لا يرى أنَّ نبيلة التي صنعت الخبز لسنواتٍ لتدفع تكاليف تعليم بناتها تختلف عن أمّ بيسان التي استمرَّت في عملها متجاهلةً الضغط الذي مورس عليها، ولا يرى أنَّ راغدة باختيارها الحبّ وقدرتها على المغادرة تختلف بإصرارها وشجاعتها عنهما. يعرف ذوقان كم من القسوة والمرارة على المرء أن يكابد حتى يخلع عنه جلده ويترك حياته بأكملها خلفه ويرحل. لم يغفل ذوقان عن تذكير أمل أنَّها من هذا الصنف أيضًا وأنَّ إعدادها لهذا التقرير هو أمرٌ في غاية الشجاعة والنبل.

تعانقا طويلًا عند الباب ووعدته أن تزوره خلال رحلتها القادمة إلى الولايات المتَّحدة.

17

مقابلةٌ أخيرةٌ ويصبح التقرير جاهزًا لد «مونتاج» والبثّ عبر شاشات التلفزيون. ارتجفت أمل لتلك الفكرة وشعرت بشحنة توتُّرٍ تجتاح جهازها العصبيّ وتُضخِّم انزعاجها من حزام الأمان لمقعد الطائرة التي أوشكت على الهبوط في مطار بيروت الدوليّ. أرادت أن تقف وتمشي لتنفض عنها ذلك الشعور بالتوتُّر كما تفعل عادة، لكنَّها الآن محبوسةٌ في طائرةٍ يصفِّق ركَّابها فرحًا لوصولهم إلى وطنهم بالسلامة. وسط أجواء الفرح بالعودة إلى أحضان الأهل والأقارب، وحدها أمل كانت تشعر بالرغبة في ركوب أوَّل طائرةٍ والعودة إلى منزلها في ألمانيا، ذلك المكان الذي تشعر فيه وكأنَّها كوكبٌ خرج عن مساره وهام في الفضاء، المكان الذي يسمح للحنين أن يتسلَّق أطراف قلبها كالصدإ؛ الأمان الذي تمنحها إيَّاه المسافة، يتيح لها رفاهية التخلِّي عن حذرها ويسمح لقلبها أن يحبّ ويحزن وأن يُنَحِّي الخوف جانبًا. لكنَّها الآن لا

تشعر سوى بالخوف. علمتْ منذ ركوبها الطائرة في فلوريدا، أنَّ عليها أن تزور والدَيهْا بعد مقابلتها مع إمّ بيسان في قريتها عينصورة. فلربَّما تكون هذه هي فرصتها الأخيرة لرؤيتهما قبل عرض التقرير الذي لا يمكن توقُّع نتائجه.

تدافع الركَّاب في الممرِّ الضيِّق للطائرة وتسرَّبت إلى أنف أمل روائح العطور الممزوجة بعرق الأجساد ومنثول العلكة. أغمضت عينَيْها وتذكَّرت ما قاله لها خالها ذوقان قبل أن تغادر فلوريدا:

«ألستِ خائفة؟ ألا تظنِّين أنَّك أيضًا ستصبحين من المغضوب عليهم بعد نشر هذا التقرير؟».

قالت له إنَّها ليست خائفة لأنَّها لا تظنّ أنَّها تقترف أيّ خطإ. ربَّما كانت صادقةً في تلك اللحظة. فهي لم تكن تشعر بأيِّ خوفٍ على شرفة الخال ذوقان أمام المحيط وتحت نظرة عينَيْه الرقيقتَيْن. كان الأمر بالنسبة لها أشبه بمجازفة مقامرٍ قليل الخبرة. مقابلة الخال ذوقان كانت المقابلة السابعة التي أجرتها أمل، ولم يكن الخوف قد تملَّك منها بعد. فما بال هذا الشعور يتصاعد مع كلّ خطوةٍ تخطوها تجاه الوطن، والقرية، والمنزل؟ ما بال هذا الخوف يُعيدها إلى طفولة وعيها كلَّما اقتربت من المكان الذي عاشت فيه السنوات الأولى من عمرها، وفيهِ تعلَّمت كيف تحبّ وتكره وتخاف وتهرب؟! شعرت فجأةً أنَّ الطائرة قد فرغت، ففتحت عينَيْها والتقطت حقيبتها من الخزانة العلويَّة وغادرت مسرعة.

كان شباط قد ملأ السماء بالغيوم البيضاء المتفرِّقة التي

انعكست فوق سطح برك المياه الصغيرة المنتشرة على طرقات القرية الضيِّقة. ظهرت حقول البرتقال على جانبَي الطريق مثقلةً بالثمار التي بدت باستدارتها ولمعانها وكأنَّها زينةٌ معلَّقةٌ على شجر عيد الميلاد ذي الخضرة الغامقة. لاحظت أمل أنَّ تفكيرها في لقاء ابنتها رحمة التي كانت تنتظرها عند والدَيْها ساعدها على استعادة شيءٍ من الفرح والترقُّب.

ودَّت لو تكون مثل شجرة الصنوبر دائمة الخضرة التي تزيِّن فناء منزل والدَيْها، لا تتأثَّر بتقلُّب الفصول؛ تلك كانت الفكرة التي تجول في رأس أمل وهي تركن السيَّارة المستأجرة وتهمّ بالترجُّل منها. سمعت رحمة توقُّف محرِّك السيَّارة وصوت صفعة باب السائق ففتحت باب المنزل واندفعت تجري نحو أمل. بعد أن تعانقتا لدقيقةٍ علَّقت أمل على طولها ممازحة:

ـ «رح تصيري طولي يا رحمة، متّفقين ما تسبقيني بالطول، صحّ؟»

ـ «طوَّلتِ وما نطرتك لأنَّك غبتي تلات شهور. نحنا متّفقين ما في غيبة أكتر من شهرَيْن». ردَّت رحمة المزحة بمرح.

اغرورقت عينا نبيلة بالدموع وهي تعانق ابنتها عند باب البيت «الحمد لله عالسلامة يا أمل» ثم أخذت منها أغراضها لتضعها في غرفتها.

ملأت رائحة الصابون البلديّ الممزوج بالغار رئتَي أمل حين دخلت إلى المنزل. الحرارة المنبعثة من صوبيا الحطب المتربِّعة وسط غرفة المعيشة، وصوت الطقطقة الخفيف المتصاعد من

القدر المعدنيّ الذي يغلي على سطح الصوبيا أدخلاها في حالة سكونٍ أقرب ما تكون إلى الخدر. خدر مَن تدفَّأ بعد بردٍ شديد، مَن استرخى بعد انكماشٍ قد طال. كيف لم تلحظ من قبل أنَّ تلك الأشياء الصغيرة الماكرة تبني صرح الحنين قطعةً قطعة. نظرت إلى الجبل المكسوّ بشجر الصنوبر من وراء الواجهة الزجاجيَّة الكبيرة، إلى السجَّاد، الذي يغطّي الأرض (من الحيط للحيط)، إلى انعكاس ضوء ألسنة نار الصوبيا على الأرض، إلى صندوق القشّ المملوء بالحطب وراء باب الغرفة... وأدركت كم اشتاقت إلى هذا البيت.

سألت أمل عن والدها وعلمت أنَّه ذهب مع المشايخ لتأدية واجب عزاءٍ في الضيعة المجاورة.

ـ «كيف الأوضاع بيناتكم هالأيَّام؟». سألت أمل، وفهمت نبيلة أنَّها تسأل عن علاقتها بعليّ ومناكفاتهما التي لا تنتهي.

ـ «ماشي الحال... يلّي راحوا أكثر من يلّي جايين»، قالت نبيلة ضاحكةً وهي تملأ قرعة المتَّة، وكانت تشير بذلك إلى السنوات الطويلة التي قضتها مع عليّ. فأمل تعرف الكثير عن دهاليز تلك العلاقة وعن ديناميكيَّة السلطة بينهما وغالبًا ما كانت تنصح أمّها بالتطنيش عن أعماله وأقواله، فتردّ نبيلة «سبحان الله» لأنَّها تتذكَّر النصائح التي كانت تسديها هي لوالدتها.

في تلك الجلسة شعرت أمل بميلها إلى الثرثرة وتجنُّب الصمت، الأمر الذي لا يشبه طبيعتها على الإطلاق. فأمل الانطوائيَّة الصامتة منذ طفولتها، راحت تبذل جهدًا لملء كلّ

فراغات الصمت بسؤال رحمة عن مدرستها ومعلّماتها وزملائها. «خبَّرتك كلّ شي عالتلفون»، قالت رحمة وذكَّرت أمّها أنَّهما تتبادلان كلّ تلك التفاصيل خلال اتّصالات الڤيديو وأنّ لا جديد عندها. فتعود أمل وتسأل أمّها عن عملها في الخبز وعن برنامجها الإذاعيّ وموسم البرتقال وما إذا كانت شجرة الأكيدنيا التي تحبّها غزيرة العطاء هذا العام.

فقط عندما تركتاها لتنام، أغمضت أمل عينَيْها وشعرت أنَّ طاقتها قد استنزفت بالكامل. «ماذا دهاني؟ ولماذا أرهقت نفسي بالحديث من غير توقُّفٍ على مدى ساعتَيْن؟» فكَّرت أمل. لم يكن هناك سوى جوابٍ واحد، مبرِّرٌ واحدٌ فشلت أمل في تجاهله، وهو شعورها بالذنب تجاه أمّها لأنَّها التقت سرًّا بخالها ذوقان. حاولت ان تتجنَّب الصمت كي تحمي نفسها من تسرُّب الأصوات التي تدينها داخل رأسها، فأسكتتها بالكلام عن أشياء تافهة.

كيف لا يدرك معظمنا أنَّ الاستعانة بـ «الأشياء التافهة» هي حيلة البشر للهروب من أنفسهم؟!

مع عودة عليّ إلى المنزل، سيطر على أمل نوعٌ آخر من الخوف. صوت خطواته أمام باب البيت جعلها تنكمش على نفسها وتتمنَّى لو تختفي في التوّ. لطالما بحثت عن ماهيَّة الشعور الذي يتملَّكها في وجود والدها، لكنَّها لم تجد له اسمًا سوى «عدم الارتياح». بعد أن تزوَّجت، ظنَّت أنَّ شعورها هذا سيختفي، لكن ذلك لم يحدث. وبعد أن أنجبت رحمة بقي

الشعور كما هو. تتذكَّر أمل كيف كانت تنكمش خلف جسد ابنتها الرضيعة الجالسة في حجرها حين يدخل عليٌّ الغرفة. لكن هذه المرَّة، كان شعورها بعدم الارتياح مضاعفًا. أرسلت قعقعة مفاتيحه في الغال رجفةً خفيفةً إلى جميع أطرافها، لكنَّه حين دخل أقبل عليها مُرحِّبًا كالعادة وقبَّلها على وجنتَيْها قبل أن يستأذن ليبدِّل ثيابه. عندما غادر الغرفة، أدركت أمل أنَّ هذا الخوف يختلف عمَّا تشعر به حيال أمّها، فهي تخاف على أمّها ولا تخاف منها. ما زالت تذكر حين قالت لشقيقتها نيرمين منذ زمنٍ بعيد إن السنوات التي أمضتها مع أمّها في خندقٍ واحدٍ هي التي تُشعِرها بأنَّها مسؤولةٌ عن حمايتها، حينها اعترضت أختها على مصطلح «خندق» قائلة: «ليه عم تحكي عن طفولتنا كأنَّها معركة؟».

ولكن أليس الفقر معركة؟ ومحاولةُ التودُّد لأبٍ متجهِّم معركة؟ أليس انكسار الأمّ هو النقطة التي تبدأ منها كلّ المعارك اللاحقة؟ نيرمين، التي بوركت بذاكرةٍ سيِّئةٍ وانتقائيَّةٍ إلى أبعد الحدود، لم تكن مستعدَّةً لأسئلةٍ كهذه. أمَّا أمل فقد ابتليت برصد التفاصيل وقراءة العيون واستشفاف المشاعر من أبسط الكلمات.

لربَّما يكون الكذب هو المولود غير الشرعيّ للحبّ. فأمل تكذب لتحمي نبيلة، بدا لها الأمر طبيعيًّا لأنَّها لم تعد تذكر متى حملت على عاتقها مهمَّة حماية أمّها. ولا تعرف كيف تتصرَّف الآن وهي على علمٍ تامٍّ أنَّ الأمر قد يخرج عن سيطرتها قريبًا.

في المساء، أعدَّت نبيلة السهريَّة ووضعت على الطاولة المستديرة عدَّة أنواعٍ من المكسَّرات والفواكه الشتويَّة من رمَّان وسفرجل وأكيدنيا، بينما تربَّعت عدَّة المتَّة في المنتصف.

للحظاتٍ شعرت أمل بسلامٍ كاملٍ لا يشوبه شيء. وكأنَّ تلك اللحظة كانت لقطة كاميرا منفصلةً عن الماضي والمستقبل وقد أُزيلت منها كلّ شوائب الخوف وبقايا انكسارات الطفولة. كانوا عائلةً سعيدةً تجلس هانئةً بجانب مدفأة الحطب وتأكل من خيرات أرضها وتمتلك رفاهية إطلاق النكات والضحكات. لكنَّ الأمر لم يدم أكثر من عدَّة ثوانٍ وما لبث القلق أن عاد إلى رأسها وبقي معلَّقًا في الخلفيَّة مثل أجراس الريح المعلَّقة بالقرب من نافذة غرفة العجين.

ما زالت أمل تذكر تلك الأجراس المؤلَّفة من عدَّة أنابيب معدنيَّةٍ تتصادم مع بعضها بعضًا كلَّما حرَّكتها الريح لتصدر رنينًا هادئًا كأنَّه صوتٌ يصدر من مكانٍ مجهولٍ ويدعو المستمع إلى الولوج إلى أعماقه. هكذا كان القلق جرسًا معلَّقًا في خلفيَّة حاضرها تسمعه مع كلّ كلمةٍ ويعلو رنينه حين يقترب منها الفرح. فهمت في تلك الليلة كم يصبح الفرح عزيزًا ومؤلمًا حين نُدرك ونحن نختبره أنَّه موقَّتٌ وهشّ.

انشغل عليٌّ بهاتفه أكثر من المعتاد. ذكَّرته أمل وهي تأكل الرمَّان بالطريقة المميَّزة التي كان يقشِّر ويقطِّع بها الرمَّانة إلى مثلَّثاتٍ متساويةٍ من دون أن تسقط منه حبَّةٌ واحدة.

«هذا أيَّام ما كان عندي إيدتين. هلَّق باكل الرمَّان كيف ما كان» قال عليٌّ بابتسامة من يتجنَّب الإقرار بحجم الخسارة، ثم أمسك بهاتفه وراح يتفقَّد الرسائل. انطلق من الهاتف صوت المقاطع المصوَّرة المتنوِّعة ما بين أخبارٍ وطبخٍ وكوميديا، فراقبتاه نبيلة وأمل وهو يضحك ضحكةً صامتةً يهتزّ معها كلّ جسده،

وضحكتا لمنظره، ثم انتقلت عدوى الضحك إلى رحمة من غير أن تفهم ماذا يحدث. فجأةً تذكَّرت رحمة أن تسأل جدَّها ما إذا وجد أصحابه القدامى على الفايسبوك.

«إيه صار عندي أصحاب جداد كمان»، أجابها عليّ.

وبعد لحظاتٍ وصلت صورة أمل وابنتها لحساب عاشقة الظلّ على مسنجر مرفقةً بجملة:

«أختك أمل وابنتها رحمة عندنا الليلة. تفضَّلي شاركينا في شرب المتَّة!».

«مساء النور يا شيخنا. سلامي إلى الجميع. لا بدَّ أنَّكم سعيدون بزيارة أمل»، كتبت نبيلة بعد أن صبَّت قرعة متَّة وناولته إيَّاها.

لقد تمرَّست نبيلة في هذه اللعبة خلال السنة الأخيرة حتى باتت تجري كلّ محادثاتها معه من الغرفة نفسها. فتسهر معه على مستويَيْن: مستوى حضوريٍّ حيث يجلسان حول صينيَّة المتَّة ويلفّهما الصمت. ومستوى غيابيٍّ تؤنسها فيه دردشاته عن حياته اليوميَّة واختراعاته الصغيرة ونباتاته الجديدة. عليٌّ أيضًا كان يستأنس بتفاصيل حياةٍ متخيَّلةٍ لفتاةٍ شابَّةٍ صنعتها نبيلة لتسليته ولأسبابٍ أخرى لم تفهم بعد كافَّة أبعادها.

لاحظت أمل انشغال والدَيْها بهواتفهما، وعندما خلد عليٌّ ورحمة إلى النوم، سألت أمّها ممازحة:

«شو القصَّة انتي وبَيّي كلّ الوقت ماسكين التلفونات؟ يلّي بيشوفكم بيقول مخطوبين وعم تتراسلو سوا».

«إيه هذا بالضبط يلي صاير. عم نتراسل سوا»، أجابت نبيلة بلهجةٍ غامضةٍ لم تميِّز أمل مزاحها من جدّها.

لم تكن أمل تعلم أنَّ أمَّها ستضع بين يدَيْها جمرةً مشتعلةً في تلك الليلة وتسألها أن تغلق قبضتها عليها بإحكام. على صوت المطر المختلط بقرقعة الخشب في الموقد، أخبرت نبيلة أمل كيف بدأ الأمر مع عاشقة الظلّ كسوء فهم بسيط، وكيف أنَّها لم تكن تنوي الاستمرار في تلك اللعبة لولا أنَّها لاحظت التغيير الإيجابيّ الذي طرأ على عليٍّ بعد أن ظهرت صديقته الجديدة. عليٌّ المتجهِّم اللامبالي المستسلم للعجز أصبح فجأةً بشوشًا ومتجدِّدًا وعاد لكتابة قصائد الزجل وتصوير اختراعاته ونباتاته.

تكاثرت الأسئلة في رأس أمل وهي تستمع إلى أمّها. لكنَّها استمرَّت في الإصغاء تاركةً تلك العوالم الغامضة تتكشَّف أمامها. مرَّت لحظاتٌ شعرت فيها برغبةٍ في التوقُّف عن الاستماع، في حشر سبَّابتَيْها داخل أذنَيْها والانفصال عن الواقع. وفي لحظاتٍ أخرى شعرت أنَّها وأمَّها في الخندق نفسه مرَّةً أخرى. تمسَّكت بهذه الفكرة وكأنَّها قطعة خشبٍ وسط نهرٍ غاضبٍ ومتدفِّق. فإن كانت نبيلة تكذب لتحمي عليًّا من الألم، هذا يعني أنَّ كذبها على أمّها، بشأن زيارة فلوريدا وأمورٍ أخرى، مبرَّرٌ أيضًا.

السؤال الأكثر إلحاحًا كان يتعلَّق بمشاعر نبيلة كامرأة. «ما بتنجرح مشاعرك؟ ما بتغاري؟» سألتها أمل باستغراب.

ضحكت نبيلة وهزَّت رأسها «من شو بدِّي غار؟ وعلى شو؟» ثم أخبرت أمل أنَّها وعليًّا منفصلان وجدانيًّا منذ سنواتٍ طويلة.

وأكَّدت أنَّها لا تقصد بذلك الأشياء السطحيَّة التي تركِّز عليها النساء مثل أن يتذكَّرها بهديَّةٍ في المناسبات أو في عيد ميلادها أو أن يُسمعها كلامًا معسولًا، بل ترمي إلى نوعيَّة الحياة التي يتشاركانها وخوفها من إظهار مشاعرها أمامه. فإذا كان الأمر يتعلَّق بمشكلةٍ مع بناتها، يلومها على طريقة تربيتها لهنّ، وإن كان الأمر يتعلَّق بمشاعرها حيال أمورٍ أخرى يعايرها بأنَّها تفتقر إلى الرضا والتسليم والإيمان الذي يجعل قلب المؤمن أبرد من الثلج.

«على الأقلِّ كسبته كصديق»، قالت نبيلة بعد أن جفَّفت دمعتَيْن كانتا تموجان في حدقتَيْها.

عن طريق عاشقة الظلّ أصبح عليٌّ صديقها وأصبح يستمع لشكواها. يستشيرها أحيانًا في أمور عمله ويناقش معها مشاكل عائليَّةً متعلِّقةً ببناته وأقاربه. يحرص أيضًا على أن يأخذ رأيها في كثيرٍ من الأمور الأخرى.

«ما بيحكيلها عنك؟» سألت أمل مستنكرة.

«أكيد. بيقلّها نبيلة بركة البيت وستّ الستات. ومرَّات بيقلّها نبيلة بتسلِّم عليك».

«عن جدّ بتبعتيلها سلام؟» سألت أمل متعجِّبة.

«إيه. بيقلِّي عم احكي مع صديقتي، كأنَّها مزحة، وبقلُّو سلِّم عليها، كمان كأنَّها مزحة»، أجابت نبيلة ببرود، وأوضحت أنَّها تفضِّل العيش مع شخصٍ مرحٍ على أن تعيش مع إنسانٍ مكتئبٍ ومتجهِّم. هكذا دافعت نبيلة عن موقفها أمام أمل التي اتَّسعت عيناها من الدهشة.

أخفضت أمل رأسها وضغطت بيدَيْها على صدغَيْها، وإذا بفضولها الكبير يتحوَّل إلى غضبٍ عميقٍ وموجع.

«ليه بدِّك ياه يكون فرحان على حساب أعصابك ومشاعرك؟ لأنُّو فرَّحك كتير بحياتك معه؟ لأنُّو فرَّح بناته وكان أب حنون؟» سألت أمل بانفعال.

انتبهت أمل، أثناء لفظها لتلك الكلمات، أنَّها تتحوَّل إلى نسخةٍ من والدها وأنَّها بدل أن تحاول أن تتفهَّم دوافع أمّها ومشاعرها، تستخدم تلك المشاعر ضدَّها.

وضعت يدها على ذراع نبيلة وقالت لها «بعتذر... خبريني أكتر».

اكتفت نبيلة بهذا القدْر وتركت أمل لتنام، لكن أمل ظلَّت فريسةً لتلاطم الأفكار وتضارب المشاعر حتى ساعات الفجر الأولى. عمَّق ليل عينصورة وصوت ارتطام المطر على النافذة شعورها بوحدة أمّها في هذه القرية، بالفجوة التي خلَّفها رحيل راغدة ولم يملأها أحدٌ منذ ذاك الحين. لم تقتنع أمل أنَّ أمّها مرتاحةٌ لمثلَّث الصداقة المريب ذلك. كيف ترتاح وعليٌّ منشغلٌ عنها بالحديث مع امرأةٍ أخرى؟

لا تشكِّل المسمّيات فارقًا كبيرًا عند أمل ولا يهمّها ما إذا كان عليٌّ يعتبر عاشقة الظلّ صديقةً أو ابنةً أو حبيبة، كلُّ ما يهمّها أنَّه يهمل أمَّها ليتحدَّث مع تلك المرأة، يؤلمها أن يقول لنبيلة «أنا ما بحبّ الحكي»، ليعود ويغرق بالحديث معها لساعاتٍ تحت اسمٍ مستعار. أيُعقل أنَّه لا يميِّز أحاديث وأفكار المرأة التي

عاشت معه لأكثر من أربعة عقود؟ هل تكون هذه طبيعتنا جميعًا كبشر؟ نسمع فقط حين نقرِّر أن نستمع ونرى فقط إذا ما قرَّرنا أن نرى؟

بدا لها الخارج كُتلةً من سوادٍ وهي تنظر من النافذة. كلُّ شيءٍ تبدَّد تحت غطاء العتمة الذي ابتلع الجبال والطرقات والمنازل. تذكَّرت أمل حين كانت طفلةً تغمض عينَيْها بقوَّةٍ كي تعيش تجربة المكفوفين، فتستهدي بالجدران والأرائك. لكن لا تلبث أن تصدم أصابع قدمَيْها بالطاولة فتفتح عينَيْها وتدرس الغرفة من جديدٍ ثم تُعيد المحاولة. الآن تُدرك أنَّه علينا فقط أن نكبر كي نختبر العمى. أليس والدها أعمى لأنَّه لا يرى أنَّ نبيلة التي تجلس على بعد خطوتَيْن منه لديها كلّ ما يحتاجه كي يأنس ويعيش راضيًا مكتفيًا؟ أولم تَعْمَ نبيلة عن صحَّتها النفسيَّة واستمرَّت في اللعبة واختارت هذا الانتحار البطيء؟ ثمّ فكَّرت في نفسها وفي الخوف الذي لا يزال يرافقها كموسيقى تصويريَّةٍ تنقر بخفَّةٍ وإصرارٍ على أعصابها. ألم تَعْمَ أمل عن الخوف الذي رافقها طيلة حياتها وظنَّت أنَّها تخلَّصت منه حين تفنَّنت في ردمه بالكتابة والأسفار والانتصارات الصغيرة؟ ألا نصبح جميعنا عميانًا حين نصرف أبصارنا عن دواخلنا وننشغل بمراقبة الآخرين وتحليلهم؟

كانت أمل لا تزال تحاول أن تنام حين استيقظت رحمة عند السادسة في السرير المجاور. نصحتها أمل بالعودة إلى النوم واستغلال عطلة نهاية الأسبوع لترتاح، لكنَّ المنبِّه الداخليّ الذي يتفعَّل مع بداية العام الدراسيّ لا يسمح لرحمة بالنوم بعد الساعة

السادسة. فتمطّت في سريرها، وقالت لأمّها إنّها رأت حلمًا غريبًا.

ـ «خبريني؟ شو حلمتي؟»، سألت أمل بصوتٍ يغلب عليه النعاس والتعب.

ـ «حلمت إنّي وقعت على عجينات تيتا.»

في الحلم، رأت رحمة نفسها تعود طفلةً وتسقط في الوعاء الكبير الذي تعجن فيه نبيلة. لم يكن هناك أحدٌ في الجوار كي يساعدها على النهوض، ومع كلِّ محاولةٍ للخروج من الوعاء كان العجين يكتسب قوّةً غريبةً على الالتصاق بها وسحبها إلى داخل المعجنة. أصغت أمل باهتمامٍ وكأنَّ أحدهم يصف لها مشهدًا غرائبيًّا من مسرحيَّة، وحين انتهت رحمة من سرد الحلم لأمّها، لم تسأل عن تفسيره لأنَّ رحمة لا تؤمن بتفسير الأحلام وصيبة العَيْن وقراءة الفنجان. ورغم ذلك تجد الجلوس إلى جانب جدَّتها وهي تفسِّر حلمًا على الهاتف لإحدى خالاتها أمرًا مسلِّيًا.

«تعي نعمل قهوة ونسأل تيتا نبيلة عن الحلم»، هتفت رحمة بنشاط مراهقةٍ نامت الليل بطوله.

ترى أمل نفسها في رحمة حين ترافق جدَّتها إلى غرفة العجين وتجلس إلى جانبها لتراقب العمليَّة عن كثب. وتمامًا كما كانت تفعل مع أمل الطفلة، تعطي نبيلة قطعة عجينٍ صغيرةً لحفيدتها رحمة لتشكِّلها وتصنع منها ما تريد. فعلت ذلك أيضًا مع بقيَّة أحفادها ومع أولاد الجيران الذين وجدوا الألفة والقبول في جوارها، وهي تقوم بمهامِّها من كنس الفناء ونقل المياه وتشذيب

النباتات وصولًا إلى تحضير العجين وصناعة الخبز وتوضيبه.

«الخبز رزقة! ورحمة رح تكون مرزوقة بحياتها»، قالت نبيلة وهي تقلّب ركوة القهوة فوق الحلقة الصغيرة للصوبيا. ابتسمت رحمة بدهاءٍ وغمزت لأمّها لأنَّها توقَّعت أن تفسِّر جدَّتها الحلم بإيجابيَّةٍ خالصة، تمامًا كما تقول إنَّ الموت في الحلم يعني طول العمر والخسارة تعني الربح. كلّ الأشياء الكارثيَّة تتحوَّل في تفاسير نبيلة إلى فُرَصٍ وأرزاقٍ وأعمارٍ مديدةٍ وسعيدة. لاحظت نبيلة تبادل النظرات بينهما، وضحكت:

«يمكن العجينات عتبانين عليكي لأن بطَّلتي تعجني معي متل أيَّام زمان»، قالت لرحمة ممازحة.

لاحقًا ستعلم أمل أنَّ سحر نبيلة يكمن في رمزيَّة العجينة التي كانت تعطيها للصغار. وكأنَّها تقول لهم: هذه فرصتكم لتتدرَّبوا على تطويع حيواتكم. الأمر يعود إليكم، وحياة كلٍ منكم كتلة عجينٍ بين راحتَيْه. سيتبيَّن لاحقًا أنَّها أيضًا شكَّلت حياتها بمهارة عجَّانٍ محترف. وعلى امتداد عمرها كانت تزيد رشَّة ماءٍ هنا لتتجنَّب تصلُّبًا ما أو حفنة طحينٍ هناك لتتلافى ترَهُّلًا محتملًا. فعلت بكتلة عجينها تلك، بحياتها تلك، كلّ ما بوسعها لتتأكَّد أنَّ كلّ من يقصدها سيجد شيئًا يقتات عليه.

لن يفهم أحدٌ علاقة نبيلة بالعجين. فالعجين مأوًى واستقلاليَّةٌ وأمان. صناعة العجين تُعطي مبرِّرًا لنبيلة كي تغلق بابها وتشغِّل الراديو وتغرق لحوالي ساعتَيْن في خلق تحالفٍ وتآلفٍ بين الدقيق والماء. صناعة العجين هي هدنةٌ مع غربتها، مع العالم

الخارجيّ، واتِّحادٌ مع أفكارها وعالمها الداخليّ. تطلق أصابعها لتغزو كومة الدقيق الناعم وتصبّ الماء ليتغلغل فيها بتأنّ، كما أفكارها التي تسرح إلى الماضي، إلى الوجوه والذكريات، إلى سنواتٍ كان فيها البيت عامرًا وصخَبُ الضحكات ينفي احتمال كلّ هذا الفراغ. اليوم بعد أن فرغ المنزل وتقلَّصت المصاريف، لم تعد نبيلة بحاجةٍ إلى المال، لكنَّها أصبحت بحاجةٍ أكبر إلى الشعور الغامض بالأمان الذي يمدّها به تشكيل العجين وصناعة الخبز.

18

فعلت أمل كلَّ ما بوسعها لتتجنَّب الحديث مع رحمة عن يوم سفرها. هكذا كانت الأمور بينهما وهكذا ستبقى. منذ ذلك اليوم الذي غادرت فيه أمل منزلها الزوجيِّ منذ أكثر من سبع سنواتٍ وهما تحاولان مقاومة الحضور الكلِّيِّ في لحظة الوداع. تفعلان ذلك عن طريق تجنُّب التواصل البصريّ وإغراق نفسَيْهما في مشاريع جديدةٍ وأحاديث ممتدَّةٍ عن أشياء عابرة. يحدث ذلك بعفويَّةٍ تامَّةٍ لأنَّهما كمعظم البشر تتجنَّبان ببديهيَّةٍ غريبةٍ مواجهة أكثر الحقائق واللحظات ألمًا في حياتهما.

راحتا تمشيان بمحاذاة النهر. خريره يملأ الأرجاء ويختلط بصوت عنين منشار خشبٍ يأتي من أحد الحقول المتاخمة ويعطي للتوتُّر الداخليّ دَفعةً ليستشري ويشرئبّ. ذكَّرت رحمة أمَّها بحديثهما في هذا المكان منذ ثلاث سنوات، يوم أخبرتها أمل أنَّها ستنتقل للعيش في ألمانيا وأنَّها لن تتمكَّن من رؤيتها لعدَّة

أشهر. في ذلك النهار الذي يبدو بعيدًا بمقياس الزمن وثابتًا راسخًا بمقياس الألم، بكت رحمة ذات الاثني عشر عامًا في حضن أمّها. بَكَتا سويًّا حتى بدا لهما أنَّهما لن تتعافيا أبدًا. لكنَّ رحمة تعافت وعاشت بعدها واختبرت الفرح والحزن والرضا والرفض. عاشت بعدها كما يعيش جميعنا بعد أكبر الانكسارات غير مصدِّقين أنَّنا نستطيع الاستمرار، غير مقتنعين أنَّ أقدامنا راسخةٌ وأنَّنا نمشي. ولكنَّنا نمشي فعلًا، ولا نصدِّق أنَّنا نمشي. ونستمرُّ في النكران حتى تأتي ضربةٌ أخرى تحرمنا من نعمة المشي لفترةٍ ما. هكذا يمسك كلٌّ منَّا بحياته بحلوها ومرّها وانكساراتها وانتصاراتها ويشكِّلها على هواه. يسقيها بدموعه حين تعصى عليه وعندما تلين يعيد محاولة التشكيل.

لم تعد رحمة تبكي وقت الوداع، وهي الآن ابنة خمسة عشر عامًا، لكنَّها أصبحت تختبر انقباضاتٍ في المعدة. وحين تنظر إلى أمل بعينَيْها البنيَّتَيْن الكبيرتَيْن، وتقول: «بطني عم يوجعني يا ماما» تفهم أمل كلَّ شيء.

بكلمتَيْن فقط تخبرها ابنتها بكلِّ ما لم تستطيعا قوله لبعضهما بعضًا في كلِّ الوداعات السابقة. بكلمتَيْن، تذكِّرها بالواقع الجائر الذي يحتِّم فراقهما، بالخوف من الانفصال الذي عشَّش باكرًا في وجدان رحمة، والذي لا يفوِّت فرصةً كي يستفزَّ خوف أمل الذي لا تذكر له بدايةً ولا يُخيَّل لها أنَّه سينتهي.

يوم السفر كان على بعد عشرة أيَّام. غادرت رحمة إلى بيت والدها لترتاد المدرسة صباح يوم الاثنين وغادرت أمل إلى بيروت من أجل أن تُنهي بعض الأعمال وتجتمع مع أحد مندوبي القناة

التي ستعرض تقريرها. تواعدتا أن تلتقيا يوم الجمعة بعد عودة رحمة من المدرسة وأن تمضيا عطلة نهاية الأسبوع الأخير في عينصورة. لكن قبل مغادرة منزل والدها أرادت أمل أن تتحدَّث مع والدتها أكثر بشأن عاشقة الظلّ. فمنذ علمت بالأمر، فقدت شيئًا من التوازن الذي تحتاجه في الأيَّام المقبلة. آخر ما كان ينقصها هو مصدرٌ جديدٌ للقلق وهي على مشارف صدور التقرير الذي سيجلب معه موجةً من النزاعات. حاولت أن تستوعب الفوضى التي تلت معرفتها بشأن عاشقة الظلّ وتحتويها، ولكنَّ الأسئلة ظلَّت تقلقها:

«تعي يا عميلة الـ CIA بدِّي احكي معك كلمتين»، قالت ممازحةً لنبيلة التي تقف قرب حوض غسل الصحون، أطلقت نبيلة ضحكةً عاليةً لأنَّها فهمت ما ترمي إليه أمل. أصبح لنبيلة ثلاث شخصيَّات: إلى جانب نبيلة بائعة الخبز، هناك الستّ ندى التي تقدِّم فقرة الطبخ على إذاعة صوت الأرز والآن أصبحت هناك عاشقة الظلّ بكلّ الغموض الذي يلفّها.

بعد أن انسحبت رحمة إلى الغرفة المجاورة لتجري مكالمة ڤيديو مع إحدى صديقاتها، اقتربت أمل من نبيلة بحذر. «الله يستر ما يكون في شخصيَّات مخفيَّة ما بعرف عنها شي»، قالت بلهجة المزاح نفسها، ثم تردَّدت قليلًا قبل أن تسأل نبيلة عن أفضل اللحظات التي عاشتها وهي متقمِّصةٌ شخصيَّة عاشقة الظلّ.

جالت نبيلة بعينَيْها المحدَّدتَيْن بالكحل على أرجاء الغرفة وهي تفكِّر في الإجابة، وبعد لحظاتٍ قالت لأمل إنَّ قدرتها على إسعاد عليٍّ في أكثر اللحظات يأسًا كانت أفضل ما اختبرته في

تلك الصداقة. تراه أحيانًا، بمعزلٍ عن تاريخ الخيبات بينهما، رجلًا سبعينيًّا وحيدًا بذراعٍ مفقودة. تفكّر في معظم الهوايات والنشاطات التي حُرِم منها وفي الأيّام التي يمضيها في العمل متحايلًا على غياب ذراعه مستعينًا بكتفه لتثبيت الأشياء وإصلاحها. تشعر أحيانًا كم هو وحيد، فتأخذ الهاتف وتراسله من حساب عاشقة الظلّ. ترى حاله الذي يتبدّل بعد قراءة الرسالة والحيويّة التي تطرأ على ملامحه، فيعدّل من طريقة جلوسه، ويفتح جفنَيْه الثقيلَيْن ليبدأ بالبحث عن أقوالٍ وتحيّاتٍ مسائيّةٍ مصحوبةٍ بصورٍ للطبيعة.

هزّت أمل رأسها وهي تستمع لأمّها باهتمامٍ كبير، وعندما توقّفت نبيلة عن الكلام سألتها أمل عن أكثر ما آلمها وهي متقمّصةٌ تلك الشخصيّة.

هذه المرّة لم تحتج نبيلة إلى وقتٍ للتفكير بل أخبرت أمل عن ذلك الشجار الذي وقع بينها وبين عليٍّ لسببٍ تافه. لكن بدل أن يتجنّبا بعضهما بعضًا لبقيّة النهار كما كانا يفعلان، انفجر عليٌّ بالشكوى واعترف لنبيلة أنّه بائسٌ وقد اكتفى وملَّ من الحياة بكلّ ما فيها ويريد أن يموت. تجاوزت نبيلة الشجار وحاولت أن تسرّي عنه بما أوتيت من حكمةٍ وذكّرته بنعم الله عليهما من صحّةٍ وعقلٍ سليمٍ ومأوى. كلُّ هذا كان ليمرَّ لولا الرسالة التي أرسلها إلى عاشقة الظلّ، بعد أن سألت عن حاله، مجيبًا إيّاها بأنّه في أفضل حالٍ وأنّه لا يشعر أنّه سبعينيّ وإنّما يشعر أنَّ له قلب طفلٍ وروح مراهقٍ وأنّه يعتبر كلّ نهارٍ جديدٍ أشبه بمغامرةٍ مشوّقةٍ ورحلةٍ جديدةٍ في الحياة.

اكتست ملامح نبيلة بالألم المجبول بالغضب وهي تتحدَّث عن تلك الواقعة. «الرجال كائناتٌ غريبة!» قالت وهي تفرد راحتَيْها أمامها وكأنَّها تشتمهم من غير أن تستخدم كلماتٍ بذيئة. شعرت أمل بغصَّةٍ كبيرةٍ وهي تستمع إلى أمّها. لقد علمت منذ البداية أنَّ نبيلة أقحمت نفسها في فرنٍ ملتهبٍ وأنَّ تلك الصداقة الافتراضيَّة ستبقيها دومًا على صفيحٍ ساخن.

«يا ريت بتلغي حساب عاشقة الظلّ وبتختفي»، قالت أمل برجاء، وأضافت «كرمالك مش كرمالو».

«لا، رح كمِّل. عالأقلّ هيك عارفة كيف أوصل له»، قالت نبيلة وما تزال مسحةٌ من الغضب ظاهرةً في صوتها. هزَّت أمل رأسها كأنَّها تتفهَّم دوافع نبيلة. لم يكن بوسعها سوى أن تتقبَّل اللعبة التي تلعبها أمّها، ألم تختر هي أيضًا أن تلعب لعبتها التي لها مخاطرها وتبعاتها؟

في طريقها إلى بيروت، راقبت أمل الجبال الخضراء المشبعة بمطر الشتاء، وكانت في كلِّ مرَّةٍ تمعن النظر إليها، ترى شلَّالًا يندفع من أحد الجبال الكثيرة التي تطوِّق تلك البقعة. فهي تعرف أدقَّ تفاصيل هذه الجبال وعندما تسافر يُخيَّل لها أنَّها تحفظ مكان كلّ شلَّالٍ وتستطيع، إذا ما أغمضت عينَيْها، أن ترى كلَّ تعرُّج من تعرُّجاتها. فتحت الشبَّاك قليلًا فتسرَّب الهواء البارد إلى أنفها ورئتَيْها وشعرت معه بدوارٍ خفيفٍ وعذب.

شغَلَتها قصَّة عاشقة الظلّ عن هواجسها بشأن التقرير وما سوف يليه من ردود فعل، لكن مع اقترابها من العاصمة واقتراب موعد اجتماعها غدًا مع مدير الإنتاج للاتِّفاق على بعض التفاصيل

الأخيرة، عاد الخوف يتصدَّر كلَّ المشاعر.

شعرت بالارتياح عندما وصلت إلى شقَّتها وأغلقت الباب خلفها. أصبح باستطاعتها الآن أن تنصرف عن الحياة المزدوجة لأمّها للتعامل مع ازدواجيَّة حياتها هي. خلعت حذاءها وأخرجت هاتفها من الحقيبة وطلبت رقمه:

ـ «اشتقتلِك. طمنِّيني كيف كانت الزيارة لبيت أهلك؟». جاء صوته عبر الهاتف ملهوفًا وحنونًا يحمل طمأنينةً تُنسيها كلّ ما يؤلمها وترفع عنها ثقل القلق الذي عاشته في الآونة الأخيرة.

أخبرته أنَّها والجميع بخير وأنَّ الأمور تسير على ما يرام. لكنَّه يعرفها جيِّدًا ويقرأ ما خلف كلماتها ليلتقط برهافة حسِّه كلَّ ما يكتنف صوتها من تردُّدٍ وقلقٍ وتعب، وهي تحاول أن تخفي عنه الخوف المتملِّك منها بعد أن عاش معها طوال تلك السنوات ورآها في أسعد حالاتها وأبهاها. آلمه أنَّه لا يستطيع أن يكون بجوارها ويدعمها في تلك الأوقات الصعبة، ولكنَّهما قبِلا بهذه التسوية. قبِل أن يبقى في الظلِّ ليحميها وقبلت هي أن تأخذ على عاتقها حمل هذه الحياة المزدوجة. فتكون في بلدها وبين أهلها عازبةً متوجِّسةً من الرجال. وتكون في ألمانيا زوجةً سعيدةً تتخيَّل الخوف ولا تشعر به، تتذكَّر القيود ولا تصدِّق أنَّها كانت تكبِّلها حتى زمنٍ قريب.

حين طرحت فكرة التقرير على زوجها ابتسم وقال لها إنَّ هذا التقرير عنها بقدر ما هو عن الآخرين. أراد أن يذهب أبعد من ذلك ليقول لها إنَّه عنها في المقام الأوَّل وإنَّها تستعين بالآخرين

كي يحكوا قصَّتها بالنيابة عنها، لكنَّه خاف أن يكشفها أمام نفسها ويجعلها تُحجِم عن الفكرة. فهو منذ تآلفا وقرَّرا أن يمضيا العمر سويًّا قطع على نفسه وعدًا بأن يدعمها في كلِّ طريقٍ تختار أن تسلكه، وأن يرفع يده عنها حين يشعر أنَّها على وشك اتِّخاذ قراراتٍ مفصليَّةٍ في حياتها. فرجلٌ بذكائه يعلم أنَّ السماح للمرأة أن تكون وأن تحقِّق ذاتها بنفسها هو أحد أهمّ أشكال الرعاية.

عندما أخبرته في اتِّصالٍ هاتفيٍّ أنَّها ستذهب لمقابلة خالها ذوقان في فلوريدا تأكَّدت نظريَّته. فذوقان مثلها متزوِّجٌ من خارج الملَّة، ولكن ذوقان دفع الثمن وتحرَّر من الخوف، وأمل تظنُّ أنَّها لم تدفع الثمن وأنَّ الخوف سيرافقها إلى الأبد. لكن ما لا تدركه أمل هو أنَّها دفعت الثمن بدل الضعف أضعافًا. دفعته في ولائها لقيودٍ وأغلالٍ غير مرئيَّةٍ تراها فقط في عين خيالها وتسمع قلقلتها من دون الجميع. دفعته في انقلابها على نفسها مع كلِّ نجاحٍ تحقِّقه وكلّ انتصارٍ في حياتها الشخصيَّة والمهنيَّة. كانت تنقلب على نفسها لأنَّها في مكانٍ عميقٍ في داخلها، وربَّما على مستوى غير واعٍ، تظنُّ أنَّها أخطأت وخانت أهلها وأنَّها لا تستحقُّ أن تكافئها الحياة بالنجاحات والأفراح.

توصَّلت أمل للاستنتاج نفسه بعد زيارتها الأخيرة إلى عينصورة. فالساعات والأيَّام التي تقضيها هناك تُعيدها إلى برمجتها الأولى وتجعلها ترى حياتها وقراراتها بمعايير وعيون والدَيْها وأهل قريتها. اتَّضح لها الأمر قبل سفرها إلى ألمانيا حين كانت تأتي من بيروت مساء الجمعة بفرحٍ واندفاع، وتعود إليها مساء الأحد بقلبٍ منقبضٍ وملامح متجهِّمة. شيءٌ ما يحتدم في

داخلها حين تجد نفسها بين مجموعةٍ من الأشخاص الذين يتشاركون الأفكار والمعتقدات نفسها ويجرِّمون التصرُّفات ذاتها. قوَّةٌ خفيَّةٌ توَّاقةٌ لرضاهم تجعلها غير واثقةٍ من قراراتها وغير مرتاحةٍ لفكرة أنَّها أصبحت «الآخر». خاصَّةً وأنَّها ما زالت تتذكَّر بوضوح ذاتها القديمة التي كانت تؤمن بما يؤمنون به وترى الآخر بذات الرفض والنفور. هل حقًّا تأتي معظم هزائمنا على يد ذواتنا القديمة؟ تساءلت أمل في قرارة نفسها.

تحدَّثت وزوجها طويلًا عبر الهاتف ونصحها بالتركيز على عملها والتغاضي عن الخوف. «إن لم يكن الحلّ في يدك، فلا يجب أن تعتبري الأمر مشكلة»، هكذا كان يحثّها على استثمار وقتها فيما يفيدها وترك كلّ ما يبدِّد طاقتها ويؤثِّر على سلامها الداخليّ. وعدته أن تفعل ذلك وأن تخبره بكلِّ جديد.

مرَّت الأيَّام التالية ببطء، قضتها أمل في حضور اجتماعات عملٍ متفرِّقةٍ وفي رؤية بعض الأصدقاء في بيروت. كانت قد اتَّفقت مع شقيقتها أسمهان على التجوال معها في السيَّارة التي حوَّلتها إلى محلٍّ متنقِّلٍ للعناية بتحميم وتصفيف شعر الحيوانات الأليفة، لكنَّ اتِّصالًا من منتج التقرير غيَّر كلّ مخطَّطاتها. لم تكن أمل تتوقَّع أنَّ التقرير سيُعرض على القناة الفضائيَّة خلال أيَّام، وأنَّه سيدخل كلّ بيتٍ بهذه السرعة. كانت تظنّ أنَّه سيحتاج إلى شهرٍ على الأقلّ، في المونتاج والمراجعة وأنَّه لن يصدر قبل مغادرتها إلى ألمانيا. طلب منها المنتج أن تأتي إلى مكتب القناة في بيروت من أجل الاتِّفاق على تفاصيل أخيرة، فوافقت على الموعد وأغلقت الهاتف.

للحظاتٍ شعرت أنَّ البرد يتسرَّب إلى فروة رأسها، تسارعت أنفاسها وتبلَّلت راحتاها بالعرق. بدأت الصور تتكاثر في رأسها: رأت نبيلة تشاهد ذوقان على الشاشة، رأت وجهَ والدِها يشتعلُ لرؤية ابنته تتحدَّث على شاشةٍ فضائيَّةٍ عن رفض مجتمعهم للمختلفين. تخيَّلته يستشيط غضبًا لتلميع صورة هؤلاء المنبوذين والإشادة بإنجازاتهم. فكَّرت بالمشايخ الذين سينقلبون على عليّ بسبب فعلة ابنته، ويطالبونه بترك الخلوة أو بالتبرُّؤ منها. مع إذاعة التقرير على الشاشة ستصبح أمل محامي «الآخر»، والآخر عدوّ الأقلِّيَّات. الآخر هو شخصٌ نتجنَّبه في أفضل الأحوال، ونراه شرًّا مطلقًا لأنَّه كان ذات يومٍ واحدًا منَّا ثمّ انشقَّ عنَّا.

راودتها أفكارٌ جنونيَّة. فكَّرت أن تتَّصل بالمنتج وتخبره بتراجعها عن عرض التقرير وتكبُّد البند الجزائيّ في العقد، مع علمها طبعًا أنَّها بذلك ستخسر مصداقيَّتها ومهنيَّتها، ولن يأخذها بعدها أحدٌ على محمل الجدّ. تمنَّت لو تستطيع اقتحام مكتب القناة تحت غطاء الظلام وسرقة المادَّة وإتلافها. تمنَّت لو كانت لديها القدرة على الاختفاء، على التبخُّر، فلا يطولها خوفٌ ولا عتبٌ ولا مواجهات. نجحت أمل في الهروب من المواجهة مرارًا، ولربَّما كان هذا التقرير محاولةً أخرى من محاولات الهرب من المواجهة. فهي بإعداده تعترف ولا تعترف، تلوم ولا تلوم، تصالح ولا تصالح.

تسارعت أفكارها، انكشفت ألاعيبها أمامها، وراحت تنظر إلى حياتها وكأنَّها طفلةٌ تتأمَّل بيت باربي من أعلى وترى كلّ غرفه ودهاليزه وتفاصيله الصغيرة. كلُّ المشاعر والألاعيب والحيل التي

لعبتها على نفسها أصبحت مكشوفةً أثناء نوبة الذعر التي انتابتها. أرادت أن تحمل الهاتف وتتّصل بزوجها، لكنّها في أعماقها كانت تعلم أنَّ هذه ورطتُها هي، وأن لا شيء ولا أحد في هذا الوجود يستطيع أن يخلّصها من هذه الورطة، وأنَّ المواجهة التي تجنَّبتها لسنواتٍ آتيةٍ لا محالة.

للمرَّة الأولى سمحت أمل للخوف أن يأخذها من يدها في رحلةٍ إلى البداية، إلى اليوم الذي وجد فيه مكانًا في قلبها ووجدانها، اليوم الذي تمدَّد وترعرع واستشرى في داخلها. أغمضت عينَيْها وراحت تصغي إلى ضربات قلبها التي تسارعت وتعالت حتى تداخلت مع صوت نقر عصًا خشبيَّةٍ على أسفلت طريق عينصورة.

ربَّما بدأ الخوف في ذلك النهار الصيفيّ، وأمل ذات السنوات السبع تلعب مع صبية وبنات الحيّ في الساحة. رأت عمامةً بيضاء تطلُّ من بين كومة البيوت، ففرَّت بعض البنات بينما توقَّف الصبية عن اللعب. وقفت أمل في وسط الساحة غير مدركةٍ لما يجري. كتم الأطفال أنفاسهم وعمَّ صمتٌ غريبٌ على المكان،واخترقه صوت نقر عصا بيد شيخٍ أربعينيٍّ ذي شوارب منسدلةٍ تتَّصل بذقنٍ يصل إلى صدره. ظلَّت أمل متسمِّرةً في أرضها مثبِّتةً نظرها على مكانٍ بعيد، وكأنَّها بتجنُّب النظر إلى الشيخ تتخلَّص من وجوده وثقل حضوره. لكنَّ هذا لم يحجب عن سمعها صوت نقر العصا على الإسفلت الذي راح يقترب قبل أن يتوقَّف. «إنتي بنت مين؟» أتاها صوت الشيخ ريدان. ومن دون أن تنظر إلى وجهه، قالت وقد تسارعت دقَّات قلبها «بنت علي بو نمر».

«إنتي أبوكي شيخ. ليش مش حاطة منديل على راسك؟» سألها بلهجةٍ حازمة، ولمَّا لم تجب رفع عصاه ولكش ساقها بخفَّة.

«بالآخرة شو بدِّك تعملي في جهنَّم الحمرا؟» سأل ومن دون أن ينتظر جوابها جال بنظره على بقيَّة الأولاد وانصرف.

وبدل أن ترتاح لانصرافه، اجتاحها نوعٌ أقسى من الترقُّب والخوف. خوفٌ من عقاب والدها. ماذا لو علم والدها أنَّ الشيخ ريدان رآها مكشوفة الرأس. «بدِّك ننبعد من الخلوة من تحت راسِك؟ بدِّك تجرَّسينا بين العالم»، يصيح عليٌّ بأيٍّ من بناته تسوِّل لها نفسها الخروج من باب البيت دون غطاء رأس. لكن أمل كانت في السابعة وشعرها قصيرٌ مثل شعر الصبيان، ولم تكن تعلم أنَّ الذي ينطبق على أخواتها ينطبق عليها أيضًا. ربَّما كانت تعلم وتجازف على أيِّ حال. فارتداؤها للمنديل وسط صبية الحيِّ وبناته، كان يحرجها ويجعلها تكره نفسها. فتدحش المنديل بين أصص الزرع أمام باب المنزل وتفرُّ إلى ساحة القرية مكشوفة الرأس. تمرُّدها ذاك كان يتحوَّل إلى مأزقٍ حين تُدرك أنَّ سمعة والدها ومركزه بين المشايخ مرتبطٌ بلباس بناته وطاعتهنَّ والتزامهنَّ بكافَّة التعاليم المطلوبة من أبناء وبنات المشايخ.

ظلَّت أمل لأعوامٍ تحلم بصوت عصا الشيخ ريدان. في الكابوس تعود طفلةً تجري حتى يجفَّ ريقها بينما صوت العصا يتصاعد مع ابتعادها وجريانها بدل أن يخفت. كبرت أمل وخلعت منديلها وتزوَّجت وأنجبت وتخرَّجت وهاجرت وكبر معها في زاويةٍ مظلمةٍ من زوايا نفسها خوفها من العصا وما يترتَّب على تلك

العصا من رضى صاحبها على والد أمل. في حالات الخوف يعود الإنسان طفلًا، والطفل يعلم أنَّه لا يستطيع العيش والاستمرار من دون رعاية والدَيْه. في حالات الخوف نضخِّم الخسائر حتى نصغر أمامها وحتى نتوهَّم أنَّ حيواتنا، بكلِّ ما سعينا له وحاربنا من أجله، لا قيمة لها.

19

سيطر الترقُّب على أمل خلال الأيَّام التي سبقت بثّ التقرير. ألغت كلَّ مواعيدها، لزمت البيت واعتزلت الحياة لتتكرَّس بكلِّيَّتها للأفكار الأكثر قتامةً والاحتمالات الأكثر كارثيَّة. انشطرت مشاعرها بين الخوف على أهلها وبين الخوف منهم: ماذا لو أُصيب أبي بذبحةٍ قلبيَّة؟ ماذا لو ارتفع مخزون السكَّر في دم أمِّي؟ ماذا لو تبرَّؤوا منِّي تحت الضغط أو لحفظ ماء الوجه أمام المشايخ؟ ماذا لو أثَّر الأمر على علاقتي بابنتي وفرص لقائنا؟

تجاذبتها الأفكار وحوَّلتها إلى زجاجةٍ عائمةٍ تتقاذفها أعتى الأمواج وتسوقها نحو الشاطئ الصخريّ للاحتمالات. فأدركت، كما لم تدرك من قبل، أنَّ جحيم الإنسان لا يمكن أن يكون خارج رأسه. خبرت ذلك عن طريق الأفكار السوداء التي اجتاحت رأسها وراحت تتناسل وتتكاثر، فشعرت وكأنَّ أحدهم ربطها إلى مقعدٍ أمام شاشةٍ عملاقةٍ تعرض أكبر مخاوفها مرارًا

وتكرارًا من دون توقُّف، وأجبرها على المشاهدة.

لن تُدرك أمل أنَّ الانفجار سيكون رحمةً لها إلَّا بعد أن يحدث. ستفهم عندها أنَّ العقاب أسهل من الخوف. فالعقاب واضحٌ ومحدَّدٌ وله أبعادٌ تسهُل حساباتها، أمَّا الخوف فهو أشبه بجرثومةٍ تتحوَّر مع اختلاف المزاج ومع مرور الساعات وتنوُّع المواقف والمشاعر. جرثومةٌ لا يمكن التخلُّص منها إلَّا بقتل كلّ ما تتغذَّى عليه.

تركت رسالة لرحمة قبل نهارٍ واحدٍ من عرض التقرير أخبرتها فيها أنَّها ستغلق هاتفها ليومَيْن كحدٍّ أقصى وطمأنتها أنَّها بخيرٍ وأنَّها ستَّتصل بها قريبًا. لم تقتنع رحمة التي سارعت للاتِّصال بأمِّها لتعرف ما إذا كان كلّ شيءٍ على ما يرام.

ـ «خبريني شو صاير؟» سألت رحمة بترقُّب.

صمتت أمل قليلًا قبل أن تُدرك أن التكتُّم على الأمر في هذه المرحلة لن يفيدها بشيء. فأخبرتها بشكلٍ مقتضبٍ عن التقرير الذي سيبثُّ غدًا على التلفزيون.

ـ «ما فهمت، وين المشكلة؟ وليه رح يضايقوكي؟» سألت رحمة ببراءتها المعهودة بعد أن أخبرتها أمل عن طبيعة التقرير والمقابلات التي أجرتها.

ـ «إنتي وأنا ما منشوف إنُّو في مشكلة بس الباقيين رح يعتبروني عم أفضحهم.»

حاولت أن تشرح لرحمة قدر المستطاع ووعدتها أن تناقش معها الأمر في وقتٍ لاحقٍ حين تراها. في ذلك النهار، أضافت

رحمة نوعًا جديدًا من القلق للائحة الأشياء التي تقلق على أمّها بشأنها، ولكن بخلاف القلق من كثرة السفر بالطائرة والقلق من أن تمرض في الغربة وحدها، كان هذا القلق مبهمًا. لقد استطاعت رحمة أن تستشعر أنَّ أمَّها في خطر، لكنَّها لم تتعرَّف على نوع الخطر ولا استطاعت أن تحدِّد الخصم، فهي لم تَرَ أمّها خائفةً من قبل.

استطاع الهاتف المغلق أن يحمي أمل قليلًا من الآخرين، لكنَّه لم يستطع أن يحميها من نفسها. قبل عرض التقرير بساعاتٍ أغلقت الستائر وأطفأت جميع الأضواء وذهبت إلى السرير بعد أن قرَّرت أنَّها لن تشاهد التقرير أبدًا. لا خلال عرضه الأوَّل ولا في أيِّ وقتٍ لاحق. بعد ساعاتٍ من الأرق استطاعت أن تنام قليلًا، نامت نوم منْ يعلم أنَّ قاربه مخرومٌ وأنَّ المياه لن تحتاج أكثر من بضع ساعاتٍ حتى تملأ القارب وتغرقه. في مساء اليوم التالي، حضَّرت فنجان قهوةٍ وأخذت نَفَسًا عميقًا وهي تضغط على زرّ تشغيل الهاتف. ظهر في أعلى الشاشة الكثير من الإشعارات بين مكالمات لم يُرَدّ عليها ورسائل من كافَّة مواقع التواصل الاجتماعيّ.

أصبح كيّ قميص عليٍّ يستغرق دقيقةً ونصف بدل الدقيقتَيْن بعد أن فقد ذراعه. فبدل أن تكوي الذراع الأيسر تبقيه مطويًّا. هذا ما كانت نبيلة تفكِّر فيه حين بدأ هاتفها بالرنين. أوقفت المكواة على حافَّة لوح الكيّ وضيَّقت عينَيْها لترى الرقم على شاشة الهاتف. كان عليٌّ يقف عند الباب وقد جاء بسبب صوت

الهاتف الذي طال رنينه. ضغطت على زرِّ الاستقبال وجلست تستمع إلى صوت المرأة القادم من الطرف الآخر، راحت نبيلة تهزُّ رأسها وتسترق النظر إلى عليّ، حاولت أن تسيطر على انفعالاتها أمامه وأجابت بأقلِّ قدرٍ ممكنٍ من الكلمات.

«ما معي خبر بالموضوع»، قالت وإذا بعينَي عليٍّ تصبحان أكثر فضولًا.

استمعت نبيلة للمرأة على الطرف الآخر لمدَّةٍ أطول. «الله بيهوِّنها. هلَّق بشوف شو بقدر أعمل»، قالت وأضافت «متّكلين على الله» قبل أن تغلق الهاتف.

وما لبثت أن وضعت الهاتف من يدها حتى رنَّ ثانية، وثالثة، ورابعة...

هكذا تهبُّ العواصف على نبيلة من حيث لا تعلم. عواصف تكوَّنت من نواة مآسٍ برعمت في وجدان ابنتها من دون أن تعلم عنها شيئًا. ونبيلة في هذه المواقف ليست فقط مطالَبةً بإدارة الأزمات ومنع الأمور من الانفجار، لكنَّها مطالبةٌ أيضًا بتهدئة عليٍّ الذي يفتقر إلى الاتِّزان ورباطة الجأش التي تتحلَّى بها أوقات الشدَّة.

حوَّلت الهاتف إلى وضعيَّة الصامت ونظرت إلى عينَيْه القلقتَيْن.

«خير شو في؟» سأل وقد بدا القلق جليًّا على تجاعيد وجهه الذي أصبح قاتمًا.

«ما تشوف إلَّا الخير يا علي. كلُّو بينحل بإذن الله»، قالت ثم

راحت تشرح له بمعلوماتها القليلة وحذرها الكبير في اختيار الكلمات، أنَّ ابنتهما أمل أعدَّت وقدَّمت تقريرًا تحاور فيه شخصيَّاتٍ درزيَّةً لامعةً عوقبت بالنبذ أو الإبعاد، لأنَّها خرجت عن طوع الطائفة وعاداتها وتقاليدها.

«شو إلها علاقة أمل بهالشغلات؟! ليش ما بتهتمّ بشغلها وبس؟!»، سأل بانفعالٍ وأضاف «مين شافوا للتقرير»؟ قال وقد بدأ الغضب يتمكَّن منه.

ولكن نبيلة لا تعلم من رآه ومن لم يره. كان عليها أن تقول له إنَّ التقرير عُرض مساء أمس على شاشةٍ فضائيَّةٍ وأنَّ جميع من يملك تلفازًا قد شاهده، لكنَّها خفَّفت من هول المعلومة قائلة:

«مش الكلّ زعلان منها يا علي!».

«شو يعني؟ شو قصدك؟»، سأل وقد وقف وبدأ يذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا، كأنَّه طائر دوريٌّ حشر نفسه في مدخنة مدفأة.

«ناس كتير عم يهنُّوني. عم يقولولي بنتك بتشرِّف».

وبدل أن يهدِّئه هذا الكلام انفعل أكثر. «المرحومة إمِّي كان معها حقّ. البنات همّهن للممات»، قال وقد ضاق ذرعًا. «دقِّيلها خلِّيها تجي هلَّق!».

«يا علي بدنا نروق قبل ما نحكيها. شو بينفعنا إذا بطَّلت تحاكينا وقطعت إجرها من الضيعة؟ بدّك نخسر البنت؟»، سألت نبيلة بنبرة صوتٍ تميل للرجاء.

«ليش خيفاني تخسريها؟ ليش هيك إنتِ ركيكة وبلا شخصيَّة متل إمّك؟»، قال وقد انقلب عليها وراح يذكِّرها بموقفها

المتساهل مع أمل حين تركت منزلها الزوجيّ في منتصف الليل، ورفضت أن تعود للعيش مع أبوَيْها بعد الطلاق كما تقتضي العادات والتقاليد. وأضاف أنَّ كلّ ما يحدث الآن هو نتيجةٌ لتلك الحرِّيَّة التي حصلت عليها أمل بسبب خوف نبيلة من خسارتها. عرَّج أيضًا على الشائعات التي تظهر وتختفي، والتي تتناول حياة أمل الشخصيَّة وسفرها إلى ألمانيا. ثمَّ فتح ملفَّاتٍ تتعلَّق ببناته الأخريات ولامها على إصرارها على إرسالهنَّ إلى المدرسة الثانويَّة بمالٍ اقترضته وتعهَّدت أن تُعيده من بيع الخبز.

أخذت نبيلة نَفَسًا عميقًا، وبدل أن تسمح لنفسها بالانجرار إلى مشادَّةٍ كلاميَّةٍ للدفاع عن نفسها، وبدل التفرُّغ لاستشعار عمق الجرح الذي سبَّبه لها كلامه، بقي تركيزها منصبًّا على كيفيَّة إدارة الأزمة. وقفت وذكَّرته بكلماتٍ حازمةٍ أنَّ أمل راشدة، وأنَّ أعمالها وقراراتها تمثِّلها ولا تمثِّلهم. نصحته أن يدافع عن نفسه من هذا المنطلق وليس عن طريق مهاجمتها.

غادرت نبيلة الغرفة بعد الشجار، وشعرت بصعوبةٍ في التنفُّس نتيجة تضخُّم الغدّة الدرقيَّة التي بدأت بعلاجها منذ سنوات. فتحت النافذة وكشفت عنقها للهواء، وما إن انتظمت أنفاسها حتى حملت الهاتف وطلبت رقم أمل.

«إنَّ الرقم المطلوب خارج الخدمة حاليًّا...» جاء الردّ الآليّ، فأغمضت عينَيْها قليلًا ثم فتحتهما وطلبت رقم رحمة.

«آلو تيتا... كيفك؟» جاء صوت رحمة.

«أنا منيحة حبيبتي. سمعتي شي من إمّك؟ بتعرفي ليه خطّها مسكَّر؟».

تردَّدت رحمة قليلًا وتلعثمت ثم قالت الحقيقة.

«خبَّرتني إنُّو رح تسكِّر خطَّها كرمال شي على التلفزيون بس ما فهمت كتير»، اعترفت رحمة ببراءة.

«طيِّب حبيبتي، إذا دقتلك قليلها تحكيني ضروري»، قالت نبيلة قبل أن تغلق الهاتف.

لا تعلم نبيلة من أين جاءتها الفكرة. للحظاتٍ بدا لها الأمر بعيد المنال، لكنَّها قرَّرت أن تجرِّب حظَّها. دخلت إلى حساب عاشقة الظلّ وفتحت شبَّاك المحادثة مع نسر الأعالي وكتبت:

«صباح الخير يا شيخنا الجليل. أرجو أن تكون والعائلة بخير. أودّ أن أهنِّئك من كلِّ قلبي على شجاعة وذكاء ابنتك أمل. لقد شاهدتُ التقرير الذي أعدَّته على الفضائيَّة نهار الأمس وأُعجبت جدًّا برؤيتها للأمور. قد يختلف البعض حول أهمِّيَّة هذا العمل أو الجدوى منه، لكنَّه يبقى لفتةً طيِّبةً تستحقّ الاحترام والتقدير. أبلغها سلامي».

كتبت نبيلة هذه الكلمات بأصابع باردةٍ ومتصلِّبةٍ وأنفاسٍ مكتومةٍ من دون أن تعلم ما ورد في التقرير بالضبط. لكنَّها استشفّت من الاتِّصالات والرسائل الكثيرة التي وصلتها طبيعة التقرير الجدليَّة ومحاولة أمل إرغام مجتمعها المحافظ على إعادة النظر في أمورٍ أصبحت من المسلّمات وصار المساس بها تهديدًا للهويَّة والوجود.

لم تكن تلك المرَّة الأولى التي تستعين فيها نبيلة بعاشقة الظلِّ لتهدئة عليٍّ والتأثير في رأيه وقراراته. لقد غاب عنها أن

تُخبر أمل عن هذا المكوِّن المهمّ لصداقتها الافتراضيَّة مع عليٍّ وعن أنَّ هذا التأثير ساعدها مرارًا في تهدئته وحثّه على تجاهل كلام الناس. حين انتشرت منذ سنةٍ أو أكثر شائعة زواج أمل من رجلٍ أجنبيٍّ كاد عليّ يفقد رشده، لكن عاشقة الظلِّ أقنعته بأنَّ كلّ شجرةٍ مثمرةٍ تُرمى بالحجارة، وأنَّ كلّ تلك البلبلة تحدث بسبب نجاح أمل واستقلالها: «المختلف دائمًا يخيف القطيع» كتبت له كي توضح وجهة نظرها، لكنَّها اضطرَّت أن تشرح الأمر بشكلٍ مبسَّطٍ وتُعطيه أمثلةً كثيرةً حتى استوعب الفكرة. فنبيلة تنسى وهي متواريةٌ في شخصيَّة عاشقة الظلِّ أنَّ محدوديَّة عليٍّ لا تختفي بانتهاء النفور بينهما، وتذكِّر نفسها بأنَّه إنسانٌ بسيطٌ ويميل إلى فهم الأمور بشكلٍ سطحيّ، وأنْ لا صداقة حقيقيَّةً أو وهميَّةً يمكنها أن تغيِّر هذا الأمر.

الكلّ يغامر ويسافر ويعود ويتعلَّم من تجاربه، ونبيلة تمتصُّ الصدمات من مكانٍ لا تبارحه، بل تعيش فيه راضيةً متأمِّلة، وتحوِّل نفاياته إلى أصص زرع، وتطعم قططه وتزرع أرضه وتنام وتقوم شاكرة. لقد خبرت فراق أخيها وموت أختها وطلاق ابنتَيْها ورحيل راغدة وفقدان ذراع زوجها، لكنَّها لم تختبر غياب الأمل ولم تسمح لليأس أن يتمكَّن منها يومًا. إلَّا أنَّ هذه المشكلة فريدةٌ من نوعها، ولا تنفع معها الأساليب القديمة التي كانت تتَّبعها في تسطيح الأمور والبحث عن مبرِّرات وخلق الأعذار. هذه المرَّة، خرجت المسألة إلى نطاقٍ واسع، وتكوَّن نتيجة لذلك حِلفان واضحان لا مكان بينهما للمواربة والمواقف الوسطيَّة. الفئة الأولى ترى أنَّ أمل تُشهر العداء لمجتمعها وتحطّ العقدة في

المنشار بتسليطها الضوء على كلِّ ما هو محرَّمٌ عند الدروز ولا مجال للتفاوض عليه. والفئة الثانية ترى أمل بطلةً لأنَّها ناقشت بموضوعيَّةٍ تامَّةٍ وعلى لسان من تعرَّضوا للنبذ مشاكل قائمةً لا يمكن الاستمرار في التغاضي عنها حتى لا يضرّ ذلك بمصلحة الطائفة وقدرتها على الاحتفاظ بالشباب واحتوائهم.

ونبيلة التي لا تعرف ما في التقرير مشغولةٌ باحتواء الانفجار وليس بتبنِّي رأيٍ حوله. لقد علمت منذ زمنٍ طويلٍ ومن دون مساعدة أحدٍ أنَّ الرأي هو أدنى ما يمكن أن يقدِّمه الإنسان وقت الأزمات الحقيقيَّة وأنَّ معظم الآراء ليست أفكارًا بقدر ما هي انفعالاتٌ تشبه إغلاق العين أمام المخرز ولا تقترب من التحليل ولا الفهم على الإطلاق. لذلك قرَّرت أنَّها لا تريد أن ترى التقرير ولا أن تكوِّن رأيًا حوله. وبعكس عليٍّ الذي كانت دواخله تتأجَّج بالأسئلة التي يودّ أن يطرحها على أمل، قرَّرت نبيلة أن تسألها سؤالًا واحدًا:

«ليش ما خبَّرتيني؟»، سألت ابنتها التي كانت تجلس في غرفة المعيشة في منزل والدَيْها بعد أيَّام من بثِّ التقرير. على الأريكة المواجهة، جلس عليٌّ مقطَّب الجبين ومكفهرَّ الوجه وقد بدا واضحًا لأمل أنَّه يحاول جاهدًا السيطرة على غضبه وضبط انفعالاته.

فأمل كانت تعلم أنَّ الاختباء لا يمكن أن يدوم إلى الأبد، وأنَّ عليها أن تذهب لمواجهة والدَيْها ولوداع ابنتها قبل أن تعود إلى ألمانيا. في طريقها إلى القرية، رفضت أن تتقمَّص دور الضحيَّة وتختبئ خلفه. فهي واعيةٌ تمامًا بحساسيَّة الخطوة التي

اتَّخذتها بإعداد وتقديم التقرير، كما أنَّها مقتنعةٌ تمامًا بحسن نواياها ودوافعها. يبقى فقط أن تتمكَّن من الردِّ على والدَيْها بأكبر قدرٍ ممكنٍ من الهدوء والموضوعيَّة. علمت أنَّها على مشارف حربٍ ضدَّ كلّ مخاوفها ومعتقداتها السابقة وأنَّ حليفها الوحيد سيكون صدقها مع نفسها. وعلمت أيضًا، في مكانٍ عميقٍ في داخلها، أنَّ الإنسان قد يخسر كلّ شيءٍ في الحروب. وهذا يعني خسارة أمّها أيضًا.

نظرت أمل إلى خارج النافذة حيث ينتصب الجبل راسخًا وهادئًا غير مبالٍ بالاهتزازات الحاصلة في كلٍّ منهم، وأجابت أمّها على السؤال بصراحةٍ تامَّة:

«لأنَّك ما كنتي رح تقبلي بفكرة التقرير ورح تحاولي تمنعيني»، قالت وهي تحدِّق إلى الجبل.

«ما فكَّرتي فينا وكيف ممكن يأثِّر علينا تخبيصك؟»، سأل عليٌّ وهو يبذل جهدًا جبَّارًا لاصطناع الهدوء.

«لا للحقيقة. فكَّرت بالأشخاص يلّي بالتقرير. مش فيكم ولا بحالي»، قالت أمل وهي تذكِّر نفسها بضرورة أن تبقى صريحةً وصادقة.

ولكنَّ عليًّا انفجر. انفجر لأنَّه خائفٌ وقليل الحيلة، ولأنَّه لا يعرف كيف يتعامل مع امرأةٍ تقول له لا. والـ «لا» كانت ضمنيَّةً وغير معلنة. قالت أمل: لا لم أفكِّر بكما. وهو سمع:

«لا» لم أفكِّر بورطتك مع المشايخ.

«لا» لم يعد عالمي يدور في فلككم.

«لا» لم أعد أفضّل أهدافي ومشاريعي على مقاس التزامك الدينيّ وهو خيارٌ اتَّخذتَه بنفسك منذ خمسين سنة وأجبرتنا على الإذعان له والعودة إليه في كلِّ صغيرةٍ وكبيرة.

«لا» لست خائفة.

«لا» مش باقية على شي.

كظم عليٌّ غيظه طويلًا، لكنه انفجر بعد أن صفعته كلّ تلك اللاءات وندمَ على الساعة التي سمح فيها لبناته أن يتركن المشيخة، موبِّخًا أمل على أنانيَّتها، نادبًا حظَّه لأنَّه لا يعرف كيف سيبرِّر للمشايخ فعلتها ولا كيف سيتقبَّلون وجوده بينهم إذا ظلَّ يستقبلها في بيته.

ثم توجَّه إليها سائلًا إيَّاها باستخفافٍ وسخريةٍ ما إذا كان هدفها أن يتزوَّج الجميع من خارج الطائفة وسط زغاريد الدروز واحتفائهم بالعروسَيْن.

«بدِّك بدل ما نحاسبهم نشيلهم على الراحات؟».

فهو يظنّ أنَّ المجتمع الدرزيّ مسالمٌ ومحايدٌ إلى أعلى الدرجات. لأنَّ الدروز لا يؤمنون بالعنف ولا تنتشر في مجتمعاتهم جرائم الشرف، فكلّ ما يفعلونه هو الإحجام عن عِشرة من يخرج عن طوع الطائفة. وأوضح لها أنَّ الحرِّيَّة لا تقتصر على قول ما تريده هي وفتح الهواء للضالِّين كي يقولوا ما يريدونه في التلفزيون، وإنَّما الحرِّيَّة تشمل أيضًا حرِّيَّة المحافظين من الدروز في رفض هؤلاء وعدم التعامل معهم.

استغربت أمل أنَّ أمّها لم تتدخَّل لا لتدينها ولا لتدافع عنها

مثل عادتها. وفهمت ما لا تريد أن تفهمه. فهمت أنَّ نبيلة مغلوبٌ على أمرها وأنَّها لا تُهزم إلَّا من داخلها. شعرت أمل بحريقٍ طفيفٍ في عينَيْها، لكنَّها أرغمت نفسها على ترك تلك الفكرة والتركيز على ما يقوله والدها. بدت متفهِّمةً وأعطته كامل الحقّ، لكنَّها أصرَّت على أنَّ حرِّيَّة الرأي يجب أن تشمل الجميع.

«معك حقّ، المحافظين أخذوا حقّهم ونبذوا المتمرِّدين، وأنا كمَّلت القوس وعطيت المتمرِّدين حقّهم بتوصيل صوتهم ووجهة نظرهم»، قالت ثم وقفت وأعربت عن رغبتها في المغادرة.

«رح آخذ رحمة على فاريًا هيذي الجمعة، ما تنطرونا»، قالت وهي تتوجَّه إلى الباب، وهناك وقفت واسترقت النظر إلى وجه نبيلة الذي سيطر عليه الحزن وعينَيْها الغارقتَيْن في حالةٍ من غياب الحيلة، «يلَّا بخاطركم»، أضافت أمل قبل أن تغادر بخطواتٍ سريعة.

كان بإمكان أمل أن توسِّع رقعة الحرب، أن تفتح حساباتٍ قديمةً وتذكِّر والدها بأنَّها تزوَّجت في السادسة عشرة من عمرها كي تكمل تعليمها الجامعيّ لأنَّ التزامه الدينيّ كان يمنع المشايخ من إرسال بناتهم إلى الجامعات. أرادت أن تخبره أنَّ التزامه الدينيّ تحكَّم في حياتها بطرقٍ لم تعد تستطيع فهمها وتفنيدها وتمييزها. فأمل لا تعرف لماذا وهي على مشارف الأربعين ما زالت ترتعد حين ترى شيخًا معمَّمًا، ولا تعرف لماذا تنتفض من مكانها حين يدخل والدها إلى الغرفة وهي تجلس شبه مضطجعة. لماذا لم تستطع طيلة حياتها أن تنفض عنها الشعور الدائم بأنَّها مذنبةٌ مع عجزها عن تحديد طبيعة ذلك الذنب. لماذا تشعر وهي

المتعلِّمة الحاملة لشهادة الدكتوراه بأنَّها تعود صغيرةً عمرًا وقيمةً في وجود رجال الدين حتى وإن كانوا عاجزين عن فكِّ الحرف ولم يغادروا قراهم في حياتهم؟!

كان قلبها مليئًا بالعتب، لكن لم يكن هدفها أن تصفِّي حساباتها مع عليّ. فهي لم تحمِّله يومًا مسؤوليَّة ما آلت إليه الأمور، ليس لأنَّها تحبّه أو تخافه، بل لأنَّها تعلم ككلِّ مراقبٍ ذكيٍّ تربَّى في مجتمع منغلقٍ على نفسه، أنَّ الورطة أعمق وأبعد بكثير من قرار بضعة أفراد. كانت مدركةً أنَّها تتعامل مع وعيٍ جمعيٍّ مطبوع على الطاعة والخوف والإخلاص لأصحاب السلطة. فبدل أن يتسابقوا على تصويب الأمور وتحديث مفهوم العدل، يتبارى المتديِّنون على الطاعة والانصياع للأوامر وطمس أيّ محاولةٍ للسؤال والتفكير والتغيير. لكنَّها، وإن أرادت أن تكون منصفة، لا تستطيع أن تلوم الدين أو الكتاب المقدَّس، لأنَّ المتمرِّد الأوَّل الذي عرفته في حياتها كان الشيخ أبي طاهر، والذي كان دائمًا يكرِّر «الإنسان لا يُحاسَب إلَّا على أعماله، ولا تزر وازرةٌ وزر أخرى». الشيخ الذي حظي بإجماعٍ كلِّيٍّ في الطائفة على أنَّه أحد أهمّ أعلامها وأكثر المشايخ ورعًا في تاريخها. ولكن بدل أن يقدِّسوا نهجه قدَّسوا ذكراه، وبدل أن يحذوا حذوه علَّقوا صوره على الجدران وانغمسوا في وحل التبعيَّة العمياء.

مع نهاية زيارتها ظنَّت أمل أنَّ المواجهة قد انتهت، وعلى الرَّغم من الرجفة التي اجتاحت كيانها كلّه وهي في منزل والدَيْها، فإنَّها شعرت بشيءٍ من الارتياح حين غادرت. اختفى كلّ ما قاله

عليّ. وكما تغرق الأجسام الثقيلة المنفلتة من حطام السفن في المحيط، غرقت جمله، وتعابيره، وغضبه. أمَّا سؤال نبيلة فبقي بخِفَّته وغموضه كزهرةٍ طافحةٍ على سطح وجدانها لا تعرف كيف تحيا ولا كيف تغرق. «لماذا لم تخبريني؟» سألت نبيلة وكأنَّها ترمي إلى الجزء الذي يعنيها من التقرير، إلى أخيها ذوقان. يا للعتب الذي قد يحمله سؤالٌ بهذه البساطة حين يصدر من نبيلة وحين يستقرّ على مرمى دمعةٍ من شعور أمل المزمن بالذنب.

بقيَ سؤال نبيلة يؤرق أمل، يذكِّرها بأنَّها خائنةٌ وأنَّ شرخًا ما قد أصاب الصداقة التي تجمعها بأمِّها. وتساءلت إذا ما كانت لا تزال هي وأمّها في خندقٍ واحدٍ أو إذا ما كان سيجمعهما خندقٌ آخر مرَّةً أخرى بعد اليوم. سمحت لنفسها أن تنغمس في الحسابات الداخليَّة لأنَّها لم تكن تدري أنَّ طوفانًا جديدًا يتربَّص بها. أنَّها ستستيقظ في اليوم التالي على اتِّصالاتٍ من أرقام غريبةٍ وأشخاصٍ مجهولين بين مهنِّئين ومعاتبين وشاتمين ومهدِّدين. ستعلم من أحدهم أنَّ التقرير نُشِر على يوتيوب وأصبح متاحًا للمشاهدة للجميع في كلِّ الأوقات.

تخيَّلت صوتها وصورتها على شاشات الهواتف وأجهزة الكومبيوتر المحمولة في قرية عينصورة، وشعرت بموجةٍ جديدةٍ من الرعب. كأنَّ كلَّ الذي عاشته في الأيَّام السابقة كان محض حلم، وها هو يتحوَّل بفعل الخوف إلى حقيقةٍ تلاحقها وتهدِّدها. تسارعت أنفاسها وشعرت برغبةٍ في المغادرة إلى ألمانيا على متن أوَّل طائرة. لكنَّ رحمة كانت تنتظر نهاية الأسبوع بفارغ الصبر لترى أمَّها. ليس لرحمة ذنبٌ في كلِّ ما يحدث وهي الموعودة

بيومَيْن تقضيهما رفقة أمل في منتجع في فاريًّا.

ظهر رقم نبيلة على الشاشة وتعالت معه نغمة الرنين. بدا صوتها هادئًا ومتَّزنًا على الهاتف وهي تُخبر أمل أنَّ الشيخ ريدان أرسل في طلب والدها وفتح معه تحقيقًا بشأن التقرير. أخبرتها أيضًا أنَّ عددًا من المشايخ قصدوه لينبِّهوه إلى التقرير وخطورته على المجتمع. وفي النهاية، زفَّت إليها السبب الحقيقيّ لاتِّصالها وأخبرتها أنَّ الشيخ ريدان يريد لقاءها وأنَّه ينتظر منها تفسيرًا لما حدث. تردَّدت أمل قليلًا، لكنَّها حين لمست رغبة أمّها في موافقتها على إجراء هذا اللقاء، وافقت مأخوذةً برغبتها في مصالحة نبيلة، مفوِّتةً على نفسها فرصة التفكُّر في الأمر مليًّا.

فقط عندما أنهت الاتِّصال، أدركت أنَّها وضعت نفسها في مأزق وأنَّ لقاءها مع الشيخ ريدان لن يكون على أرضٍ مستوية. فهي تخافه منذ البداية، منذ أصبح ترقّب عمامته وعصاه هاجسها اليوميّ الذي أفسد عليها طفولتها ولعبها مع أطفال الحيّ إلى الأبد. منذ كسر خاطر نبيلة وأبكاها حين منع الشيخَ أبي طاهرٍ من زيارة بيتها في العيد بسبب التلفاز الذي اقتنوه خفية. منذ اختطف والدها إلى عالمه وجعله شخصًا تحذر منه وتخاف التصرُّف على سجيَّتها في وجوده.

ماذا يريد هذا الكابوس الذي يُدعى الشيخ ريدان منها؟ من أين أتاه الاستحقاق ليرسل في طلبها؟ وأيّ سلطةٍ له عليها؟ تحوَّل الخوف الذي كان يقبض على عنقها إلى غضب. وكم أحبَّت أمل هذا الغضب. للمرَّة الأولى أدركت أنَّ الغضب سياجٌ يحمي، وأنَّ الخائف يتراجع والغاضب يهجم، كما فهمت لماذا يقول الحكماء

إنَّ أكثر الناس غضبًا هم أكثرهم خوفًا. لكنَّها الآن في معركةٍ وتحتاج وقودًا للهجوم، فتمسَّكت بغضبها واتَّصلت بأمِّها مجدَّدًا لتخبرها بأنَّها تعتذر عن مقابلة الشيخ ريدان وأنَّها، بعد أن راجعت نفسها، أدركت أنَّها لا تدين لأحدٍ بتبريرٍ أو اعتذار. ولكنَّ الأوان كان قد فات لأنَّ نبيلة أخبرت الشيخ بموافقة أمل على لقائه نهار غد.

«ما تعَّقدي الأمور أكثر يا أمل بترجَّاكي»، قالت نبيلة وفهمت أمل أنَّه لم يعد هناك من مخرج. تعارض الموعد الذي حدَّده الشيخ ريدان مع خطط أمل للذهاب مع ابنتها إلى فاريًا في الصباح الباكر. فتخلَّت عن مخطَّطها وراحت تتهيَّأ نفسيًّا ومعنويًّا لذلك اللقاء الذي تجنَّبته طيلة حياتها. حاولت أن تجهِّز خطابًا داخل رأسها وتختار كلماتٍ أكاديميَّةً ومصطلحاتٍ متخصِّصةً للتعبير عن أفكارها والاحتفاظ بمهنيَّتها. شعرت أنَّ انتقاء مصطلحاتها بعنايةٍ سيحميها من أيَّة ضغوطٍ قد يستخدمها والدها في حضور الشيخ ريدان ليجبرها على قول ما لا يرضيها. أكثر ما كان يزعج أمل في المثقَّفين العلمانيِّين الثائرين، من كافَّة الديانات، هو التحوُّل الذي يطرأ عليهم في حضرة رجال الدين، فيتبنَّوْن مصطلحاتهم و«يتدروشون» مثلهم وكأنَّهم يعتذرون عن الهويَّة التي تبنّوْها بعد انسلاخهم عن الجماعة وخوضهم رحلةً حقيقيَّةً بعيدًا عن رحم الملَّة. لكنَّها في تلك اللحظة فقط استطاعت أن تجد لهم عذرًا، لأنَّها أدركت أنَّ معظمهم لا يزال محبوسًا في قبو طفولته، يبحث عن رضا أبوَيْه عن طريق إرضاء كلّ ما يقدِّسه هذان الأبوان. ولكن أليست الثقافة بمعناها الأكبر

هي القدرة على فهم المجتمع والعالم بأسره مع الاحتفاظ بمسافةٍ نقديَّةٍ بين المثقَّف ونشأته وعالمه؟ ألا تعني الثقافة تكوين رؤيةٍ مستقلَّةٍ ومتحرِّرةٍ من وعي الطفولة؟

قرَّرت أنَّها لن تطلب «صفو خاطره» كما يفعل أيّ إنسانٍ في حضرة شيخ ذي سمعةٍ ومنزلةٍ دينيَّةٍ عاليةٍ وأنَّها عوضًا عن ذلك ستعامله بالاحترام الذي تعامل به كلَّ الأشخاص، وتجيب على أسئلته بما أوتيت من قدرةٍ على تلطيف الأوضاع والحفاظ على العلاقات.

في طريقها إلى القرية ارتدت بنطالًا فضفاضًا وبلوزةً سوداء وكأنَّها في طريقها إلى مأتم. حتى باختيارها للثياب راعت العيون التي ستحكم عليها من أصغر التفاصيل في مظهرها وصولًا إلى أكثر أفكارها تمرُّدًا. تذكَّرت كلّ المرَّات التي استخدمت فيها ثيابها لترضي الآخرين. المرَّات التي أسرعت فيها للملمة ياقة قمصيها أو شدّ تنُّورتها حتى أسفل الركبة بسبب وجود أشخاصٍ قد ينظرون إليها نظرةً دونيَّةً فقط لأنَّها امرأةٌ لا تحرص على إخفاء مفاتنها. لقد فعلت ذلك كثيرًا، في وجود رجالٍ ونساء، في لبنان وفي ألمانيا، وكانت مدركةً أنَّها تحشر نفسها في قوالب صنعها الآخرون وقرَّروا أنَّ كلَّ من يخرج عنها سيُعاقَب بنظرةٍ فوقيَّةٍ تُدين وتستنكر وتحكم عليها. ولكن ماذا عن قالبها هي؟ لماذا لم تصنع قالبًا على مقاسها وتزجّ به في ساحة القوالب المعروضة؟ لماذا لم تكفّ عن تواطئها ضدَّ نفسها كي تفوز برضا الآخرين؟

من لم يحصل على القبول من والدَيْه سيبحث عنه في الآخرين مدى الدهر. لمع هذا الاستنتاج في رأسها وكأنَّه برقٌ

شقَّ صدر السماء أثناء عاصفةٍ رعديَّة. طفحت الدموع من عينَيْها، لكنَّها سارعت بتشغيل الراديو على إذاعة تبثّ الأغاني الأجنبيَّة، وسمحت للموسيقى أن تنتزعها من مزاجها المفخَّخ بالمشاعر والأفكار. فكرةٌ سوداء تسلَّلت إلى رأسها: تمنَّت لو تنزلق سيَّارتها إلى الوادي ولا تصل أبدًا إلى عينصورة. أرادت أن تتخلَّص من اللقاء الذي خالته سيتحوَّل إلى محاكمة، لكنَّها أكثر من ذلك أرادت أن تحرق قلبهم عليها. فالموت يفضح تفاهة الأمور التي تشعل فتيل الغضب في دواخلنا. الموت هو الهويَّة الحقيقيَّة لكلّ من هو حيّ، لذلك يفضح حضوره زيف كلّ الهويّات الأخرى.

كانوا بانتظارها. والدها بلباسه الرسميّ ومعه اثنان من أبناء أعمامه المشايخ، اختارا أن يقفا إلى جانبه في مصابه هذا. سلَّمت عليهما من دون مصافحةٍ وجلست بصمتٍ تامّ. كانت في ظروفٍ أخرى ستسأل عن زوجتَيْهما وعن أعمار وأعداد أولادهما، لكنَّها صمتت مختارةً وأدركت كم يصبح خيار الانسحاب أسهل حين نفهم دوافعنا وقت التورُّط والإفراط في الكلام.

ظنَّت أمل أنَّهم ينتظرون وصول شيخ الضيعة، لكن بعد دقائق تبيَّن لها أنَّ الشيخ ريدان لن يأتي إلى منزل عليّ، إنَّما عليهم جميعًا أن يذهبوا إلى الخلوة من أجل الاجتماع. وقفت أمل بسرعةِ مَن لدغته أفعى. كان والدها قد ذهب ليحضر شيئًا من الغرفة الأخرى حين قالت للشيخَيْن الآخرَيْن إنَّها لن ترافقهم في تلك الزيارة.

«روحي كِرمال والدك يا ستّ أمل»، قال الشيخ القصير.

ذكَّرها الشيخ الآخر أنَّها غير مرغمةٍ على شيءٍ لأنَّها ليست شيخة، وأكَّد لها أنَّها قد تكون السبب في إبعاد أهلها عن الخلوة.

«لكن هذا ابتزاز»، قالت أمل وكأنَّها غير مصدِّقةٍ لما تسمع ولا كيف أغفل المشايخ حقيقة أنَّ هذا المنطق الابتزازيّ لا يجب أن يكون ممارسةً دينيَّة.

دخل عليٌّ إلى الغرفة فصمت الشيخان ونظرا إليه وقد بدا على ملامحهما أنَّهما يعرفان شيئًا لا يعرفه.

«خلِّينا نمشي»، قال عليٌّ وهمَّ بالمغادرة. لكن أمل تناولت حقيبتها واعتذرت عن الذهاب معهم بحجَّة أنَّ أحدًا لم يخبرها عن مكان اللقاء. «ليش ما في صراحة بالتواصل؟»، سألت أمل وقد طغى شيءٌ من الانفعال المتعمَّد على صوتها.

حاول أبوها أن يُشعِرها بالذنب قائلًا إنَّه وأمّها لا يستحقَّان هذه المعاملة منها وإنَّهما حَرِصا على العيش بكرامةٍ طيلة حياتهما. قال لها ذلك بصوتٍ مرتفعٍ ولهجةٍ فيها خليطٌ من التأنيب والاستعطاف.

حاولت أمل أن تشرح له أنَّ المشكلة تكمن في قوانينهم وليس في التقرير الذي أعدَّته. استنكرت أن يُحاسَب والدها بسبب أعمالها وهي امرأةٌ راشدةٌ على مشارف الأربعين، وأن تساق هي بعد كلّ هذا العمر والإنجازات لتَمثُلَ أمام رجل دينٍ في عرينه.

«من الآخر، الشيخ ريدان بدّو منك تقدّمي اعتذار رسميّ على التلفزيون»، قال عليٌّ وقد ضاق ذرعًا بالنقاش.

أتت نبيلة من الغرفة الأخرى لتستطلع سبب الصراخ والأصوات المرتفعة. تلاقت نظرتها بنظرة أمل التي كانت منغمسةً في التعبير عن رفضها القاطع لوضع المنديل على رأسها أو اعتذارها للشيخ ريدان سواء في السرّ أو في العلن. حاولت نبيلة تلطيف الأجواء قائلة «ما تكبّري الموضوع يا أمل. روحي مع بيّك وراضي الشيخ ريدان بكلمتين وبلا فضايح!».

«فضايح؟» قالت أمل وهي تشعر بالخذلان من تواطؤ أمّها مع وصاية المشايخ. أكّدت لهما، وهي تحاول كبح جماح غضبها، أنّها إن ذهبت إلى الخلوة ستجلس أمام الشيخ بشعرها المكشوف وستقول له كلامًا سيزيد الطين بلّةً وسيعمّق الخلاف أكثر.

انتفض والدها غاضبًا وهدّدها أنّ رفضها للمثول أمام الشيخ ريدان سيترتّب عليه إمّا مقاطعتهما لها وإمّا مقاطعة المشايخ له ولأمّها. تكلّم عليٌّ بصراحةٍ وكأنّه قرّر أن يفتح كلّ أوراقه ويضعها فوق الطاولة.

على الصعيد الشخصيّ، الاعتذار يعني التنكُّر لكلِّ ما تؤمن به أمل وفقدان احترامها لنفسها إلى الأبد، وعلى الصعيد المهنيّ سيطعن تراجعها في مصداقيّتها ويؤثّر على عملها ونظرة الناس إليها وإلى كلّ ما تقدّمه. هل يُعقل أنّها بعد كلّ ما حقّقته ستعود إلى المربّع الأوّل وتسمح للشيخ صاحب العصا التي لكشتها وأرعبتها وهي طفلةٌ أن يملي عليها أجندة عملها ويحدّد لها ما تقول وما لا تقول؟ أيُعقل أن يستخدم أهلها المساكين كي يُخضعها؟

«خلص أنا عندي حلّ. قول للشيخ ريدان أنّكم اتبريّتوا منّي وارتاحوا وريّحوه»، قالت أمل بتحدّ.

أرادت نبيلة أن تتدخّل لتقرّب وجهات النظر، لكنّها علمت أنّ أيّ محاولةٍ منها للدفاع عن أمل سوف تجعل عليًّا أكثر شراسةً في الدفاع عن وجهة نظره. وقفت عند الباب تتأمّلهما في حالة الغضب التي تحُول دون فهمهما لبعضهما بعضًا. لكنّها فهمتهما معًا بالمقدار نفسه واقتنعت بحجج الاثنَيْن بالتجرُّد نفسه. فالإنسان بالنسبة لها سؤالٌ ممتدٌّ من الطفولة حتى الكهولة، وكلّ الصراعات التي يخوضها هي محاولاتٌ متواضعةٌ للإجابة عن هذا السؤال. وعليٌّ سؤالٌ أيضًا: سؤالٌ بدأ بجبروت والده وانكسار أمّه وتدرُّبه الدؤوب على الطاعة. أفنى عليٌّ طفولته ومراهقته في تقديم قرابين الطاعة إلى والده الذي عجز عن إرضائه. كبر الطفل وكبرت معه الرغبة في الطاعة التي كانت السبيل الوحيد لكسب رضا الآخرين. في مجتمعٍ تغيب عنه كافّة الإنجازات العلميّة والمهنيّة، يصبح رضا الآخرين مقياس النجاح الوحيد الذي يعرِّف به الفرد عن نفسه.

حين تزوَّجت أمل في سنّ السادسة عشرة، قال عليٌّ إنّها كالنسمة وإنّ أحدًا لم يشعر بوجودها في بيتهم منذ ولادتها حتى زواجها. لكنّه لم يتخيَّل أبدًا أنّ تلك النسمة ستعود بعد عقدَيْن من الزمن على شكل إعصارٍ محمَّلٍ بالرفض المكبوت والغضب الذي كان يتوارى خلف مشاعر أخرى. رغم محاولات نبيلة الكثيرة لدرء هذا الاصطدام إلّا أنّها علمت أنّه قادمٌ لا محالة. علمت ليس فقط بسبب تقرير أمل، بل عن طريق مراقبتها للمجتمع

والقوانين التي تحكمه. لم تقرأ نبيلة «هيغل» ولا أخبرها أحدٌ عن مفهوم الديالكتيكيَّة وكيف يأتي الشيء بنقيضه في عمليَّةٍ دائريَّةٍ لا تنتهي، لكنَّها علمت أنَّ موجة التشدُّد في عينصورة وتقديس شخصيَّةٍ مثل الشيخ ريدان ستأتي بموجةٍ مضادَّةٍ من الرفض ومحاولات الانقلاب على التشدُّد. وأنَّ وجود الشيخ ريدان بدوره أتى نتيجةً للتساهل الذي حدث قبل ذلك والنزوع للتحايل على الثوابت من العادات والتقاليد.

لم تنظر أمل هذه المرَّة إلى عينَي نبيلة الحزينتَيْن ولم تقل لها «بخاطرك يا إمِّي» ولا ناولتها نبيلة كما تفعل دائمًا كيسًا حضَّرته مسبقًا وملأته بخبز الصاج الطازج والخضروات البلديَّة كي تأخذه معها إلى ألمانيا.

آلم نبيلة أن تخرج أمل من المنزل بهذه الطريقة. وآلمها أكثر أنَّها ستغادر لبنان غدًا من دون أن تودِّعها. استلقت على سريرها وأطفأت النور. فها هي تجد نفسها معلَّقةً بين عالَمَيْن من جديد، بين قطبَيْن، عجزت حتى عن طريق انتحالها لشخصيَّة عاشقة الظلّ أن تفتح قنوات تواصلٍ بينهما. التواصل، الذي آمنت به نبيلة طويلًا، خذلها الآن. سقط سحر الكلمة في نظرها وشعرت أنَّ اللؤلؤة التي كانت تخبِّئها في أعماق قلبها قد تحوَّلت إلى رماد. كلّ الشخصيَّات التي خلقتها كي تتحدَّث بلسانها تجسَّدت أمامها، فراحت تحدِّق إليها واحدةً تلو الأخرى، وكأنَّها تطالبها بأن تملي عليها ماذا يجب عليها أن تفعل. تسرَّب صوت أمّ كلثوم من النافذة الموارِبة:

أعطني حرِّيَّتي أطلق يديَّا

إنَّني أعطيت ما استبقيت شيئًا

للمرَّة الأولى شعرت أنَّها تريد أن تقاوم سحر الكلمات. أن تكفر بها. أن تتحرَّر من وهم قدرتها على التحكُّم في عالمها الصغير عبر تحويله إلى غرفٍ وتخصيص صوتٍ مختلفٍ لساكن كلّ غرفة. أصغت إلى كلمات الأغنية وشعرت بجسدها يطفو فوق النغمة. ضوءٌ ما تسرَّب من الخارج، دخل الغرفة من بين المسافة التي تفصل شِقَّي الستارة وترك خطًّا طويلًا مائلًا على الجدار. تخيَّلته نبيلة حبل نجاةٍ جاء لينتشلها من وحل يأسها وتركته يفعل ذلك. قبلت بعجزها عن تصويب الأمور هذه المرَّة. تخلَّت عن كلِّ شخصيَّاتها وعادت نبيلة فقط، بسنواتها الثلاث والستِّين، بجسدها المتعب وقلبها الطفل. شعرت بخفَّةٍ غريبةٍ في جسدها وروحها. خفَّةٌ تشبه الخلاص.

* * *

مكتبة
t.me/soramnqraa

20

أعاد توتُّر علاقة أمل بأمِّها ذكرى مأساة ابن خالتها وليد وكلّ ما رافق علاقته بأمِّه من استهجانٍ وتحليلٍ وتشريح. لم تغب تلك القصَّة عن أمل رغم مرور السنوات، وكانت تعود إليها دومًا بعد قراءة كتب علم النفس أو مشاهدة أفلام تطرح إشكاليَّة علاقة الأبناء مع أمَّهاتهم. وظلَّ وليدٌ في رأيها النموذج المشوَّه للبنوَّة. في لاوعيها كان وليدٌ يجسِّد كلّ ما تخشاه، كان مثالًا حيًّا للرفض الذي يؤدِّي إلى العزلة، والغضب الذي يؤدِّي إلى الجنون. لم تنكشف لها هذه النقطة إلَّا بعد مواجهتها الأخيرة مع والدتها ومقاومتها الشعور بالغضب تجاه نبيلة. وانكشفت لها أيضًا رغبتها الشديدة في حماية أمِّها وميلها إلى لعب دور الأمّ معها. ربَّما لهذا أخفت أمل عن نبيلة الرسالة التي وصلتها من وليد عن طريق البريد الإلكترونيّ بعد خروجه من المستشفى والتي يشرح فيها بالتفصيل علاقته بأمِّه وأسباب انهياره.

ارتجفت أمل آنذاك وهي تقرأ رسالة وليد الطويلة والتي كان وقعها مضاعفًا، لأنَّ أمل في ذلك الوقت كانت قد أصبحت أمًّا. بدأ وليد رسالته بالاعتذار عن كلِّ ما بدر منه واعترف بأنَّ اتِّهاماته لأمِّه بأنَّها كانت إرهابيَّةً لم تكن سوى هلوساتٍ نتجت عن حالةٍ نفسيَّةٍ تُسمَّى اضطراب ما بعد الصدمة، وأنَّ أمَّه كانت في الواقع إنسانةً ضعيفةً فعلت كلّ ما في وسعها لتُرضي الجميع وفي النهاية لم تُرضِ أحدًا. تحدَّث عن تعنيف أبيه المتكرِّر لأمِّه وعن المرَّات التي اختبأ فيها هو وسمر تحت طاولة المطبخ حتى تمرَّ نوبات غضب والده، ليزحفا بعدها على أيديهما ورُكبهما من مكان الاختباء، فتأخذه بعدها سمر إلى غرفته لتبدِّل ملابسه الغارقة بالبول وتضعه في سريره. بعدها تقفل عليه الباب ثم تنصرف كي تُعيد كلَّ غرضٍ إلى مكانه وكأنَّ شيئًا لم يكن. قال إنَّه كان يرتجف حتى الصباح وينتظر ظهور ظلّ نعلَيْها من تحت باب الغرفة. لكنَّها لم تأتِ ولا مرَّة. كانت تخاف عليه من والده الذي يغار عليها منه فيبرحه ضربًا حين يطلب من أمِّه أن تنام إلى جانبه.

مأخذ وليد الأكبر على أمِّه كان عدم محاولتها طلب المساعدة من أجل إنقاذ ابنها بل، على العكس من ذلك، كانت تحثّه على الكذب والتظاهر بأنَّه سقط عن الدرج حين يسألونه في المدرسة عن البقع الزرقاء على وجهه وجسده. كانت تخوِّفه من التشرُّد إذا ما أتت الشرطة الأستراليَّة واعتقلت والده، مع أنَّها كانت هي العاملة التي تؤمِّن مصاريف البيت وكان والده السكِّير العاطل عن العمل. في محاولتها لتفادي شرَّ زوجها وتجنُّب

استفزاز غضبه، نسيت سمر أن تكون متاحةً عاطفيًّا لابنها. تلك الحوادث جعلته يدرك حجم الضرر الذي يُلحقه الضعفاء بمن حولهم. عاب على الناس انشغالهم بإدانة الطغاة، ورفضهم للوم الضعفاء، لأنَّ إذعان الضعفاء لسلطة الطغاة هي، بحسب رأيه، أساس المشكلة.

ظنَّ وليد أنَّ عليه أن ينتقم من صمت أمّه وضعفها قبل أن يتمكَّن من مسامحتها. لقد توهَّم أنَّ الحياة ستمنحه اللحظة المناسبة لمواجهة والدته بكلِّ ما يختلج بداخله منذ سنوات. لقد نصب المحاكمات وكوَّم القضايا وجمع الأدلَّة ورافع وأصدر الحكم، لكنَّ كلَّ هذا حدث داخل رأسه فقط، وحين أتى الموت وأخذ تلك المرأة التي أدانها لأنَّها حجبت عنه أمُّه، أدرك أنَّ الأوان قد فات لأنَّه خسرهما معًا.

أمل غير القادرة على فصل نفسها عن أمّها أعجبت بقدرة وليد على رؤية الخلل في شخص أمّه عوضًا عن رمي المسؤوليَّة بكاملها على عاتق والده، وتساءلت كيف سيكون موقفها لو كانت هي في مكانه. تساءلت أيضًا إذا ما كانت الأمور ستختلف لو كان وليد أنثى. بعد أيَّام من وصولها إلى برلين، بحثت أمل عن تلك الرسالة في بريدها الإلكترونيّ وأعادت قراءتها أكثر من مرَّة. بدت وكأنَّها تبحث عن إجاباتٍ تخصُّها هي هذه المرَّة، ولكن بدل الإجابات وجدت وابلًا من الأسئلة: لماذا أخفت هذه الرسالة عن أمِّها لفترة طويلة؟ ألم يكن من واجبها الأخلاقيّ أن تُظهر الرأي الآخر لكلِّ العائلة؟ هل خافت على صورة سمر في وجدان نبيلة؟ سمر الضحيَّة الكاملة التي لا يشوب تضحيتها شائبة؟ لماذا تقدِّس

هذه العائلة الضحايا وتجعل منهم أصنامًا؟ هل كانت سمر فعلًا متواطئةً مع زوجها الهمجيّ حين استسلمت وقبلت بدور الضحيَّة؟ وماذا عن نبيلة؟ ألا يمكن أن تكون نبيلة أيضًا متواطئةً مع المجتمع الذي سلبها حياتها؟ كيف تقول لأمل «بلا فضايح» وابنتها في أكثر لحظاتها هشاشة؟ هل حقًّا تعتبر أمُّها أنَّ تصرُّفها فضيحة، في حين أنَّها لا ترى التدخُّل في شؤونها كإنسانةٍ راشدةٍ انتهاكًا لخصوصيَّتها ووصايةً عليها؟

قرَّرت أمل أن تصارح نفسها بالغضب المكبوت، سمحت لنفسها أن تتذكَّر أنَّ أمَّها خذلتها حين لم تعترض على خطبتها من سالم وهي في الخامسة عشرة من عمرها. لماذا صمتت حين نظرت إليها أمل نظرة استغاثةٍ بعد أن خيَّرها والدُها بين الزواج أو المكوث في المنزل؟ لماذا أشاحت بوجهها بعيدًا ولم تحم ابنتها الصغيرة من قوانين مجتمعها المجحفة والتي حرمت أمل من تعليمها الجامعيّ وساقتها إلى بيت الزوجيَّة وهي لا تزال طفلة؟

ورغم ذلك سامحتها أمل آنذاك. سامحتها لأنَّها تذكَّرت تضحية والدتها وتسديدها لمصاريف تعليمها الثانويّ بمالٍ جمعته بمشقَّة، سامحتها لأنَّها تعتبرها سمكةً محبوسةً في كوب ماءٍ وتطاردها ذكرى المحيط. ولكن لماذا يصعب على أمل اليوم أن تسامح أمَّها؟ هل لأنَّها تعرف جيِّدًا أنَّ نبيلة ترفض وصاية رجال الدين على المرأة، لكنَّها أبت أن تصرِّح بذلك حين كانت أمل في أمسِّ الحاجة إلى ذلك؟ هل لأنَّها كانت تتوقَّع منها أن تقف في وجه المجتمع الذي حاول قتلهما معًا؟ لقد نجت أمل من هذا المجتمع، لكنَّ نبيلة ظلَّت عالقةً هناك لا هي حيَّة ولا هي ميتة.

ربَّما ما آلم أمل هو أنَّ المشاجرة الأخيرة قد شوَّهت الصورة المثاليَّة التي رسمتها لوالدتها في رأسها ووجدانها لسنوات. اكتشفت أنَّ نبيلة ليست ضدَّ قوانين هذا المجتمع تمامًا. فهي كما قالت شقيقتها نيرمين ذات يوم «مستمتعة باللعب على الحبلَيْن» حبل التديُّن الذي يكفل لها رضا مجتمعها المحافظ عليها، وحبل الانفتاح الجزئيّ الذي يكفل رضاها عن نفسها وعدم استسلامها لمجتمعٍ يهمِّش المرأة وينتقص منها. أتكون نيرمين على حقّ؟ أتكون تربيتهنَّ نصف الدينيَّة هي السبب في تعاستهنّ؟ فلا هنَّ على اليابسة ولا هنَّ في البحر!

غابت أمل لستَّة أشهرٍ هذه المرَّة حاولت فيها أن تتمسَّك بشعور الغضب. انقطعت اتِّصالاتها في الشهرَيْن الأوَّلَيْن ولم تكن تنوي الاتِّصال بوالدَيْها لولا أنَّ رحمة هاتفتها من منزل جدَّتها وسألتها ما إذا كانت تريد التحدُّث مع تيتا نبيلة. تردَّدت أمل قليلًا، فقد كانت تخشى أنَّ محادثةً أخرى مع أمِّها قد تُفتح فيها الملفَّات من جديدٍ وتُعمِّق الهوَّة بينهما. ولكنَّها في نهاية الأمر وافقت على استحياء. غصَّت نبيلة بالبكاء حين سمعت صوت ابنتها بعد هذه المدَّة وسألتها عن صحَّتها وأحوالها وتبادلا كلماتٍ قليلةٍ بحذرٍ شديدٍ كمن يمشي في حقل ألغام.

بعدها صارت نبيلة تنتظر حتى تأتي رحمة لزيارتها فتهاتفان أمل في كلِّ مرَّةٍ يكون فيها عليٌّ غير موجودٍ في المنزل. لكن تلك الاتِّصالات كانت قاسيةً على كلتَيْهما. فبعد كلِّ اتِّصال، كانت تسيطر على أمل حالةٌ من التأرجح بين الغضب والشعور بالذنب

تجاه أمِّها. في اتِّصالهما الأخير، وفي محاولتها للتهرُّب من الحديث عن نفسها أو عن أمِّها، تحدَّثت أمل عن ابنتها رحمة، «رحمة حصّتك يا أمّي. بنتي ما عندها أغلى منك» قالت لنبيلة. ربَّما كانت تودّ لو تقول لها «أنا آسفة يا أمّي. آسفة على البعد وعلى القرب المنقوص، آسفة على الكلام الذي لم نقله فتكدَّس وتكاثر وانتصب بيننا كالجبل». وفي مكالمتهما قبل الأخيرة حدَّثتها عن رحمة أيضًا، «رحمة بدها تصير دكتورة يا أمّي، قال بدها تهتمّ بصحَّتك بس تكبري». لكن نبيلة تكبر. تكبر في ذلك الوادي وأمل بعيدة. تكبر ويكبر حزن أمل على أمِّها التي تستكثرها على والدها وعلى القرية وعلى زبائنها وكلّ من حولها.

اكتفت أمل بالمكالمات السطحيَّة مرَّةً كلّ أسبوعَيْن، وكانت كلَّما اشتاقت لأمّها تنتظر يوم الأربعاء، تشغِّل الراديو في التاسعة صباحًا على تردُّد إذاعة صوت الأرز وتستمع إلى صوت نبيلة الرصين وهي تعدّ مقادير الطبخة، لتشرح بعدها بتأنٍّ ولباقةٍ كيفيَّة التطبيق، ثم تنهي فقرتها كالعادة بإسداء نصائح جانبيَّةٍ لنساءٍ تركن أسئلتهنَّ تحت الهواء لتُجيب عليها مدام ندى.

لم تساعد الرسائل الإيجابيَّة التي تلقَّتها أمل من المشاهدين والمشاهدات على تخطِّي ما حدث بقدر ما ساعدها دعم زوجها. وحين كان الألم يجتاحها وتشكّ في صوابيَّة ما فعلته، حين تهاجمها الأسئلة التي قاومتها طويلًا مثل «هل كان ذلك التقرير يستحقّ كلّ هذا العناء؟ هل كان الأمر يستحقّ خلافي مع أهلي وكسر خاطر أمِّي؟»، كان زوجها هو صوت العقل الذي يذكِّرها بأنَّ الاستجابة لطلب والدَيْها والخضوع عن طريق الاعتذار كان

سيجعلها تكره نفسها وتكرههما. كان أحيانًا يقرأ لها التعليقات المشجِّعة التي تركها المشاهدون تحت الڤيديو ويؤكِّد لها أنَّها لمست حياة الكثير من الناس وأنَّ عليها ألَّا تندم لأنَّها ـ في كلِّ ما فعلت ـ كانت مدفوعةً بالمحبَّة لا بالانتقام، وكانت دومًا تسعى لتقريب وجهات النظر وليس لتوسيع الشقاق.

«تخطِّي غربة الطعام هو أقصر طريقٍ للتغلُّب على الشعور بالغربة»، قال لها زوجها ذات مرَّةٍ قبل أن يرافقها إلى مطعمٍ لبنانيٍّ في برلين. تذكَّرت هذه الكلمات وهي تملأ الصحن بحفنةٍ زعترٍ من شغل نبيلة وتسكب فوقه زيت الزيتون. توجَّهت بعدها إلى الفريزر وبحثت عن الأرغفة المتبقِّية من خبز أمّها فوجدت اثنَيْن فقط. غالبًا ما تكرِّس أمل حقيبةً كاملةً لخبز الصاج حين تأتي من لبنان، تكدِّس الأرغفة في الفريزر وترشِّد استهلاكها لتكفيها طيلة شهور غيابها. لكنَّ الظروف التي غادرت فيها منزل أبوَيْها في المرَّة الأخيرة جعلتها تعود بلا أرغفةٍ جديدة. سحبت رغيفًا من الرغيفَيْن المتبقِّيَيْن، أخذت منه قطعةً وأعادته الى مكانه قبل أن يذوب عنه الجليد. أمَّا الرغيف الأخير فقد وضعته في كيسٍ منفصلٍ ودفعته إلى مؤخّرة الفريزر. أمل لا تأكل الرغيف الأخير من خبز أمّها أبدًا. بدأت هذه العادة منذ انتقالها إلى ألمانيا وحافظت عليها طيلة ستّ سنوات. لا بدَّ لرغيف نبيلة الأخير أن يبقى في الفريزر إلى حين إعادة ملئه بأرغفةٍ جديدةٍ من رحلتها إلى لبنان. الرغيف الأخير يشبه ليرات الذهب التي تحتفظ بها نبيلة داخل منديلٍ في عمق خزانتها «لليوم الأسود». لطالما تساءلت أمل الطفلة عن هذا اليوم الأسود الذي يخبِّئون له الحلي

والأموال والمؤن. هل يأتي؟ متى يأتي؟ هل يرضى بكلِّ ما ادَّخروه له؟ هل يبقى أسودَ بعد أن يأخذ كلّ تلك العطايا؟ لكنَّها كبرت وفهمت أنَّ لكلِّ إنسانٍ يومه الأسود. جحيمٌ خاصٌّ به مفصَّلٌ على مقاس هواجسه وذكرياته وإخفاقاته. خاف أهلنا الجوع والفقر والحرب، وخفنا نحن من أشياء لا نستطيع تسميتها لأنَّها تغيِّر طبيعتها ولأنَّها في أحيانٍ كثيرةٍ تأتي من دواخلنا وليس من تهديدٍ خارجيّ.

بَدَت الأعمدةُ البيضاءُ لقناطر قصر بيت الدين وكأنَّها شموعٌ غير مضاءةٍ في محراب معبدٍ ما. عجَّت ساحة القصر بالزوَّار الذين أتوا لزيارة سوق بيت الدين السنويّ والتنعُّم بطقس الشوف اللطيف وهوائه النقيّ. وُزِّعت الطاولات التي تعرض البضائع على أطراف الساحة الكبيرة للقصر، ووقفت وراءها نساءٌ من القرى والبلدات المجاورة. كلٌّ منهنَّ كانت تعرض منتوجاتها من كروشيه وأعمالٍ يدويَّةٍ ومؤونةٍ ومربَّيات ومخلَّلاتٍ بلديَّة. وقفت نبيلة وراء طاولتها تنظِّم قطرميزات الدبس والزيتون، وتمسح الغبار عن أغطيها المربوطة بأشرطةٍ زرقاء تُشدّ على أعناق القطرميزات فتبدو أنيقةً كرجالٍ يلبسون ربطات عنقٍ في مناسبةٍ رسميَّة. لاحظت أنَّ امرأةً تُراقبها من على بُعد أمتارٍ بعباءةٍ خليجيَّةٍ سوداء تصل إلى الأرض ونقابٍ يغطِّي وجهها بالكامل فلا يظهر منه سوى عينَيْها. تعلم نبيلة كم هو محرجٌ أن تحدِّق إلى امرأةٍ تغطِّي وجهها، لذلك تجنَّبت النظر إليها مباشرة، واكتفت بإيماءةٍ بسيطةٍ من رأسها كي تعرف المرأة أنَّ وجودها مرحَّبٌ به. ارتبكت المرأة المنقَّبة أمام

إيماءة نبيلة واستدارت ناحية النافورة التي تتوسَّط ساحة القصر التاريخيّ. في هذه اللحظة، مرَّت طفلةٌ ببالونٍ أسود يتراقص في الهواء فوق رأسها بينما تمسك خيطه بيدها. راقبت نبيلة الطفلة وهي تعبر الساحة. راقبتها بفضول، كأنَّها تعرفها، كأنَّها تعنيها، وكأنَّها كانت تنتظر قدومها منذ زمن. تبعتها بعينَيْها، لكنَّ صوتًا ما توجَّه إليها: «ربطة خبز من فضلك» قالت المرأة المنقَّبة لنبيلة بعد أن اقتربت ووقفت قبالتها على الجانب الآخر للطاولة. سحبت نبيلة كيسًا بحركةٍ آليَّةٍ ووضعت خمسة أرغفةٍ في داخله فيما تلتفتُ بين الحين والآخر لتبحث عن الطفلة التي اختفت وكأنَّها شبح. وحين رفعت نظرها لتعطي الكيس للمرأة المنقَّبة التقت أعينهما، وإذا بنظرةٍ تشبه الماس الكهربائيّ بين سلكَيْن عاريَيْن تمتدّ بينهما. كانت نبيلة تعرف هاتين العينَيْن جيِّدًا، سقط الكيس من يدها، ثم شهقت وهي تنظر مباشرةً في عينَي أمل.

حدَّقت نبيلة في سقف الغرفة باستغرابٍ حين فتحت عينَيْها ونادت بصوتٍ متعبٍ «أمل». قطرات العرق كانت تغطّي جبينها، وغياب النظَّارة عن وجهها جعلها غير قادرةٍ على تحديد مكانها بشكلٍ واعٍ وتامّ. اقتربت أمل من السرير: «أنا هون يا إمِّي خبريني كيف حاسّة؟» جاء صوت أمل عن يمينها.

«أمل! أيمتى جيتي؟» قالت نبيلة بصوت من استفاق من كابوسٍ وأضافت «كنت عم بحلم فيكي».

حاولت أن تتحرَّك، لكنَّها شعرت بثقل أنابيب المحاليل المعلَّقة في يدها، وعندها فقط تذكَّرت أنَّها في المستشفى. أخبرتها أمل أنَّها وصلت منذ ساعاتٍ بعدما علمت من رحمة أنَّ

جدَّتها نبيلة تعرَّضت لوعكةٍ شديدةٍ وارتفاعٍ مفاجئٍ في الحرارة.

«الله يسامحها شغلتلك بالك»، قالت نبيلة وهي مغمضة العينَيْن.

بدأ قلق أمل على أمّها عندما تغيَّبت عن فقرتها في البرنامج الصباحيّ على إذاعة صوت الأرز. انتظرتها كالعادة صباح الأربعاء، لكنَّ المذيعة اعتذرت من المستمعين لأنَّ مدام ندى لن تكون معهم اليوم على الهواء بسبب ظرفٍ عائليّ. سارعت أمل واتَّصلت بأمّها وحين رنَّ الهاتف على الجانب الآخر من دون جوابٍ علمت أنَّ هناك ما يدعو إلى القلق. وجدت نفسها تتمنَّى أن تكون جدَّتها قد فارقت الحياة، أو أن يكون طارئٌ ما قد حدث. كلّ الاحتمالات كان يمكن التعايش معها إلَّا أن يكون مكروهٌ ما قد حدث لأمّها. «يا رب دخيلك مش إمِّي»، قالت وهي تطلب رقم رحمة بأصابع مرتجفة. لكن رحمة ما لبثت أن أكَّدت لها مخاوفها وأخبرتها أنَّ الصليب الأحمر قد نقل جدَّتها إلى المستشفى ليلة أمس وأنَّهم يقومون بإجراء فحوصاتٍ شاملةٍ لها.

«ليش ما خبَّرتيني؟!!!» سألت أمل بانفعال.

«تيتا وصِّتني ما خبرك حتى ما تخافي»، قالت رحمة محاولةً تبرئة نفسها.

لم تفكِّر أمل كثيرًا قبل أن تحجز مقعدًا على أوَّل طائرةٍ متَّجهةٍ إلى بيروت. لم تأبه لكلّ المشاكل التي تركتها معلَّقةً ولا فكَّرت للحظةٍ أنَّها ستقابل والدها بعد القطيعة الكاملة معه. كلّ ما

أرادته هو أن تكون بجانب أمّها. دخول نبيلة إلى المستشفى حدثٌ كبيرٌ ومثيرٌ للقلق، لأنَّ نبيلة لا تمرض وإن حدث ومرضت فهي تداوي نفسها بالأعشاب الطبيعيَّة والمقوِّيات وتتحامل على وجعها لتنطلق إلى عملها في اليوم التالي وكأنَّ شيئًا لم يكن.

حين وصلت إلى المستشفى كانت أختها أسمهان في صالون الانتظار تحدِّق في لوحةٍ تشكيليَّةٍ على الجدار المقابل للمقاعد الفارغة من حولها. لم تنتبه لوصولها في بادئ الأمر، لكن حين اقتربت منها أمل أكثر هبَّت واقفةً وعانقتها. بدت أسمهان مرهقةً وقلقة، صمتٌ ثقيلٌ خيَّم عليهما، صمتٌ يشبه بثقله احتماء جسدَيْن تحت مظلَّةٍ واهيةٍ في عاصفةٍ هوجاء.

«طمنيني شو قال الدكتور؟» سألت أمل بصوتٍ منخفضٍ يراعي تواجدهما في مستشفى.

قلبت أسمهان شفتها «أخذو خزعة ليزرعوها. لازم ننطر النتيجة؟».

أيقظت كلمة «خزعة» سيلًا من المشاعر والذكريات المرعبة في وجدان أمل. فتكاثرت الصور في رأسها، من بينها صورةٌ لأمِّها وهي تتحدَّث على الهاتف مع سمر وتسألها عن نتائج الخزعة «شو يعني خزعة يا إمِّي؟» سألت أمل أمّها بعد أن رأت الرعب في عينَيْها. هكذا عن طريق المرحومة سمر دخلت مصطلحات السرطان إلى رأس ووجدان كلّ فردٍ من أفراد العائلة: قسم الإنكولوجي، الخزعة، الورم، pet scan، التصنيف المرحليّ... كلّها مصطلحاتٌ تفتح نوافذ الخوف المطمورة منذ

سنوات، والمرتبطة بصدمات المرحلة المرافقة لمرض سمر ووفاتها.

«لا لا مستحيل، كلّ واحد طلعت حرارتو صار عندو مرض؟»، قالت أمل بإنكارٍ وهي تبتعد عن أختها وتتّجه إلى غرفة نبيلة حيث وجدتها تغطّ في نومٍ عميق. اقتربت من السرير ونظرت إليها مطوّلًا، إلى وجهها الأبيض المستدير بخدَّيْه المرتفعَيْن، وعينَيْها الكبيرتَيْن المغمضتَيْن. للحظاتٍ شعرت وكأنَّها جزءٌ من برنامج الكاميرا الخفيَّة، أنَّ أمّها ستفتح عينَيْها وتبتسم لتقول لها «شفتي كيف بجيبك من آخر الدني يا عنيدة؟»، لكنَّ هذا لم يحصل.

رجف قلبها عندما سمعت صوت والدها يتحدَّث مع أسمهان خارج الغرفة. لم تحسب حساب لقائه وسط موجة قلقها على أمّها ولا استعدَّت نفسيًّا لمقابلته والحديث معه. لم تكن أيضًا تعرف أيّ شيءٍ عن نيَّته تجاهها وما إذا كان سيسلِّم عليها أو سيدير ظهره لها، ويغادر في اللحظة التي تقع عيناه عليها. تراجعت خطوتَيْن، والتصقت بالجدار لاشعوريًّا، تمامًا كما كانت تفعل وهي طفلةٌ تراقب تعنيفه لأخواتها من خلف الباب. شعرت برغبةٍ في الالتحام بالجدار والاختفاء مع سماعها لنقرات حذاء عليٍّ على أرض المستشفى المشمَّعة. نظرت إلى الغرفة الكبيرة حيث تسلتقي أمّها غائبةً عن الوعي وشعرت كأنَّها في كابوس، أغمضت عينَيْها لثانيتَيْن وأخذت نَفَسًا عميقًا.

«الحمد لله على السلامة يا أمل»، قال عليٌّ وهو يقترب منها. كان عليها أن تقرِّر كيف تتصرَّف خلال جزءٍ من الثانية وهو

يميل بجسده عليها ليحضنها بذراعٍ واحدة. رفعت هي أيضًا ذراعًا واحدةً وحضنته، بينما تجمَّعت الدموع في حلقها حتى ظنَّت أنَّه سينفجر في أيِّ لحظة.

علمت أنَّها كانت تحبس أنفاسها أثناء العناق القصير، ولم ينتظم تنفُّسها إلَّا عندما ابتعد عنها، سحبت كمَّها حتى غطَّى كفَّها وجفَّفت دموعها تحت نظرات عليٍّ المتفحِّصة. «طمنيني عنك انشالله ما تعبتي بالسفر؟»، سألها عليٌّ وكأنَّ الشجار والقطيعة لم يكونا يومًا. أرادت أمل أن تهزّ كتف نبيلة، أن تشاركها هذه اللحظة، أن تقول لها «شفتي كيف بيزعل وبيرضى لحالو متل الأطفال؟»، لكن للمرَّة الأولى لم تكن نبيلة حاضرةً بينهما كي تهندس سير العلاقة. كانت نائمةً نومًا عميقًا لم تمنحها إيَّاه سوى المضادَّات الحيويَّة والمسكِّنات التي تُضخّ في جسدها عن طريق الأنابيب المعلَّقة على عمودٍ إلى يمين السرير.

جلس عليٌّ على الكرسيّ الجلديّ الأحمر أسفل النافذة. سأل أمل عن صحَّتها وعملها وأجابته أنَّها بخيرٍ وأنَّ كلَّ شيءٍ يسير على ما يرام. سألته عن صحَّته أيضًا وعن موسم الزرع وأجابها أنَّ نِعَم الله تغمرهم. لكنَّها لم تطرح عليه أيًّا من الأسئلة المهمَّة التي أرادت أن تسمع إجاباتها: «ألستَ خائفًا؟ كيف تتعامل مع مرض نبيلة؟ أتظنّ أنَّ كلّ شيءٍ سيكون على ما يرام؟ ماذا ستفعل إذا أتت نتائج الفحوصات إيجابيَّةً وأكَّد الطبيب أنَّ هناك خلايا سرطانيَّةً في الخزعة؟ كيف ستتقبَّل الأمر؟ كيف ستكمل حياتك؟» لكنَّها لم تسأله أيًّا من تلك الأسئلة لأنَّ الكلمات، حين تكتسي بالصوت، يصبح لها بُعدٌ آخر، تقترب

أكثر من احتمال أن تصبح حقيقة، ولأنَّنا عادةً ما نوجِّه ذلك النوع من الأسئلة فقط لمن هم بمستوانا. وأمل لم تشعر يومًا أنَّ عليًّا كان في مستواها، بل كان عاليًا كشيخ قبيلة، كسلطة تخافها، كملكٍ على عرش! فكيف تسأل هذا العالي عن مشاعر سُفليَّة. أليست مشاعر الخوف والانكسار والشكّ سُفليَّة؟

«أمل... بعدِك صاحية؟»، كسر صوت نبيلة الغرفة التي لا تضيئها سوى شاشة هاتف أمل وينعكس نورها على زجاج النافذة خلفها. ألحَّت أمل على والدها وأسمهان كي يغادرا إلى المنزل ليرتاحا على أن يعودا في الصباح، وقالت إنَّها ستمضي الليلة مع أمّها.

«شو صحَّاكي إمِّي. في شي عم يوجَعِك؟»، سألتها أمل وقد غادرت كرسيَّها ووقفت إلى جوار سرير نبيلة.

«لا، أنا مرتاحة. ذكِّريني بالفيلم يلِّي شفته معك من زمان عن المصوِّر والجسور»، قالت نبيلة وهي تحاول أن تستحضر ذكرى فيلمٍ شاهدته مع أمل منذ أكثر من عشر سنوات.

«جسور مقاطعة ماديسون»، قالت أمل وهي تبتسم. ما زالت أمل تتذكَّر الدموع التي ذرفتها أمّها حين استلمت ميريل ستريب في دور فرانشيسكا صندوقًا يحتوي على رسالةٍ ودفتر مذكَّراتٍ وكاميرا من حبيبها المصوِّر بعد أن فارق الحياة. كانت فرانشيسكا قد رفضت أن ترحل معه في شبابها وقرَّرت أن تبقى مع عائلتها. لكن ذلك الحبيب أوصى بنثر رماده فوق جسور مقاطعة ماديسون حيث التقى فرانشيسكا وأحبَّها والتقط صورها بينما كانا ينتظران

رصد لحظة الغروب من على الجسر.

«خيارها كان صحّ»، قالت نبيلة وكأنَّها تُعطي رأيها في فيلم شاهدته لتوِّها.

«يمكن... ما ممكن نعرف»، اكتفت أمل بهذا القدر من الإجابة. فالحكم على الخيارات بالنسبة لأمل يبقى مبهمًا ولا دليل عليه مثل نظريَّات الحياة بعد الموت. لا يمكن للإنسان أن يعلم أيًّا من الخيارات التي اتَّخذها كان أفضل إلَّا إذا سنحت له الفرصة بتجربة الخيارات جميعها، وهو أمرٌ غير قابلٍ للتطبيق في معظم الأحيان لأنَّ العمر المحدود للأشخاص وطبيعة العلاقات البشريَّة لا يسمحان بذلك.

«شو خطرلِك تسألي عن الفيلم هلَّق؟»، سألت أمل بتعجُّب.

«على طول بفكِّر فيه»، تنهَّدت نبيلة وأضافت «في جملة قالها البطل وما راحت من ذاكرتي أبدًا»، قالت وهي تحاول الجلوس.

ساعدتها أمل عبر الضغط على زرٍّ يرفع الجزء العلويّ من السرير ويساعدها على الجلوس من دون أيّ جهد.

«شو كانت الجملة؟»، سألت أمل وهي تجرّ الكرسيّ ليصبح قريبًا من السرير.

«لقد خلقتِ شخصًا آخر في داخلي حين افترقنا، شخصٌ لم يكُفّ أبدًا عن ملاحقتي»، قالت نبيلة بتركيز مَنْ يستحضر ذكرى بعيدة. لكن أمل أخبرتها أنَّ الجملة لم ترِد في الفيلم، بل في الرواية التي اقتُبس عنها الفيلم. وذكَّرتها أنَّها كانت هي من قرأ لها الاقتباس لأنَّها تملك الرواية. رفعت نبيلة يدها في الهواء

وقالت «مش مهمّ وين وردت... المهمّ معناها». ضحكتا بعدها وهما تتذكّران كيف كانتا تتسمَّران في مكانَيْهما وتحوِّلان التلفاز إلى وضعيَّة الصامت حين يصدر صوتٌ عن رحمة الرضيعة التي كانت تنام إلى جانبهما في سريرها الصغير المتنقِّل.

«كنَّا خيفانين تفيق ويروح علينا الفيلم. رزق الله شو كانت أيَّام حلوة»، قالت نبيلة.

«يلِّي بيدري بيدري، ويلِّي ما بيدري بيقول كانت حلوة»، ضحكت عندما أجابتها أمل على طريقة المثل اللبنانيّ الشهير. فنبيلة أصبحت تعلم أنَّ أمل لم تكن سعيدةً في زواجها السابق، وأنَّها عانت من اكتئابٍ حادٍّ بعد ولادة رحمة.

تحدَّثتا أيضًا عن زميلات أمل في الجامعة اللواتي تعرَّفت عليهنَّ نبيلة خلال زياراتهنَّ لأمل. فسألتها عن الصبيَّة الشقراء السمينة، والصبيَّة التي خُطِبت أربع مرَّاتٍ للشابّ نفسه، وتلك التي تأتي من زحلة. «رجعت تزوَّجت الصبيَّة يلِّي من زحلة؟»، وتلك التي تأتي من صيدا «كم ولد صار عندها صديقتك المحجَّبة؟».

أجابتها أمل بالقدر المحدود من المعلومات التي تعرفها عنهنَّ من صفحاتهنَّ على مواقع التواصل الاجتماعيّ. لكن أمل لا تترحَّم على صداقاتها القديمة كما تفعل شقيقاتها، لأنَّها تعلم أنَّ البشر لا يتَّصلون إلَّا لينفصلوا، وأنَّ الانفصال هو سنَّة حياة الراشدين. فأمل انفصلت عن أهلها على عدَّة مراحل. بدأ الانفصال بمغادرتها منزلها الأوَّل إلى بيتها الزوجيّ، وهي في

السادسة عشرة من عمرها، ثم مغادرتها لدور الابنة لتلعب دور الأمّ، ثم مغادرتها للكثير من الأفكار والمعتقدات التي تربَّت عليها، إلى أن غادرت الوطن والحضن الدافئ لرضا الوالدَيْن، وصولًا إلى الطلاق الفكريّ بينها وبين أبوَيْها. فهي لا زالت تحبّهما إلى أبعد الحدود، لكنَّها فصلت حبّ الأشخاص عن الانصياع التامّ لهم. أمل لا تعرف متى وكيف تمَّ دمج الاثنَيْن معًا في طريقة تربيتها، ولماذا تطلَّب الأمر سنواتٍ طويلةً من عذاب الانسلاخ عن أهلها قبل أن تتّضح الفكرة في رأسها.

«شو بدّك تخبريني بعد؟»، سألتها نبيلة وكأنَّها لا تريد للحظة صمتٍ أن تحضر وتُلقي بثقلها بينهما. ربَّما كانت نبيلة تحاول بتلك الأحاديث أن تردم الهوَّة التي تشكَّلت بينهما، وكأنَّها تذكِّرها بماضيهما المشترك لتستعيد مكانتها في حياتها.

«حاولي تنامي شوي»، قالت أمل لأمّها وهي تُنزل الجزء العلويّ من السرير بالضغط على زرٍّ آخر، لكنَّها استمرَّت في الكلام معها عن أشياء متفرِّقة. أخبرتها عن الحياة في برلين، عن سوق العرب الذي تشتري منه اللبنة والزيتون والمكدوس والبهارات، عن الساعات التي تقضيها وهي تتمشَّى بجوار نهر الـ «شبريه» متأمِّلةً أشجار الصفصاف الباكية، وهي تتدلَّى بأوراقها الرمحيَّة فوق النهر لينعكس لونها الأخضر الفاتح على صفحته.

«نهر برلين طفل أو كهل؟»، سألت نبيلة بعينَيْن مغمضتَيْن وصوتٍ يسيطر عليه النعاس.

رأت أمل عشرات الأنهار وأكثرها شهرة، لكنَّ نهر عينصورة

بقي ينغِّص عليها الاستمتاع برؤية أغلب الأنهار التي تزورها. في صغرها، كانت تظنّ أنَّ النهر هو ذلك التيَّار المتدفِّق الذي يتخلَّله عددٌ من الصخور ذات الأحجام المختلفة. فيندفع الماء فوقها وحولها ويملأ الأرجاء بخريره القويّ، فيمنع المتحدِّثين على ضفَّته من سماع بعضهم بعضًا من دون صراخ. كلُّ الأنهار الهادئة والعريضة لم تكن أنهارًا بالنسبة لها. كانت بحيراتٍ أو مسطَّحاتٍ مائيَّةً أخرى لا تعرف لها اسمًا. هذا ما ظنَّته حين رأت نهر الليطاني لأوَّلِ مرَّةٍ خلال رحلةٍ مدرسيَّة. «ليش بنقول عنه نهر إذا ما كان نهر؟» سألت معلِّمتَها. لكنَّ المعلِّمةَ أكَّدت لها أنَّه نهر، ويومها قرَّرت أمل أنَّها ستقبله نهرًا إذا اعتبرته كهلًا. من يومها ترسَّخت في ذهنها قناعةٌ أنَّ النهر المتدفِّق هو نهرٌ طفلٌ والنهر الهادئ هو نهرٌ كهل. كبرت أمل وسافرت وبقي نهر عين عينصورة طفلًا استطاع بكلمات فيروز أن «يتخبَّى من درب الأعمار» ويتحايل على الزمن. طفلٌ أزليٌّ أبديٌّ لا يحاسبه أحدٌ حين يفيض ليدمِّر الحقول ويخلخل البيوت، وحين يهدأ، لا يلبث أهل القريتَيْن على ضفَّتَيْه أن يقتربوا منه مجدَّدًا ليبنوا جسره ويستعيدوا الثقة في طفولته.

21

على سطح المنزل في عينصورة وقف عليٌّ يتأمَّل أشجار الحرش المقابل، وقد استفرد قمر أيلول المكتمل بإنارتها وإضفاء هالةٍ من الغموض عليها، لتبدو وكأنَّها لوحةٌ تشكيليَّةٌ تُلقي بثقل التأويل على كاهل المتفرِّج. لم يسارع بتشغيل المولِّد حين انقطعت الكهرباء، بل أنار مصباح هاتفه وخرج إلى الشرفة ليتسلَّق الدرج الإسمنتيّ إلى السطح. قبل أن يصعد إلى السطح، وقف يتأمَّل غرفة المعيشة التي رتَّبتها نبيلة قبل أن تذهب إلى المستشفى، ثم خرج إلى فناء البيت وراقب أصص الزرع التي تفنَّنت زوجته في تزيينها وواظبت على سقايتها. لم تكن تلك المرَّة الأولى التي تغيب فيها نبيلة عن البيت، لكنَّه شعر هذه المرَّة بخواءٍ ووحشة، وكأنَّ أحدهم سحب الهواء المألوف من منزله وضخَّ هواءً غريبًا عليه. هواءٌ خفيفٌ مثل الهيليوم أفقد عليًّا إحساسه بمركز الجاذبيَّة في جسده. ذلك المركز الذي يربطه

بواقعه ويربط جسده بكلِّ التاريخ الذي عاشه.

فوق السطح دار عليٌّ حول خزَّان المياه مرَّتَيْن، ثم سحب الشرشف الذي غطَّت به نبيلة كرسيَّيْن بلاستيكيَّيْن لحمايتها من أشعَّة الشمس، حاول بيده الوحيدة أن يفصلهما عن بعضهما، ولمَّا لم يستطع سحبهما، جلس عليهما معًا وأغمض عينَيْه. بدأت جوقةٌ من أبناء آوى تعوي في الجهة المقابلة للنهر، أصغى إليها وكأنَّه يسمعها للمرَّة الأولى، ثم ما لبثت أن راحت جوقةٌ أخرى تردّ عليها بصوتٍ أعمق وأبعد أتاه من جهة الغرب. كلّ شيءٍ حوله راح يفرض وجوده ويطلب من عليٍّ أن يراه ويسمعه. فجأةً أصبحت حواسّه كثيرةً عليه، سمع أزيزًا خفيفًا يصدر من خرطوم ماءٍ رُبِط بقطعة كاوتشوك فشلت في حصر المياه داخله، فرفع نظره إلى القمر المكتمل في السماء وحدَّق فيه مطوَّلًا. لماذا يشعر بالوحشة وهو ابن هذا الجبل الذي يُؤوي عظام والدَيْه وأجداده، وابن مجرى النهر، وسليل منحدرات الوادي الذي أكل قطعةً من قدمَيْه على مدى عمرٍ من المشي في دروبه. تنهَّد وتمنَّى لو قبِل دعوة ابنته أسمهان للمبيت عندها بدلًا من العودة إلى عينصورة.

استيقظت أمل في كرسيِّها على صوت الطبيب الذي كان يفحص أمّها. «خذي نفس عميق يا شيخة... أعمق، أعمق»، قال بلهجةٍ آمرة.

«طمنِّي دكتور؟»، قالت أمل بذعر.

أخبرها الطبيب الستِّينيّ أنَّ نتيجة التحاليل لم تظهر بعد، وأضاف أنَّ معاينته لأمّها هي جزءٌ من الجولة الصباحيَّة التي يتفقَّد

فيها كلّ المرضى في قسمه. ثم أومأ لها برأسه لتلاقيه خارج الغرفة. تزايدت ضربات قلبها وهي تحشر قدمَيْها في الحذاء الرياضيّ الذي تركته أسفل الكرسيّ. تبعته وكأنَّها منوَّمةٌ وحين توقَّف في الممرِّ الخارجيّ، استدار ناحيتها فرأت من حركة عينَيْه حول المكان أنَّه يفكِّر لينتقي الكلمات التي سيتوجَّه إليها بها بعناية.

«ممكن تحتاج الست الوالدة لطبيب نفسي قبل ما توصل النتيجة من المختبر»، قال الطبيب بصوتٍ يميل إلى الانخفاض.

«شو قصدك دكتور؟ شو لزوم الطبيب النفسيّ وهي مرضها جسدي؟»، قالت أمل بإنكارٍ تامٍّ متجاهلةً كلّ معلوماتها عن ربط التشخيص بالسرطان بالحاجة إلى طبيبٍ نفسيٍّ لدعم المريض أثناء تلقِّي الخبر.

«زرع الخزعة إجراء روتينيّ وضروريّ ولكن... things don't look good»، قال الطبيب مكمِّلًا جملته بالإنكليزيَّة.

الأمور لا تبدو جيِّدة، أراد أن يقولها بالعربيَّة، لكنَّه لجأ إلى لغةٍ أجنبيَّةٍ ليختبئ وراءها. يستخدم البشر هذه الحيلة حين يتكلَّمون عن أشياء محرجةٍ أو محظوراتٍ ثقافيَّة. فأمل تفهمه تمامًا وتفهم أيضًا أنَّه ليس هناك أكثر إحراجًا من إخبار أحدهم أنَّ أمّه مصابةٌ بمرضٍ لا شفاء منه. ومع ذلك استمرَّت في الإنكار. فالخطأ الطبِّيّ واردٌ والأمثلة عليه موجودةٌ وموثَّقةٌ في تجارب البشر وفي التقارير المنتشرة على أهمِّ المنصَّات والقنوات. هذه المرَّة سيحدث الأمر لها، سيكتشفون أنَّ التشخيص الأوَّل كان خاطئًا. أجل! لماذا لا يحدث لها أمرٌ سعيدٌ كهذا؟ فكَّرت أمل وبدت

راضيةً عن هذا المونولوج الداخليّ بعقليَّة من يشتري بطاقة لوتو. فهي لا تؤمن بالمعجزات بكلِّ أنواعها ومصادرها، لكنَّها تؤمن بالصدفة. ومن فقد أمله في تدخُّل الآلهة، يكثِّف أمله في البشر وقدراتهم ويبحث عن بصيص ضوءٍ حتى في إخفاقاتهم.

وصلت رحمة برفقة جدّها عليّ، حملت أمامها علبةً كرتونيَّةً فيها أربعة ثقوبٍ يبرز منها أربعة أكوابٍ من العصائر الطازجة ذات الألوان المختلفة. لثوانٍ شعرت أمل برغبةٍ في أخذ تلك العلبة ورميها من النافذة. استحضر منظر العصائر تجربة مرض سمر وموتها في مستشفى ليست ببعيدةٍ عن هذا المكان، تلك التجربة المتخمة بالمأكولات والخالية من المنطق والعقلانيَّة. لكنَّها بدلًا من ذلك أخذت العلبة من رحمة ووضعتها على الطاولة قبل أن تحضن ابنتها حضنًا طويلًا.

نظرت رحمة في عينَي أمّها نظرة استفسارٍ وتوسُّل. نظرةٌ تطلب كلامًا مطمئنًا وضماناتٍ ووعودًا بأنَّ كلّ شيءٍ سيكون على ما يرام. لكنَّ أمل تعلم أنَّ كلّ ما تستطيعه هو تقديم حضنٍ دافئٍ وكتفٍ للبكاء أمام عاصفة الترقُّب وغياب اليقين التي تجتاحهم.

اقترب عليٌّ من نبيلة، وبخجل طفلٍ يقابل الضيوف لأوَّل مرَّةٍ ابتسم نصف ابتسامة، وقال:

«إلك فقدة كبيرة بالبيت. يلَّا صِحّي وارجعي معي عالضيعة»، بكلماتٍ مواربةٍ لا ترقى إلى شعور الخواء الذي تملَّكه في غيابها أخبرها أنَّه افتقدها.

وصلت أسمهان بعد ذلك بقليلٍ وكانت أيضًا تحمل كيسًا زهريًّا من الورق المقوَّى طُبع عليه اسم محلّ حلويَّاتٍ شهير.

وبعد أن سلَّمت على الجميع واطمأنَّت على نبيلة سألتهم إن كانوا قد أعلموا أختَيْها الغائبتَيْن عن وضع نبيلة.

ارتبك عليٌّ قليلًا ونظر إلى نبيلة، «قالت نيرمين بدها تيجي تشوفك بسّ ما في مين يجيبها». حين اختارت نيرمين درب الدين وتخلَّت عن الدنيا، تركت زوجها وعملها في أميركا، وعادت إلى لبنان وكرَّست حياتها للعبادة في خلوات البيَّاضة، ليصبح والدها حليفها الأكبر وفرد العائلة الأغلى على قلبها. لامت أمّها حين عادت من أميركا، واتَّهمتها بأنَّها لم تُحسن توجيهها هي وأخواتها وأنَّها لو تركت الأمر لعليٍّ لَفَعَل ما هو أفضل لآخرتهنّ. توقَّعت نبيلة كلّ شيءٍ من هذه الحياة إلَّا أن تنقلب عليها ابنتها التي كانت الأكثر انفتاحًا، وتلومها لأنَّها حاربت بكلِّ الوسائل كي تعلِّمهنَّ وترسلهنَّ إلى ما وراء تلك الجبال. فهمت نبيلة منذ زمنٍ قريبٍ أنَّها لن تتمكَّن من إرضاء الجميع حتى لو أشعلت أصابعها العشْر قربانًا لعائلتها.

«أنا بطلع بجيبها»، قالت أمل لتقطع حجَّة نيرمين ولأنَّها تعلم أنَّه أصبح من الصعب على والدها القيادة بذراعٍ واحدةٍ خاصَّةً وأنَّ الخلوات تقع على بعد أكثر من ساعتَيْن من بيروت. هزَّ عليٌّ رأسه، وقال «هلَّق بتّصِل وبقلّهم يبلّغوها». من باب التقشُّف وترك هذا العالم الفاني والفاسد وراءها، بحسب وصفها، اختارت نيرمين أن تتخلَّى عن اقتناء هاتف، وبهذا انقطعت أخبارها عن الجميع إلَّا عن والدها الذي يتَّصل مرَّةً كلّ شهرٍ على رقم أحد معارفه في إدارة الخلوة ليتكلَّم معها ويوصل سلام أمّها لها.

«إذا بدها تحكيني أنا هون»، كانت نبيلة تقول بينما يطلب عليٌّ الرقم الذي سيصله بنيرمين. تجلس إلى جانبه بترقُّب وهو

يتكلّم مع ابنتها، «قلّها إمّك بتسلّم عليكي» تقاطعه آملةً أن تطلب نيرمين أن تتحدَّث معها. ولمَّا يُنهي عليٌّ الاتِّصال ويلتفت إلى نبيلة قائلًا، «نيرمين سلَّمت عليكي». تمتلئ عيناها بالدموع. يؤلمها أنَّها لا تعرف كيف وصل بهما الحال إلى هنا.

أمضت نبيلة سنواتٍ تستعيد شريط حياة نيرمين في رأسها كي تبرِّر الشقاق الذي حصل بينهما، لكنْ في شريط ذاكرتها ليس هناك سوى نيرمين المتمرِّدة ذات الشعر الطويل والعينَيْن الجريئتَيْن والصوت المرتفع، نيرمين التي استغلَّت أوَّل فرصةٍ كي تغادر عينصورة ولبنان وتسافر إلى آخر الدنيا. فتتساءل متى وكيف وُلدت النسخة المطيعة من ابنتها، وإذا ما كان لها أيّ ذنبٍ في كلِّ ما حصل؟!

حين غادرت رحمة مع جدِّها لمساعدته على شراء بعض الأدوية من الصيدليَّة التي تقع في آخر الشارع، جلست أمل وأسمهان على جانبي نبيلة في السرير، واتَّصلتا بشقيقتهما سناء في دبي. علت الأصوات حين ظهرت سناء على الشاشة تحمل ابنها الرضيع بين يدَيْها. نَدَهْنَ عليه ولوَّحن له ونحَّفن أصواتهنَّ ليدلِّعنه، فقرقر لهنَّ وحاول أن يمسك الشاشة ويضعها في فمه ليتذوَّق تلك الوجوه التي ابتهجت لرؤيته، لكن ما لبثت سناء أن ناولته لمساعِدتها وعادت إلى المحادثة. غطسن في الصمت لثوانٍ ثم دمعت عينا سناء لرؤية أمّها في المستشفى، وإذا بعدوى الدموع تنتقل إلى نبيلة ثم إلى أسمهان. «خلص ما تقلبوها مناحة»، قالت أمل وهي تبتسم وتمسح دموعها.

عندما حضرت الممرِّضة لتعلن وقت انتهاء الزيارات أصرَّت أمل على البقاء مع أمِّها الليلة أيضًا. «روحي نامي وارتاحي وبكرا

بترجعي»، قالت نبيلة برجاءٍ وألحَّت عليها أسمهان أن تمضي هي الليلة بدلًا عنها، لكنَّ أمل تمسَّكت بقرارها وطلبت من رحمة أن تمضي الليلة عند خالتها أسمهان.

رافقتهم أمل حتى باب المصعد، وبينما كانوا ينتظرون وهم يتفحَّصون هواتفهم، نظرت أمل إلى والدها وشعرت بالكلمات وكأنَّها موجةٌ عاتيةٌ تنطلق من داخلها لتندفع من فمها. «إمِّي وضعها مش منيح»، قالت له بصوتٍ منخفضٍ وهي تنظر في عينَيْه مباشرة. أرادت أن توجعه أكثر فأضافت، «على الأرجح عندها سرطان»، قالت وكأنَّها تتحدَّث عن امرأةٍ غريبةٍ تعني عليًّا وحده. رأت ملامحه وقد تبدَّلت، وقد أصبحت عيناه مبهمتَيْن وكأنَّهما تحوَّلتا إلى نافذتَيْن أُقفلتا من الداخل.

«خلِّينا ننتظر نتيجة الفحوصات لنتأكَّد. متكلين على ربّ العالمين، الله تعالى ما بيتركها»، قال عليٌّ وكأنَّه روبوت مبرمجٌ يعرف أيّ كلماتٍ يستدعي في كلِّ موقف.

شعرت أمل بشيءٍ يشبه جفاف الحلق يتفشَّى في كيانها كلّه، وأدركت أنَّ اللكمة التي أرادت أن تسدِّدها إليه أصابتها هي حين ظلَّ متماسكًا، وقال الكلمات الصحيحة في الوقت الصحيح. ربَّما أرادته أن يغضب. أن يصرخ معترضًا. أن يعود إلى غرفة نبيلة ويمسك بيدها ويبكي. أن يرفض المغادرة. أن يشعر بالمرارة. أن يندم على كلِّ شيء.

صدر طنينٌ قبل أن يُفتح باب المصعد ليدخلوا ثلاثتهم ويتركوا أمل وحدها.

تميلُ نبيلة إلى النوم العميق أثناء النهار، تمرُّ الممرِّضات، يفحَصْن تدفُّق السوائل من الكيس المتَّصل بشرايينها، يُمرِّرْن جهاز قياس الحرارة على جبينها حتى يُصدر طنينًا، يكتبن ملاحظاتهنَّ ثم يخرجن ونبيلة نائمة. تأتي إحداهنَّ بصينيَّة طعام تضعها على الطاولة، فتبقى هناك لساعاتٍ ثم تبرد الوجبة ونبيلة نائمة. تقترب أمل منها تضع يدها على جبينها «فيقي يا إمِّي، لازم تاكلي!» تفتح نبيلة عينَيْها الغائبتَيْن وتهذي بكلماتٍ غير مفهومة، ثم تعود لتغطّ في نومٍ عميق. «رجع أبي من الشغل؟»، سألت مرَّة، «هذا الفستان لأختي سمر ما ترموه»، قالت مرَّةً أخرى، «أنا مش نبيلة»، قالت مرَّةً ثالثة.

إنَّه مفعول المضادَّات الحيويَّة والأدوية الخافضة للحرارة، يقول الأطبَّاء. إنَّها صحوة الموت، يقول أهل القرى ويؤكِّدون أنَّ من يحلم بالأموات يكون أجله قد اقترب. لكنَّ أمل لا تؤمن بتلك الخرافات ولا تظنُّ أنَّ نبيلة ستغادرهم في أيِّ وقتٍ قريب. فحالات الإصابة بالسرطان أصبحت كثيرةً ونسبة الشفاء منه باتت مرتفعة، تقول لنفسها. شيءٌ ما جعلها مؤمنةً أنَّ خالتها سمر قد دفعت ضريبة ألم هذه العائلة وحصَّتهم بموتها من أيَّة آلامٍ مستقبليَّة. شيءٌ ما جعلها تظنُّ أنَّ تكرار المأساة مرَّتَيْن يتنافى مع مفهوم العدل في هذا الكون الذي ما زالت تؤمن به ولو بخجل، فتمسَّكت بالنكران.

كسر ضوء القمر الذي بدأ يتنازل عن اكتماله ظلام الغرفة. وقفت أمل عند النافذة تتأمَّل جماله من بين أغصان النخلة العملاقة في حديقة المستشفى. لماذا يصبح الجمال مؤلمًا إلى هذا الحدّ حين نكون تعساء وضائعين؟ هل يحدث ذلك لأنَّنا

لاشعوريًّا نقارن أنفسنا بكلِّ شيءٍ تسقط عليه أعيننا؟ تساءلت أمل وهي تلقي برأسها على الزجاج وتراقب عجوزًا يدخِّن على أحد مقاعد الحديقة وممرِّضًا يذرع الممرَّ الإسمنتيّ ذهابًا وإيابًا متحدِّثًا عبر هاتفه والانفعال ظاهرٌ على حركات يدَيْه ومشيته. حوَّلت نظرها عنهما لتعود إلى نبيلة التي كلَّما طال نومها، أوغلت في الابتعاد عن حياتها وعائلتها.

«أمل بعدك هون؟»، سألت نبيلة قبل منتصف الليل بقليل.

اقتربت منها أمل «إيه إمِّي أنا حدِّك»، قالت وهي تقترب من سريرها.

«لازم إحكي معك. عندي إلك وصيَّة»، قالت نبيلة وقد بدا من صوتها أنَّها استعادت نشاطها وتبخَّر النوم من عينَيْها.

رجف قلب أمل قليلًا حين سمعت كلمة وصيَّة. يا لثقل تلك الكلمة في مكانٍ كهذا. ويا لرهبة الكلام بين شخصَيْن انقطع بينهما جسر التواصل بعد عقودٍ من الصراحة ووحدة الحال.

«أكيد إمِّي. من عيوني»، أجابت أمل بعد أن قرَّبت كرسيِّها من السرير وجلست عليه.

سحبت نبيلة دفترًا صغيرًا من حقيبة يدها القماشيَّة السوداء وأعطته لأمل.

«هذا دفتر خواطر وكلام على قدِّي، مش شي مهمّ»، قالت وأوصتها ألّا تقرأه قبل أن تموت. أرادت أمل أن تعترض على كلام أمّها، لكن نبيلة أكملت «عندي طلب تاني أهمّ من هذا الطلب».

استغربت أمل حين راحت أمّها تذكِّرها بقصَّة عاشقة الظلّ،

ولم تَرَ مبرِّرًا للحديث عن تلك المرأة الافتراضيَّة في هذا التوقيت الغريب. بالنسبة لأمل، موضوع عاشقة الظلّ ليس سوى لعبةٍ تافهةٍ تسلِّي بها نبيلة عليًّا وتضبط انفعالاته حين يلزم الأمر. لكنَّها رغم ذلك صمتت وأصغت إلى ما تقوله نبيلة باهتمام.

«كلمة السرّ لحساب عاشقة الظلّ هي: Muhannad75»، قالت نبيلة وهي تمسك بيد أمل، ثم توسَّلت إليها أن تحلّ محلَّها بعد موتها فتلعب دور عاشقة الظلّ، وتطمَئِنّ على عليٍّ بين الحين والآخر. اتَّسعت عينا أمل من الدهشة لدى سماعها طلب أمّها.

«خايفة عليه بعد كلّ شي عملو فيكي؟! ما بصدِّق!!»، قالت أمل مستنكرةً وحرارة الغضب تتفشَّى في رأسها وعروقها.

لكنَّ نبيلة قالت لأمل إنَّها قلقةٌ بشأن عليٍّ الذي سيخسرها هي وعاشقة الظلّ في آنٍ واحد، ورجَتْها أن تجد في قلبها الرحمة لتجبر خاطره وتسأل عن أحواله بين الحين والآخر. «بعرف إنُّو صعب عليكي تتقبَّلي الفكرة، بس كمان بعرف إنُّو ما حدا غيرك ممكن يقبل ينفِّذها»، أصرَّت نبيلة.

الأمُّ تعرف قدرات أولادها ونقاط ضعف وقوَّة كلٍّ منهم حتى لو لم تكن تفوقهم ذكاءً وخبرة. هذا ما أكَّدته نبيلة وهي تشرح لأمل لماذا اختارتها هي. لكن أمل لم تستطع أن تعدها ولم تستطع أن تصرخ في وجهها كما أرادت. وإذا بالغضب يتحوَّل إلى دموعٍ ويسدُّ حنجرتها، ألقت برأسها على حافَّة السرير وانفجرت بالبكاء غير آبهةٍ بسكون الليل الأمين على نقل الأصوات إلى الغرف المجاورة. عادت أمل طفلةً يغلبها الإحباط والغضب والرفض، هكذا بكت طيلة السنة الدراسيَّة الأولى في كلِّ مرَّةٍ

أوصلتها نبيلة إلى باب صفِّ الروضة واستدارت لتتركها وسط غرباء؛ كانت تشعر أنَّ روحها تنسحب من جسدها وهي تمسك بحديد البوَّابة مراقِبةً منديل نبيلة الأبيض وهو يبتعد.

وضعت نبيلة يدها على رأس أمل ولم تقاطع بكاءها، بل راحت تربِّت على كتفها وهي غارقةٌ في وحل عجزها. ستتركها أمّها مرَّةً أخرى، هذا ما ترمي إليه نبيلة، والأطفال يصدِّقون ما تقوله أمَّهاتهم. رفعت أمل رأسها وجفَّفت دموعها واعترفت لأمِّها وسط البكاء أنَّ الأمر الوحيد الذي كان سيخفِّف عنها وجعها بعد رحيل أمّها، ولو بشكلٍ طفيف، هو حرقة والدها على رحيلها.

«كان بدِّي قلبو يحترق عليكي»، قالت أمل وهي تصرّ على أسنانها.

هزَّت نبيلة رأسها وصمتت لدقائق قبل أن تتكلَّم مجدَّدًا. «إنتِ أرقّ ممَّا بتتخيَّلي يا أمل وأرحم بكتير كمان»، قالت نبيلة واعترفت لأمل أنَّ التقرير الذي أعدَّته أراها قدرة أمل على التعاطف مع الآخرين وأكَّد لها أنَّها قادرةٌ على ذلك أكثر من أيِّ شخصٍ آخر تعرفه. «اشملي علي برحمة تعاطفك يا أمل!» قالت نبيلة برجاء، أضافت:

«يمكن إذا تغاضيتي عن إنُّو علي والدك بتقدري تسامحيه». تأمَّلت أمل تلك الجملة مطوَّلًا. طبعًا كانت ستسامحه لو لم يكن والدها، طبعًا كانت ستغفر له كلّ شيءٍ لو لم تحمِّله مسؤوليَّة تعاسة نبيلة وسحق زهرة شبابها. لو لم يتزوَّج نبيلة، لو لم يزجّ بها إلى عالمه الذي يحكمه الفقر والقسوة والجفاف العاطفيّ، لربَّما كانت نبيلة تعيش حياةً سعيدةً مع رجلٍ آخر يقدِّرها ويحبُّها.

لكن أمل لم تقل أيًّا من ذلك ولم تعطِ أمّها جوابًا نهائيًّا عمَّا إذا كانت مستعدَّةً لتلعب دور عاشقة الظلِّ بعد وفاتها.

«شفتي التقرير؟»، سألتها أمل وقد توقَّفت عن البكاء.

هزَّت نبيلة رأسها: «حبَّيتو كتير. ما توقَّعت بعد خمسين سنة شوف ذوقان صورة وصوت قدَّامي» قالت بتأثُّر.

«عرفتي إنُّو ذوقان وسمر كانوا على تواصل قبل ما تمرض وتتوفَّى؟»، سألت أمل وهي تكوِّر الفوطة في يدها.

هزَّت نبيلة رأسها مجدَّدًا: «طبعًا كنت أعرف. سمر خبَّرتني كلّ شي»، صمتت قليلًا وأضافت:

«بعرف عنك كمان يا أمل!»

ظلَّت تلك الجملة معلَّقةً في الهواء تشبه طنينًا بقي بعد أن قُرِع جرسٌ عملاقٌ في وادٍ عميق.

كانت تلك فرصة أمل لتسأل أمّها عمَّا تقصده، لتتأكَّد ما إذا كانت تتكلَّم عن زواج أمل السرِّيّ. فرصةٌ لنسف جبال الصمت التي انتصبت بينهما منذ ظهر ذلك الحبُّ في حياتها وقرَّرت أن تكسر أكبر محظورات مجتمعها وتتزوَّج من حبيبها سرًّا. لكنَّها ضيَّعت تلك الفرصة. ضيَّعتها باختيارها، لأنَّ مساحة الاعتراف ضاقت في تلك الليلة وشعرت أمل أنَّها لم تعد قادرةًعلى تَلقِّي أو إعطاء المزيد.

«كيف كانت معاملة بيِّك إلك أوَّل ما شافك؟»، سألتها نبيلة.

«كتير منيح. للصراحة استغربت إنُّو ما فتح ملفَّات ولا عاتب»، قالت أمل وهي تنحني لترجع ظهر الكرسيّ الجلديّ الذي يتحوَّل إلى سرير.

«الفضل لعاشقة الظلّ»، قالت نبيلة وصمتت.

استقامت أمل بوقفتها واستدارت لتواجه نبيلة:

«هذا الكلام إدانة أكبر إلو!» قالت باشمئزاز. استنكرت أن تؤثّر امرأةٌ غريبةٌ على قرار والدها بشأن مقاطعتها أو مصالحتها. وبدلًا من أن يُشعرها الأمر بالامتنان لعاشقة الظلّ جاء بنتائج عكسيَّةٍ وجعلها تكرههما معًا. لكن قبل أن تسمح لهذا الكره أن يتحوَّل من شعورٍ اندفاعيٍّ إلى شعورٍ راسخ، ذكَّرت نفسها أنَّ عاشقة الظلّ هي نبيلة وأنَّها تحبُّ نبيلة.

جلست أمل مجدَّدًا ووضعت رأسها بين راحتَيْها وضغطت عليه. أرادت أن تعرف ما إذا كانت نبيلة تحمل أيّ ضغينةٍ لعليٍّ بسبب صداقة عاشقة الظلّ وما إذا فكَّرت يومًا في الانتقام. فهي تعلم أنَّ نبيلة أستاذةٌ في الصبر والانضباط الانفعاليّ. ولكن هناك أحاسيس داخليَّةٌ تختلف عن الأداء ويحكمها التدرُّب الطويل على الالتزام بالمساحة التي تسمح بها حيواتنا للتعبير عمَّا يختلج في صدورنا. تردَّدت قليلًا قبل أن ترفع رأسها وتسأل نبيلة السؤال الذي شغلها طويلًا:

«ما تملَّك منك الغضب ولا مرَّة؟ ما فكَّرتي تنتقمي منُّو بأيِّ طريقة؟» سألت أمل بتعجُّب.

لم تُجِب نبيلة على الفور، لكنَّها بعد برهةٍ رفعت سبَّابتها وقالت: «مرَّةً واحدة!» كان نظرها مثبَّتًا على أسفل السرير، وكأنَّها تحدِّق إلى مسافةٍ مفتوحةٍ لا يعترضها شيء. انتظرت أمل أن تكمل أمّها الحديث، ولمَّا لم تفعل، فهمت أنَّها لا تريد أن تتحدَّث عن الأمر.

«كيف أقنعت عاشقة الظلّ بيّ ليصالحني؟»، سألت أمل وهي تخلع حذاءها الرياضيّ وتتمدَّد على الكرسيِّ الذي أصبح شبه مسطَّح.

حاولت نبيلة أن تتذكَّر سير الأحداث بالتفصيل. وراحت تخبر أمل بشأن استدعاء الشيخ ريدان لوالدها ليستقصي عمَّا إذا كانت أمل تزورهم وليتحقَّق من صحَّة النميمة التي تطال حياتها الشخصيَّة. أخبرتها كيف عاد عليٌّ من الخلوة مهزومًا وخائفًا وكيف حرَّضته عاشقة الظلِّ في تلك الليلة على التمرُّد وتبنِّي موقف قوَّةٍ بدلًا من الخضوع. كتبَت له «أنت رجلٌ لك كيان واستقلاليَّة. لن يحترمك شيخ الضيعة إذا سمحت له أن يملي عليك كيف تعامل بناتك». أكَّدت له أيضًا أنَّ تقرير أمل ممتازٌ ولا يتعرَّض للدين، بل إنَّه مفيدٌ للطائفة، لأنَّه ينتصر للإنسان. حاولت بكلِّ وسعها أن تحنِّن قلبه على أمل وسألته «قُل لي بصراحة يا شيخ: لو كنت أنت مكان أمل، أمَا كنت تتمنَّى أن يقف والدك في صفِّك ويحميك من الغرباء؟».

مزوَّدًا بالقوَّة التي ضخَّتها فيه عاشقة الظلِّ قصد عليٌّ الشيخ ريدان في اليوم التالي، وأخبره أنَّ أمل راشدةٌ تسافر وتجتهد لتجني رزقها ولا تستشيره في أمور عملها، وأنَّه لن يقبل هذا التعدِّي على عرضه بعد اليوم وأنَّ كلّ من يأتي له بالأخبار والنميمة يجب أن يعاقَب بالبِعدَة.

هزَّت أمل رأسها ولم تقل شيئًا.

22

تأتي المآسي لتجدِّد العهود بين أفراد، من فرط ما اختلفوا في المبادئ وأنماط الحياة، نسوا أنَّهم عائلة. هكذا جاء مرض نبيلة ليقلِّص المسافات الممتدَّة بين بناتها ويوحِّد وجهات النظر بينهنَّ وبين والدهنَّ بشأن العلاج. «فلنتَّكل على الله ونبدأ بالعلاج الكيميائيّ»، قال عليٌّ للطبيب بعد أن أمضوا أيَّامًا في دوَّامة التحقُّق من الإصابة وتحديد أماكن انتشار المرض وصولًا إلى التشخيص المرحليّ وطرق العلاج. عليّ، الذي كان في الماضي لا يثق بالطبِّ ولا بالأطبَّاء ويفضِّل العلاج بالأعشاب ووصفات الطبّ الشعبيّ، لجأ اليوم إلى العلم خشية أن يفقد زوجته. فجأةً أصبح الجميع منحازًا للحياة. لم يُبدِ أحدٌ اهتمامًا بالحياة التي كانت نبيلة تعيشها، لكنَّهم فجأةً أصبحوا مستعدِّين لإسقاط رغبتهم في الحياة عليها. جاءت سناء من دبي عقب التشخيص مباشرة، ونيرمين التي تهرَّبت من الزيارة بحججها التي لا تنتهي، اتَّصلت لتخبرها أنَّها

قادمة. من خلف زجاج نظّارتها ذات الإطار الفضّيّ راقبتهم نبيلة بصمتٍ وامتنان. موجةٌ من الدفء اجتاحت قلبها وامتدّت إلى جميع أوصالها. أخيرًا اجتمعوا واضمحلّ النفور بينهم. أخيرًا هدأت المناكفات وتراجعت الخلافات التافهة إلى مكانها الطبيعيّ.

اقتربت أمل ولمست يدها، «كلّنا حدّك ورح نجتاز هالمرحلة سوا يا إمّي»، قالت وهي تتصنّع التماسك وكأنّها تُطَمئن نفسها. دلّكت أسمهان قدمَيْ أمّها من فوق الغطاء ووقفت سناء إلى جانب النافذة تتظاهر بتفقُّد الشارع وهي تمسح دموعها خلسة. أمّا عليٌّ فقد ظلّ بعد خروج الطبيب واقفًا عند حاجب الباب بعينَيْن تحدّقان في الفراغ، وكأنّه تلميذٌ معاقَبٌ غير مسموحٍ له بمغادرة مكانه.

ظهر الارتباك على وجوه الجميع عندما طلبت نبيلة أن تتحدّث إلى الطبيب على انفراد. ظنَّ عليٌّ أنّه لم يسمعها بشكلٍ واضح عندما طلبت منه أن يترك الغرفة. ثم كرّرت طلبها بلطفٍ كبيرٍ أمام دهشة بناتها. حين خرج الطبيب من غرفتها كان عليٌّ واقفًا في الممرّ وفي عينَيْه نظرة الغياب نفسها، خفض الطبيب رأسه قليلًا وهمس لعليٍّ ببضع كلمات، ثم أشار له أن يرافقه إلى مكتبه. جلس الطبيب إلى مكتبه المنظّم، دفع كرسيّه ذا العجلات الصغيرة إلى الأمام وعبث ببعض الأدوات فوق مكتبه الفسيح، قبل أن ينظر في عينَيْ عليٍّ ويقلب عالَمه رأسًا على عقب.

«نبيلة ترفض العلاج بشكل قطعيّ»، قال الطبيب. وقبل أن يتمكّن عليٌّ من قول شيءٍ أضاف:

«للحقيقة الشيخة عندها وجهة نظر. المرض في مرحلة متقدّمة والشفاء جدًّا صعب».

ثبَّت عليٌّ عينَيْه على القطعة النحاسيَّة التي كُتب عليها اسم الطبيب وهو يستمع إليه. حاول أن يتكلَّم، لكنَّه شعر أنَّ لسانه أصبح ثقيلًا ومشلولًا. أغمض عينَيْه وردَّد بعض الأدعية والأذكرة قبل أن يفتح فمه ليسأل عن الوقت المتبقِّي لها.

«الأعمار بيد الله يا شيخ»، قال الطبيب أوَّلًا، ثم أضاف أنَّ المدَّة بحسب تقدير الطبّ قد تتراوح بين أربعة وثمانية أسابيع. استمع عليٌّ بشرودٍ تامٍّ لإرشادات الطبيب بشأن الأدوية التي يجب أن ترافقها إلى المنزل وكيفيَّة استكمال أوراق الخروج، لكنَّه كان يعلم أنَّ بناته سيتكفَّلن بتلك التفاصيل.

عند باب الغرفة، سمع عليٌّ أصوات الشجار يختلط بصوت البكاء، فعلم أنَّ نبيلة أخبرت بناتها بقرارها. انشغلت سناء وأسمهان بالشجار مستعينتَيْن بالغضب ليساعدهما على التخفيف من هول المصيبة. فثارتا على قرار أمّهما. «هيذي اسمها أنانيَّة. كيف بتعملي فينا هيك؟»، سألت سناء بلهجةٍ قاسية، فنهرتها أسمهان وطلبت منها الاعتراض على قرار أمّها بأدبٍ قبل أن يحتدم النقاش بينهما. وحدها أمل كانت تنتحب في صمت، برأسها على حافَّة السرير ويد نبيلة تربِّت على كتفها. لم تنفعها حيلة التمسُّك بالغضب التي تعلَّمتها خلال فترة نشر التقرير وما تلته من أحداث. لاحظت أنَّ الغضب، الذي بنى سدًّا في طريق فيضان الخوف الذي كاد يُغرق روحها آنذاك، لا يسعفها الآن. الفهم ترياق الغضب، وهي على الرَّغم من رفضها القاطع لقرار أمّها، إلَّا أنَّها تتفهَّمه. فالتصاقها بنبيلة في طفولتها وتماهيها معها

على مدى أربعة عقودٍ من الزمن جعلها تفهم من دون جهد، أنَّ القرارات المتعلِّقة بالموت لا تقلّ قدسيَّةً عن تلك المتعلِّقة بالحياة. رغم ذلك، رفعت رأسها ونظرت في عيني أمّها. «بترجَّاكي خلّينا نجرِّب العلاج شهر واحد بس»، قالت كمحاولة أخيرة.

كان عليٌّ يعلم أكثر من أيِّ شخصٍ آخر أنَّ نبيلة لن تغيِّر رأيها. عِشرتهما الطويلة ومعرفتهما لطبائع بعضهما البعض تُفقده أيَّ أملٍ في استجابتها لتوسُّلات بناتها. لطالما اشتكى من عنادها بعد أن كان يعجز عن إقناعها بأحد آرائه أو حين كان يفشل في ثنيها عن قبول طلبيَّة خبزٍ كبيرةٍ تفوق قدرتها على الإنتاج. أمَّا الآن، فقد بات متأكِّدًا أنَّ عنادها الذي كان يُثير حنقه في السابق، وكانا يتعاملان معه كلعبةٍ تسلِّيهما خلال أيَّامهما الطويلة الهادئة، أصبح يهدِّد حياتها وحياته. لم يتخيَّل يومًا أنَّه قد يعيش أكثر منها وقد يضطرّ إلى مواجهة الحياة من دونها.

في المساء، حين وصل إلى منزله المظلم في عينصورة، شعر بموجةٍ من القلق جعلت أنفاسه تضيق. فتح كتاب الحكمة وراح يقرأ بخشوعٍ ويتضرَّع إلى ربِّ العالمين ليشفي نبيلة: «يا ربّ يا كريم يا أرحم الراحمين...» هكذا يبدأ دعاءه بصوتٍ مسموع، ويكمل بتمتمةٍ غير مسموعة. شعر بحاجةٍ إلى مشاركة مخاوفه مع أحدهم، فأخذ الهاتف وفتح شبَّاك المحادثة مع عاشقة الظلّ. كانت الأحاديث قد أصبحت شحيحةً بينهما في الأسابيع الأخيرة، واقتصرت على تبادل عبارات التحيَّة والسلام بشكلٍ مقتضبٍ يتخلَّلها بعض الأدعية التي يتبادلانها نهار الجمعة. تردَّد قليلًا قبل

أن ينقر بأصابعه على اللوحة.

«مساء الخير. عسى أن تكوني والعائلة بخير».

كتب ثم انتظر الردّ لأكثر من ربع ساعة. ولمَّا لم تُفتح الرسالة، قرَّر أن يكتب المزيد على أن تقرأ حين يتسنّى لها ذلك.

«أرجو منك الدعاء لنبيلة لأنَّها مريضةٌ للغاية. قال الطبيب إنَّ الأمل في شفائها شبه معدوم وأنا عاجزٌ عن استيعاب الأمر. طيلة حياتي كنت متأكِّدًا أنِّي سأرحل قبلها. لا أعلم من أين أتاني ذلك اليقين ولا كيف سأتعامل مع فقدانها... أعتذر إن كنت أثقل عليك بالمشاكل الشخصيَّة، ولكن ليس هناك من أحدٍ أتكلَّم معه سواك. بناتي مثلي تائهاتٌ ومغلوباتٌ على أمرهنّ... أشعر بالندم على أشياء لا أستطيع تحديد ماهيَّتها. أعرف أنَّني اقترفت أخطاءً بحقِّ نبيلة، لكنِّي لا أعرف ما هي. أتذكَّر نظرتها فقط. هناك نظرةٌ أراها في عينَيْها أحيانًا حين أفعل أو أقول شيئًا لا يرضيها، لكنِّي لا أسألها ما الأمر ولا أعرف ماذا أزعجها. تلك النظرة تطاردني الآن. تقول لي إنَّها لم تكن سعيدة. تقول لي إنَّ الوقت قد فات كي أعوِّضها عن تلك الأشياء التي لا أعرف تمامًا ما هي. ربَّما أسألها لو عادت إلينا سالمةً وأحرص على ألَّا أخذلها بعد الآن أبدًا. يبدو أنَّني أسهبت في الكلام. أعتذر منك مرَّةً أخرى وأرجو أن تدعي لها».

عادت البنات أربعتهنَّ إلى المنزل، تمامًا كما حلمت نبيلة لسنوات. لكنَّهنَّ في أحلامها كُنَّ فَرِحات، يتبادلن النكات

ويضحكن بينما تطبخ لكلٍّ منهنَّ أكلتها المفضَّلة. استقدمن سريرًا من أحد المراكز المختصَّة بتأجير أسِرَّة المستشفيات، ووضعنه في غرفة الجلوس أسفل النافذة التي تطلّ على المنحدر الذي يمتدّ لعشرات الأمتار قبل أن يتَّصل بالنهر. وضعنها فوق السرير وكدَّسن الأدوية والعقاقير على طاولةٍ مستديرةٍ بالقرب منها.

يؤمن عليٌّ بالمعجزات ويقول إنَّ الله قادرٌ على كلِّ شيء. جزءٌ منه يظنّ أنَّ نبيلة ستستيقظ يومًا ما معافاةً لأنَّ الله يمتحنها ولأنَّها برضاها وتسليمها ستجتاز الامتحان وتعود إلى الحياة بكامل قوَّتها. تحمل نيرمين كتاب الحكمة وتدسّ رأسها فيه بحجَّة أنَّها تقرأ على نيَّة مباركة أمّها وشفائها. فيصبح الكتاب درعًا يحميها من الضعف البشريّ القابع في عينَي أخواتها ويجنِّبها التواصل مع الأقارب الذين يأتون للسؤال عن نبيلة.

تُبقي نيرمين الستحة على فمها حتى في غياب الرجال، وهو ما لا تفعله النساء الدرزيَّات مهما بلغت درجة تديُّنهنّ. راقبتها أمل بعينَيْن فضوليَّتَيْن وشعرت بانفصالها التامّ عن الواقع، فحضرها ذلك الشعور الذي يتملَّكها حين تنظر في عينَي شخصٍ مصابٍ بفقدان الذاكرة. شعورٌ بالخواء وبفقدان الجاذبيَّة تحت الأقدام. خُيِّل إليها أنَّ نيرمين محاطةٌ بفقَّاعةٍ شفَّافةٍ تعزلها عن محيطها بقدر ما تفصلها عن الماضي. أين ذهبت نيرمين التي كانت تدخِّن وإيَّاها السجائر على السطح خلسةً خلف خزَّان المياه، بينما تتفَّحصان كتالوج الثياب لماركة «ڤيكتوريا سيكريت»، فترسمان دوائر حول القطع التي ستشتريانها وتضحكان على أمورٍ تافهة؟ أين شقيقتها المتمرِّدة التي كانت تحتقر حياة

القرية وتقاليدها وأصرَّت على الزواج من حبيبها والسفر معه إلى أميركا؟

ودَّت أمل لو تصدِّق توبة نيرمين بكلِّ كيانها. تمنَّت أن تتخلَّص من تلك الإدانة الخفيَّة التي تحملها في قلبها لها، لكنَّها لم تتمكَّن من خداع نفسها. هناك شيءٌ من التعالي في توبة نيرمين يشبه ترفُّع عليٍّ عن الانكسار، ويذكِّرها بغطرسة طلَّاب الجامعة الأميركيَّة الذين التقتهم في عامها الأوَّل بعد تلقِّيها المنحة الجامعيَّة. كلُّ من يظنّ نفسه أفضل من الآخرين، ينفصل بكامل إرادته عنهم ويكرِّس ذلك الانفصال لحماية نفسه.

أصبحت نجاة تزور أختها نبيلة باستمرار، وقد جاءت اليوم بقدمَيْن داميتَيْن. قطعت الوادي واجتازت النهر حافية القدمَيْن لتقدِّم ألمها نذرًا على نيَّة شفاء نبيلة، راجيةً من الله أن يشفق على حالها ويعافي أختها. تتفقَّد نجاة الساعة باستمرارٍ وتفكِّر في أخيها إبراهيم المحبوس في العِلِّيَّة في انتظار صينيَّة الطعام وفي أمِّها التي لم تعد تستطيع أن تتحرَّك من دون مساعدة. لكن نجاة تكلِّف جارتهم المسنَّة أن تجالس مهيبة التسعينيَّة لبضع ساعاتٍ ريثما تقصد منزل نبيلة وتجلس بجانب سريرها لتهتمّ بها وتدندن لها أغاني وديع الصافي بصوتها العذب:

«على الله تعود على الله

يا ضايع في ديار الله

من بعدك إنت يا غالي

ما لي أحباب غير الله»

غنَّت لها نجاة كي توقظها من أجل أن تأكل وتأخذ دواءها، ولمَّا فتحت نبيلة عينَيْها، جلست نجاة إلى جانبها:

«بدِّي اعترفلك إنِّي سرقت قصّتك عن وديع الصافي كلّ هالسنين. كنت إحكي للبنات إنُّو أنا اللي شفتو بمحميَّة الأرز مش إنتي»، قالت نجاة ممازحةً وراحت تضحك.

نظرت إليها نبيلة بحنانٍ كبير، «لو عطيتك كلّ ذكرياتي الحلوة ما بوفيكي حقّك. كنتي إمِّي إلي كمان يا نجاة»، قالت نبيلة بصوتها المتعب.

بعض النساء يولدن أمَّهات، يصلن إلى هذا العالم ويتبنَّيْن ضعفاءه. ونجاة التي لم تنجب في حياتها أصبحت أمّ أمّها وأمّ أخواتها وأمّ أولاد أخواتها أيضًا. ربَّت أخواتها حتى كبرن، ولمَّا كبرن وتزوَّجن، كرَّست حياتها لإبراهيم، ولمَّا استقرَّ إبراهيم في عزلته عادت أمّها طفلةً تحتاج من يحمِّمها ويلبسها ويطعمها.

لم تقض أمل أكثر من ليلتَيْن متتاليتَيْن في قرية عينصورة منذ تزوَّجت وغادرت منزل والدَيْها قبل أكثر من اثنتين وعشرين سنة. وهي في ألمانيا تَعِدُ أمَّها على الهاتف أنَّها ستمضي أسبوعًا كاملًا في منزلهم خلال الزيارة القادمة، ولكن ما إن يحين موعد الزيارة القادمة وتمرّ الليلة الأولى حتى ينتابها ذلك الشعور الغريب الذي يحثّها على المغادرة. كانت تنجح أحيانًا في التحايل على نفسها والبقاء لليلةٍ إضافيَّةٍ قبل أن تحزم أمتعتها استعدادًا للمغادرة إلى بيروت. «خلص شفتكم ومضَّينا وقت حلو»، تقول لنبيلة بلهجةٍ فيها الكثير من الاعتذار وهي تقف على العتبة، فتبتسم لها نبيلة

وتقول: «خلِّيكي على راحتك». الآن وقد مضى أكثر من أسبوعٍ على وجودها في القرية تتساءل أين ذهب ذلك الشعور الذي يؤرقها ويحثّها على المغادرة؟ هل فعلًا غادرها، أو أنَّ مشاعر أكثر قسوةً وتوحُّشًا قد حلَّت محلّه وجعلته أليفًا وهادئًا؟

خلال زيارة الخالة نجاة شعرت أمل بحاجتها إلى استنشاق هواء الخريف المنعش، فارتدت سترةً خفيفةً ونزلت درجات السلّم الثلاث المؤدِّية إلى الفناء. وما إن التفَّت حول ورشة عليٍّ لتدور حول البيت دورتَيْن كما تفعل عادة، حتى سمعت ذلك الصوت القديم. كانت قد وصلت إلى الصنوبرة الكبيرة التي تفصل البيت عن الطريق العامّ حين اقترب الصوت الذي يبثّ فيها الرغبة في الجريان والاختباء. لوهلةٍ ظنَّت أنَّها تتخيَّل، وقفت في مكانها وأصاخت السمع. نعم، إنَّه صوت عصا الشيخ ريدان وها هو يقترب منها. استدارت وتأهَّبت للعودة من حيث أتت، لكنَّها تسمَّرت في مكانها. شعرت كأنَّ يدًا عملاقةً أمسكتها من كتفها وثبَّتتها في الأرض. أغمضت عينَيْها وشهقت عميقًا ثم قرَّرت أن تتابع نزهتها. ظهر أمامها بعباءته السوداء ولحيته التي أصبحت بيضاء بفعل التقدُّم في العمر. قامته التي كانت شامخةً أصبحت منحنيةً بعض الشيء، لكنَّ السنوات لم تخفِّف من حدَّة نقر عصاه فوق الأسفلت. استقامت في وقفتها وثبَّتت قدمَيْها في الأرض. حين شعرت أنَّه أصبح على بعد خطواتٍ منها رفعت رأسها وحدَّقت في عينَيْه. بادلها التحديق لثانيتَيْن أو ثلاث، وربَّما أكثر. كانت أمل خارج الوقت لحظتها لأنَّ الخوف كان غائبًا، وكأنَّه لم يحضر يومًا ولم يؤرقها على مدى عمرٍ كامل. لا تعلم أمل كم

دام التحديق المتبادل، لكنَّها متأكِّدةٌ أنَّه هزَّ رأسه بتحيَّةٍ مسائيَّة. نعم كان هو من أشاح بنظره أوَّلًا، وألقى التحيَّة قبل أن يتوارى عن ناظرَيْها.

جرعة المورفين تتقدَّم مع تقدُّم الألم، ونبيلة تمعن في الغياب تاركةً كلّ من حولها غارقًا في غربته عن الآخرين مرعوبًا من يُتم قد أصبح وشيكًا. كلٌّ عاش الأزمة بما تيسَّر من التنقُّل بين الإنكار واليأس، من التأرجح بين الخوف والغضب. بعد الأيَّام الأولى، أصبحت بناتها يغادرن ويعُدْن في المساء أو في اليوم التالي. فتعود أسمهان محمَّلةً بالأطعمة التي تطبخها في بيتها، وتعود نيرمين من الخلوة بالكثير من كلمات الوعظ التي تعلَّمتها من الشيخات التقيَّات اللواتي حاولن التخفيف من هول الفاجعة عليها. وحدها أمل رفضت أن تغادر نبيلة. اختارت أن تلازمها، كي تصطاد تلك الليالي القليلة التي تكون فيها واعيةً وقادرةً على الكلام. تتركها لنصف ساعة فقط في النهار تصعد خلالها إلى السطح لتتَّصل بزوجها وتطمئنه عن أحوالها وتتفقَّد أحواله.

في الليل يصبح الصمت طويلًا وثقيلًا. كلّ شيءٍ يبدو مختلفًا في المنزل مع انسحاب نبيلة منه، صحيحٌ أنَّها ما زالت هنا في إحدى غرفه، لكنَّ نومها العميق، نومها الذي يمهِّد الطريق إلى غيابٍ لا عودة منه، يحوِّل البيت إلى كتلةٍ ثقيلةٍ تشبه جسدًا مشلولًا لا عصب فيه. تفتقد أمل طاقة نبيلة في المنزل، حركتها الدائمة، قدور الطبخ التي لا تفارق النار، وتنقُّلها المستمرّ بين الداخل والخارج، بين الطبخ لبناتها وريّ نباتاتها ووضع الطعام

للقطط. لنبيلة أربع بناتٍ وأربعين شتلةً توزِّع عليهنَّ فائض حبِّها وتغرقهنّ بكلِّ ما لم تحظ هي به.

أصدرت البوَّابة الحديديَّة صريرًا خفيفًا حين فتحتها أمل لتخرج إلى الفناء، شدَّت جانبي الجاكيت الخريفيّ الذي ترتديه، وشبكت ذراعَيْها فوقه قبل أن تقف لتطيل النظر إلى أصص الزرع التي تلمع أوراقها تحت ضوءٍ أصفرَ خفيفٍ يتسرَّب من قنديل الشارع. شعرت ببرودة أواخر أيلول تجتاح عظامها وبإحساسٍ عارمٍ بالغربة، فهمت للمرَّة الأولى أنَّه باقتنائها تلك الأصص كانتْ أمّها تتمسَّك بالغطاء الأخضر لحياتها. لقد تمسَّكت نبيلة بحبِّ الحياة بما أوتيت من نكران، بما استطاعت من شغف، بما تدبَّرت من تحويل الخيبة إلى سماد. أدركت أيضًا أنَّ كلّ الأحياء حولها يعوِّلون على وجودها كي يستمرُّوا في العيش وكلٌّ بطريقته يرجوها ألَّا تدعه يذبل. فهمت أمل كيف يستهلكُ الحبُّ الأمَّهات ويُذبِلهنَّ بينما يجعل الزرع ذبولهنَّ أكثرَ أناقة، أقلَّ قسوة، ويجعل طريقهنَّ إلى الموت أسهل.

داخل المنزل، تجوَّلت أمل بين الغرف وسمحت لأفكارها أن تذهب في كلِّ الاتِّجاهات. غرفة النوم هذه كانت مطبخًا منذ عشرين عامًا بالتمام. في موضع الخزانة البنِّيَّة الثقيلة على يمين الباب، كان حوض غسل الصحون متَّصلًا بقطعةٍ من الرخام تمتدُّ على طول الحائط. تسترجعُ صورة نبيلة الثلاثينيَّة واقفةً أمامها بمريولٍ قديم اختفت عنه رسوم حبَّات الفواكه الشهيَّة لتظهر على شكل خطوطٍ متلاشيةٍ وبقعٍ متداخلة، تراقبها أمل الطفلة وهي ترصُّ حبَّات الباذنجان في البرطمانات الزجاجيَّة الكبيرة لتغمرها

بالزيت، تراقبها وهي تغلي عصير البندورة فتظهر فقّاعاتٌ ساخنةٌ على سطحه لتنفتق من وسطها وترسل قطراتٍ حارقةً تجاه نبيلة فتلتصق بزجاج نظّارتها وتترك بقعًا حمراء فوق منديلها الأبيض. عادت المشاهد غزيرةً ومتداخلةً يرافقها سيلٌ من الروائح والمشاعر. رائحة سكّرٍ محروق، رائحة الرطوبة في خزائن المؤن التي تغطّيها قطعٌ قماشيَّةٌ بدلًا من أبوابٍ خشبيَّة، رائحة خلِّ العنب الذي تستخدمه نبيلة لصناعة المخلّلات على أنواعها وتلك الرائحة الكريهة التي كانت تتسرَّب من أنابيب الحوض حين يطفح.

طوال تلك السنوات التي لازمت فيها أمَّها مثل ظلّها، كانت أمل تشعر بالأسف عليها من غير أن تعي ذلك. علمت، كما يعلم أيُّ طفلٍ صامتٍ ومرهف الحسّ، أنَّ حياة أمّها شاقَّةٌ ومملَّة، وتوصَّلت إلى قناعةٍ مفادها أنَّ خدعةً ما قد انطلت على أمّها وجعلتها تقبل بهذه الحياة. حين كبرت أمل واختارت حياةً مختلفة، تحوَّل ذلك الشعور اللّاواعي الذي سكنها طيلة طفولتها إلى شعورٍ قاتلٍ بالذنب والخيانة تجاه أمّها.

قطع حبل أفكارها صوتُ سعالٍ قادمٌ من غرفة نبيلة فهرعت إليها، أضاءت النور الصغير بجانب سريرها وناولتها كوب ماء.

«في وجع؟ بدِّك أعطيكي مُسكِّن أقوى؟»، سألت أمل بترقُّب.

«لا، تعلَّمت كيف أتعامل مع الوجع»، قالت نبيلة. وشرحت لأمل أنَّها تدرَّبت طيلة حياتها على عدم مقاومة الألم وعدم إعطائه مساحةً كبيرةً في وعيها، وأنَّها بذلك وجدت تحمّله والتعايش معه

أسهل، ثم طلبت منها أن تجلس إلى جانبها. أرجعت نبيلة اللحاف إلى الوراء كي تفسح مجالًا لأمل لتجلس، ثم قالت:

«سألتيني من أسبوع إذا حاولت أنتقم من علي. بتتذكَّري؟».

«صحيح. قلتيلي مرَّة واحدة، وما كمَّلتي الخبريَّة»، أجابت أمل.

طلبت نبيلة من أمل أن تزيح الستائر وأن تفتح درفة النافذة قليلًا قبل أن تخبرها بشأن تلك الليلة التي قرَّرت فيها أن تنتقم من عليٍّ عن طريق قتل عاشقة الظلّ. علمت أن لا شيء قد يؤلمه أكثر من فقدان صديقته المقرَّبة، وقد حضَّرت من أجل ذلك نعوةً كتبتها على خلفيَّةٍ سوداء وقرَّرت أن تنشرها على حساب عاشقة الظلّ على أن تجعل الأمر يبدو وكأنَّ أحد أقربائها قام بنعيها. تملَّكتها الفكرة بعد شجارٍ جعل عليّا يتجاهلها لثلاثة أيَّامٍ متواصلة. فتوقَّف عن تناول الطعام معها أو مجالستها واكتفى بإلقاء تحيَّة الصباح عليها ثمّ تحيَّة المساء قبل أن يذهب إلى السرير. آلمها جفاؤه وأشعرها أنَّ وجودها في البيت مثل عدمه. لم يغِظها كونه استمرَّ في الحديث مع عاشقة الظلّ بقدر ما أغاظها ادِّعاؤه، خلال إحدى محادثاته معها، أنَّه من أكثر الرجال تقديرًا لزوجته. ملأ هذا الادِّعاء نبيلة بالمرارة وأشعل رغبتها في الانتقام منه، لكنَّها قرَّرت أن تنتظر يومَيْن لتهدأ قبل أن تُقدِم على تلك الخطوة.

وحين سألتها أمل عن سبب تراجعها عن رأيها بعد انقضاء المدَّة، أخبرتها نبيلة بقصَّةٍ لم تسمعها من قبل.

كانت نبيلة في الرابعة والعشرين من عمرها حين اضطرَّت إلى ذبح أوَّل دجاجةٍ في حياتها. تركها عليٌّ برفقة بناتها وذهب في رحلة صيدٍ مع مجموعةٍ من أصدقائه، على أن يعود ورفقاؤه في اليوم التالي لتناول العشاء في بيته. لم يكن من الصعب على نبيلة تحمُّل مسؤوليَّة ثلاث بناتٍ أصغرهنَّ لم تتمّ السنة من عمرها، ولا أن تجهِّز عشاءً له ولأصدقائه من دون مساعدة أحد، لكنَّ تخلُّف بيَّاع الدجاج عن الحضور في ذلك النهار وضعها في موقفٍ صعب. لم تكن هناك ملحمةٌ في عينصورة ودكاكين البلدة القليلة كانت لا تبيع سوى الضروريَّات وبعض الخضار من المحاصيل المحلِّيَّة.

أوصت ابنتها الكبرى أسمهان أن تنتبه لأختَيْها ونزلت إلى قنِّ الدجاج المحمي بشجرة توت. كانت دجاجاتها تسرح باسترخاءٍ وهدوءٍ تحت أشعَّة شمس الظهيرة، تنقر الأرض بمناقيرها وتنقنق بكسل. صعب عليها اختيار دجاجةٍ بعينها، وراحت تنقِّل نظرها بين الدجاجات لتقرِّر أيًّا منها ستأخذ. لكنَّها لم تفكِّر طويلًا والتقطت دجاجةً رماديَّةً متوسِّطة الحجم، ثم توجَّهت بها نحو القناة التي تمرُّ بمحاذاة الحقول حيث تذبح نساء القرية دجاجاتهنّ. وضعت جناحَي الدجاجة تحت قدمها ورفعت رأسها إلى أعلى ثم قالت «سبحان من حلَّلك للذبح» قبل أن تجزَّ عنقها وهي تصرُّ على أسنانها. انتفضت الدجاجة بين يدَيْها لثوانٍ خالتها دهرًا قبل أن ترتخي وتتوقَّف عن الحركة. فقط حين تأكَّدت من سكونها أفلتتها من يدها وجلست على الأرض. شعرت بركبتَيْها ترتجفان وبأعصابها ترتخي بعد أن كانت مشدودة، ارتاحت قليلًا

حتى تنحَّت الرجفة ثم حملت الدجاجة لتنتف ريشها وتعدَّها للطهي.

حزن عليٌّ عندما علم بالأمر، «عمره ما يتّاكل دجاج»، قال بانفعالٍ وأضاف أنَّه كان يفضِّل الاعتذار عن دعوة أصدقائه إلى العشاء على أن تذبح نبيلة دجاجةً بيدَيْها. كلُّ نساء الحارة كُنَّ يذبحن الدجاج وكذلك أمّ عليٍّ وشقيقته، لذلك استغربت نبيلة موقفه. وحين سألته عن سبب انزعاجه أجابها أنَّها من بين جميع النساء لم تكن مُعدَّةً لقتل أيّ روح، ووعدها أنَّها لن تضطرَّ أبدًا إلى أذيَّة أيّ طيرٍ أو حيوانٍ بعد ذلك.

رأت نبيلة في تصرُّف عليٍّ فعل حبٍّ خالص، فهي لم تتوقَّع أبدًا أنَّ عليًّا الصيَّاد سيميِّز هشاشة روحها وسيعي حجم الألم الذي يلحقه بها أذيَّة الكائنات. ظنَّت أنَّ هذا الأمر سيبقى خفيًّا عليه ككلِّ الأمور الأخرى التي لا يعرفها عنها.

أرسلوا الشيخة رابعة إلى منزل مهيبة لتكسر حدَّة خبر الفاجعة الذي قد يأتي بين يومٍ وآخر. تسأل مهيبة عن ابنتها نبيلة باستمرار. «ليش مش عم تجي تزورني؟»، وتقول لها نجاة «عندها شويَّة التهابات». يأتي الجيران، وبعد أن يتهامسوا مع نجاة وراء الجدار الذي يفصل الممرَّ عن غرفة مهيبة، يؤكِّدون لها كلام ابنتها ويردِّدون: «عندها شويَّة التهابات وبتروح». لكنَّها تبكي وتقول إنَّ الجميع يخفي عنها شيئًا. لم تكن الغاية من ذلك خداعها، بل تأجيل نوبات الولولة والبكاء التي قد تأتي قبل أوانها وتهدّ ما

تبقّى من حيل الأمّ التسعينيَّة المقعدة، وتجعل من رعاية نجاة لها مهمَّةً أكثر صعوبة.

خلعت الشيخة رابعة حذاءها على يسار الباب واقتربت من مهيبة، انحنت لتقبِّل رأس العجوز. «كيف حالك عالفضل خالتي أمّ إبراهيم؟» قالت لها قبل أن تجلس بجوارها. لم تأت رابعة لزيارة مهيبة منذ ستَّة عشر عامًا. كانت حينها أربعينيَّةً وقد جاءت ليلتها مسرعةً بعد أن زارتها نجاة لتسابق وصول خبر وفاة سمر إلى أمِّها في القرية. وصلت إلى مهيبة حينها قبل أن يعلم الجيران ويبدؤوا بالتوافد إلى الدار، شدَّت على يدي مهيبة، «إنَّ الله مع الصابرين يا حبيبتي. ما بيصير نعترض على إرادة ربّ العالمين يا إمّ إبراهيم»، قالت لها رابعة قبل أن تعزِّيها بوفاة ابنتها لتتشاركا بعدها في بكاءٍ مرّ.

المهمَّة اليوم أصعب، هذا ما فكَّرت فيه نجاة وهي تراقبهما من خلف مربَّع الزجاج في أعلى الباب. وقفت تنظر إلى ذلك الجسد المنهك الذي من شدَّة ضعفه وانحنائه أصبح يشبه أجساد الدمى القماشيَّة المحشوَّة بالقشّ. فكَّرت في ورطة أمّها، العجوز التي تسمع بصعوبة، وتحدِّق بشدَّةٍ في الوجه الذي أمامها كي تتوضَّح معالمه، وتساءلت عمَّا إذا كانت ستتحمَّل حجم الألم الذي في طريقه إليها؟ فمهيبة تحمَّلت مصائب الدهر وخبرت الفقر والمرض والحرب، والآن ستشهد على موت بنتٍ أخرى من بناتها. هذه المرَّة الخسارة أصعب لأنَّ نبيلة لم تغادر جوارهم يومًا ولم تفارق أهلها الذين نذروها لشمس هذا الوادي ونهره وطرقاته. ونبيلة ليست اليوم هنا لتخفِّف وطأة المآسي على أمّها

بقولها: «إنتي ما عندك خبر قدّيش إيمانك قوي. هلّق المصيبة رح تفرجيكي مدى صلابتك»، هكذا قالت لها بعد وفاة سمر.

شعرت نجاة أنَّها في أمانٍ وهي تراقبهما من وراء الزجاج الذي يعزل الصوت: وجه الشيخة رابعة الأبيض الهادئ وهي تتكلَّم مع مهيبة، جسد مهيبة الذي راح يهتزّ ويدها النحيفة ذات البقع الداكنة التي رفعت المنديل لتضغط به على عينَيْها. لثوانٍ شعرت نجاة أنَّها منفصلةٌ عن كلِّ ما يحدث، أنَّ النافذة تطلُّ على عالم آخر ليس لها فيه أيَّة مهامٍّ أو مسؤوليَّات، أنَّ عالمها القديم قد اختفى وتسنَّى لها للحظةٍ أن تأخذ استراحةً منه. لكنَّ المشهد عاد حيًّا فجأةً مثل محطَّةٍ إذاعيَّةٍ ضعيفة الإرسال غاب صوتها وعاد من دون إنذار. تذكَّرت أن الأمر يخص نبيلة، شقيقتها ورفيقة دربها. شعرت بالألم يجتاح كلَّ كيانها، بقعة زيت تمتدّ فوق قماشٍ رقيق. ورقة توتٍ أخيرةٌ تتأرجح على غصنٍ عار. ورقة توتٍ يشهق العالم لجمال هشاشتها.

تجنَّبت أمل مجالسة الزائرين الذين يأتون لتفقُّد صحَّة أمّها. يسألون في البدء عن صحَّة نبيلة ثمَّ يتشعَّبون إلى مواضيع أخرى تخصّ حيواتهم وأبنائهم ومواسم زرعهم، وبعد ذلك يمطرون أمل بالأسئلة عن عملها ومكان إقامتها وتفاصيل أخرى. كلُّ ذلك يحدث في سياق الاطمئنان على صحَّة نبيلة. نبيلة النائمة، نبيلة المسافرة، غير الآبهة بالالتفات إلى العالم الذي يضمحلُّ وراءها. خطواتٌ قليلةٌ وتأخذ المنعطف الأخير، وتغيب عن الأنظار.

أصبح عليٌّ في تلك الأيَّام يكثر من الجلوس أمام كتابه. يأكل قليلًا ويتكلَّم أقلّ ولا ينزل إلى ورشته مطلقًا. تكدَّست

أوراق الشجر في زوايا الفناء وبين أصص الزرع. لكنْ، وسط أجواء الحزن والضياع، لم ينتبه للأمر سوى عليّ، فأخذ مكنسة القشّ وراح بذراعه الوحيدة يكنس من تلك الأوراق ما استطاع. رأته أمل من نافذة المطبخ وغمغمت من دون أن تعرف تمامًا ما الذي تريد قوله. كانت لها القدرة على قلب كلّ شيءٍ ضدَّه، حتى صمته وانسحابه رأتهما دليلًا على صحوته المتأخِّرة. قاومت تعاطفها معه حين رأته يصارع لسحب أصيصٍ كبيرٍ من أجل أن يكنس وراءه، فغمغمت لتتفِّه مساهمته، ولتحوِّل داخل رأسها كلّ ما يفعله إلى عرضٍ مسرحيٍّ استعراضيّ.

في مساء ذلك اليوم، وبعد مكالمتها اليوميَّة التي تجريها من على سطح المنزل مع زوجها، فتحت أمل البوَّابة التي تركتها مواربةً من دون أن يصدر عنها أيُّ صوت. لم تكن الساعة قد تعدَّت الحادية عشرة، لكنَّ المنزل كان غارقًا في الصمت والظلام. سمعت همهمةً في غرفة نبيلة التي لم يكن يُنيرها سوى الضوء المتسرِّب من عامود الشارع، وعندما اقتربت من الباب رأت عليًّا جالسًا إلى جانب نبيلة ممسكًا يدها. كتمت أنفاسها كي لا يشعر بوجودها.

«سامحيني يا نبيلة قصَّرت معك»، قال عليّ. «إنتِ خيمة البيت وبَرَكته يا نبيلة. كان لازم أنا روح قبلك. إنتِ بتليق فيكي الحياة. ما تتركينا بكِّير يا نبيلة»، أضاف قبل أن يتكسَّر صوته ويكمل كلامه باكيًا.

التصقت أمل بالجدار وأرادت الانسحاب. لقد فشلت في بناء علاقةٍ مع والدها وهو في قمَّة جبروته، فكيف ستتعامل معه

وهو منكسر؟! لكنَّها أرادت أن تعرف إنْ كانت نبيلة مستيقظة، وما إذا كان كلامه يزعجها؟

«مسامحتك يا علي. إنت كمان سامحني. قلبي صافي عليك وعلى الجميع»، قالت، ثم أضافت «بترجَّاك ما تبكي يا علي وانتبه على حالك وعلى البنات. ما إلك غيرهم من بعدي!».

قالت نبيلة بصوتٍ ضعيف، وشعرت بسكينةٍ عارمةٍ تغمرها مثل نورٍ غزيرٍ وتلفّها بالدفء. شعورٌ يفوق الكلمات، يتخطَّى الجرح، ويتجاوز الغفران. غاب الألم الذي رافقها لأسابيع، وعادت لها تلك الخفَّة التي كانت تختبرها في صغرها قبل أن تحدث لها الحياة. الخفَّة التي ملأتها وهي تركض على طريق النهر وتغنِّي «أنا عصفورة الشمس، أنا زهرة الحرِّيَّة، أنا وردة المسافة، مربى الحفافي، مكتوبة على جسور الميّ».

نامت نبيلة تلك الليلة ولم تستيقظ بعدها. توقَّف قلبها بعد حوالي خمسٍ وعشرين ساعةً من دخولها في الغيبوبة وغادرتها روحها في فجر الثالث من أكتوبر في السرير الذي يطلُّ على الوادي الذي تحبّ. في الخارج كان الضوء قد بدأ يكسر حلكة السماء الخريفيَّة، والحقول مستكينةٌ تحت غطاء الندى الصباحيّ. وهناك، كان صوت خرير ماء النهر هادئًا وحزينًا يرمِّم أُلفة المكان ويكسر السكون الرهيب، خريرٌ يشبه نقطةً سوداء على بياضٍ ممتدٍّ يكاد لا يختلف عن العدم.

مكتبة
t.me/soramnqraa

23

الصبيُّ الذي لاحق الفراشة لم يكن يحمل شبكة. هكذا سيبدأ الحكاية إذا ما أخبر قصَّته لأحدهم في يومٍ من الأيَّام. أو ربَّما سيقول: الصبيّ الذي لاحق الفراشة لم يكنْ يدري أنَّ هناك شيئًا اسمه شبكة. ركض الصبيّ وراء الفراشة ونسي أن يحفظ طريق العودة.

هل كان الصبيُّ يُدرك أنَّه يلاحقها؟ أكان يلاحقها أم يتبعها؟ وبما أنَّه لم يكن ينوي أن يلتقطها، لماذا استمرَّ في المطاردة؟ الآن وقد اختفت الفراشة، تذكَّر الصبيّ أنَّه لم يعد صبيًّا وأنَّ السنوات التي حوَّلته كهلًا قد ردمت كلّ ملامح الدرب الذي أتى منه.

بحرفة مَنْ تعلَّم كيف يحصل من القرويِّين على المعلومات التي يريدها من غير أن يبدو فضوليًّا، حمل مهنَّدٌ المعول وفصله عن عصاه ثم توجَّه إلى دكَّان أمّ مكرم. بعد أن اشترى حاجته من

الأغراض، أشار إلى المعول الذي وضعه على الأرض بجانبه، وسأل أمّ مكرمٍ عن الشيخ عليٍّ الذي غاب عن الضيعة منذ ثلاثة أيّام.

«مسكينة نبيلة مريضة وأخذوها عالمستشفى. عم يقولو معها من هذاك المرض»، قالت بصوتٍ فيه الكثير من الأسف. ومن دون أن ينظر إليها مباشرة، ومن دون أن يقول شيئًا، وضع المعلّبات في الكيس وغادر. كان هذا منذ عدّة أسابيع، ومنذ ذلك النهار توقّف مهنّدٌ عن العمل وتكرّس لمراقبة منزل الشيخ عليٍّ من على سطح مسكنه المنخفض. انفطر قلبه وهو ينتظر أن تضيء غرفةٌ ما في البيت معلنةً عن عودتهم مبدِّدة جزءًا من مخاوفه. ضجّت الأسئلة في رأسه وسحلته على إسفلت الاحتمالات. الآن وقد علم أنّ نبيلة هي المريضة، لم يعد هناك تآويل للبيت المظلم ولأهله الغائبين. الآن وقد اختفت الفراشة فجأة، نظر هذا الكهل من حوله وسأل نفسه: من أنا ولماذا وصلت إلى هنا؟

لقد كان يعلم منذ البداية أنّه بقي في هذا الوادي بسببها. حدث الأمر بالتدريج وببراءة من يأمَن جانب الزمن، اختار أن يبقى سنة، ولم يكن عليه بعدها سوى أن يختار أن يبقى سنةً أخرى مرّةً كلّ سنة. كانت حصّالة السنوات وقتها ما زالت ممتلئةً وجسده الفتيُّ قادرٌ على حمل حياته الصغيرة فوق ظهره ليحطّ رحاله في مكانٍ آخر. الرحيل كان الخطّة «ب»، لكنّه قضى عمره كلّه في رحاب ضبابيّة الخطّة «أ». حرِص على غرس نبتةٍ جديدةٍ كلّ عام لتجعل رحيله القادم أصعب، وليضرب جذوره أعمق في الخطّة «أ».

«قرَّرتُ أن أبقى عام 1988»، هذا ما سيقوله إن احتاج أن يخبر قصَّته لأحدهم يومًا ما. كان من المهمّ لمهنَّدٍ أن يفهم كيف تطوَّرت حياته، ولهذا كان يخبر قصَّته لنفسه داخل رأسه ويتظاهر بأنَّ أحدهم يطرح عليه الأسئلة. ربَّما بدأ الأمر سنة 2005 حين ضربوه وطردوه من القرية وقالوا له «رح نلبّسك تهمة تخلّيك تعفّن بالحبس». من يومها بدأ يخبر قصَّة حياته لنفسه وكأنَّه يتحدَّث مع محقِّقٍ أو محاور. قرَّر أيضًا أن يقول إنَّ طرده من القرية عام 2005 كان بسبب استحواذه على فرص العمل وحرمان شبَّان القرية منها وظلّ يكرِّر هذا الكلام حتى صدَّقه. وحين صدَّقه اكتشف أنَّ حياته ليست سوى القصَّة التي يخبرها لنفسه عن هذه الحياة.

في شتاء عام 1988، أصابت مهنَّدًا حمَّى كانت الأسوأ في حياته، أبقته طريح الفراش لأربعة عشر يومًا. اتَّصلت أيَّامه ببعضها وكأنَّها ـ كجسده ـ أصبحت كتلةً واحدةً لزجةً وملتهبة. كان يفتح عينَيْه ليرى نور النهار المتسرِّب من النافذة أحيانًا، وأحيانًا أخرى يفتحهما ويرى ظلامًا موحشًا فلا يعلم إن كان قد فقد بصره أم أنَّ الليل لا ينتهي. وفي أحد تلك الأيَّام، شعر بيدٍ تلمس جبينه تتبعها ضمادةٌ باردة. ضمادةٌ كان لها مفعول سكب المياه على القطن. أجل، كان رأسه أشبه بغيمةٍ تتبدَّد، وتلك الضمادة أعادت إليه رأسه. سمع أيضًا قرقعةً خفيفةً من داخل صوبيا الحطب التي تربض في منتصف الغرفة وأحسَّ بالدفء، لكنَّه أبى أن يفتح عينَيْه. قرَّر أنَّه يحلم وقرَّر أيضًا أنَّه سيحتفظ بتلك اللمسة قدر المستطاع. إنْ كان سيموت بين الأغطية العتيقة على فراشٍ أرضيٍّ متواضع، فليمُتْ مع تلك اللمسة. تراءى له أنَّ

جسده ديرٌ مهجورٌ ورأسه جرسٌ أصابه الصدأ منذ عصور، لكنَّ تلك اليد أتت وقرعت الجرس. إنَّه يسمعه بوضوح، يسمعه يرنُّ في دمه، طنَّته ذكرى تبدأ من حياةٍ سابقةٍ وتمتدّ إلى حياةٍ قادمة. تلك اليد منحته، وهو في عزِّ فَنائه، خلودًا لن ينساه... تلك اليد الحلم. تلك اليد الصحوة.

عندما استيقظ بعدها بعدَّة ساعات، كانت حرارته قد استقرَّت. نظر حوله بذعرٍ ثم سحب جذعه إلى أعلى وحاول أن يجلس. كانت الضمادة على وسادته، وحين أحسَّ ببرودة ذراعه وهمَّ بشدِّ كمّه إلى الأسفل رأى لزقةً مستديرةً عند أعلى زنده من الداخل، وعلم أنَّ أحدهم حقنه بالدواء. على الطاولة بجانب الباب، رأى كيس أدويةٍ خافضةٍ للحرارة ووعاءً معدنيًّا به طعامٌ ملفوفٌ بورقة قصدير، وقنِّينة عصيرٍ زجاجيَّة.

احتمال أنَّه ما زال يحلم بقي مسيطرًا عليه، لكن عندما مرَّ بعض الوقت علم، بكلِّ ما فيه من وجعٍ وامتنان، أنَّها كانت هنا. أنَّ خوفه من فقدانها منعه من النظر في عينَيْها عن كثبٍ ولو لمرَّةٍ واحدةٍ فقط. جلس على الأرض وضغط على عينَيْه بقوَّةٍ وكأنَّه يحاول سحقهما. ثم خفَّف الضغط تدريجيًّا وراح يلمس جفنَيْه برؤوس أصابعه. جفناه اللذان حالا بين التقاء عينَيْه وعينَيْها، بين الحلم والحقيقة، بين الموت والحياة.

نفت راغدة علمها بأيٍّ من تلك الأحداث عندما لجأ إليها ليتأكَّد أنَّ نبيلة كانت في غرفته، وأنَّ يدها سحبته من موتٍ كان وشيكًا. سأل الجيران عمَّا إذا رأوا أحدهم يطرق بابه أو يسأل عنه، لكنَّهم أجابوه بالنفي. غسل الطبق الذي كان يحتوي على

الطعام والقنّينة الزجاجيَّة التي كانت فوق الطاولة ووضعها أمام بابه في مكانٍ مكشوفٍ علَّ صاحبها يراها ويأتي لاسترجاعها. ولكنَّها بقيت هناك لأسابيع، وتراكم عليها الغبار. بقيت تذكارًا مُرًّا لذلك الشبح الذي أعاده إلى الحياة وتركه تائهًا فيها.

عندما سأل صوت المحقِّق في رأسه عن تلك الحادثة، قال إنَّ حبيبته أتت إليه في أحلك لحظات حياته. قال إنَّها ملاكه الحارس وإنَّه مستعدٌّ للتخلِّي عن كلِّ القصص الأخرى مقابل الاحتفاظ بقصَّة يدها التي لمست جبينه. ذكَّر نفسه أنَّ الحياة ليست سوى القصَّة التي يخبرها لنفسه عن تلك الحياة.

ارتجفت يدا أمل وهي تفتِّش في حقيبتها عن قصاصة الورق التي أعطتها إيَّاها أمّها منذ خمسة أسابيع. ورقةٌ عليها رقم هاتفٍ كُتب بخطٍّ متعبٍ يشبه خطّ طفلةٍ في عامها الدراسيّ الأوَّل «ابعثي رسالة على هذا الرقم بعد ما الله ياخذ أمانتو. اكتبي فيها كلمتَيْن: نبيلة توفّت»، هذا ما قالته لها أمّها حين أصبحتا وحدهما في الغرفة.

كانت أمل ممتنَّةً لتلك المهمَّة البسيطة التي تبقَّت لها بعد أن رحلت نبيلة. عالمها الذي كان مكتظًّا بالترقُّب والقلق والالتزام بمواعيد المسكِّنات أصبح فجأةً فارغًا. لا أحد يصبح يتيمًا ويبقى راشدًا. الذي يخسر أمّه هو دائمًا الطفل الذي كُنَّاه. هكذا تَفقِد كلُّ التجارب والخبرات التي تعلَّمناها وما رافقها من نضجٍ قدرتها على مواساتنا. ولكنَّ تلك المهمَّة أجَّلت الانهيار قليلًا وشحنتها

بنوعٍ من القوَّة الدافعة. قوَّةٌ وُلِدت نتيجة الرغبة في الامتثال المميت لإرادة أمّها الراحلة يخالجها شيءٌ من الفضول. من يمكن أن يكون على الجانب الآخر من هذا الرقم؟

جفَّفت دموعها ونفخت في الفوطة قبل أن تفرد الورقة بكلتا يدَيْها على الطاولة، وبدل أن تبعث رسالةً حملت هاتفها وراحت تنقر على الأرقام بحذر. انتظرت حتى رنَّ الهاتف على الجانب الآخر ثلاث رنَّاتٍ طويلات، ولمَّا همَّت بإنهاء المكالمة سمعت طقَّةً بسيطةً تدلُّ على أنَّ أحدهم فتح الخطّ.

بقي الصوت على الجانب الآخر صامتًا حتى قطعته أمل «آلو. آلووو».

أجاب الصوت «آلو، نعم» وبدا صوتًا متعبًا لامرأةٍ مسنَّةٍ تُكثِر من التدخين.

«أنا أمل بو نمر. مين معي؟»، سألت أمل بعد أن قدَّمت هويَّتها كراية سلامٍ تلوِّح بها لتلك المرأة الغريبة.

«أنتِ بنت نبيلة، مش هيك؟»، سأل الصوت المتعب، وتبع السؤال موجةٌ من السعال.

انتظرت أمل حتى توقَّف السعال، وقالت «نعم بنت نبيلة. مين معي إذا بتسمحي؟»، سألت وقد اشتدَّ خفقان قلبها.

لم تكن أمل تعلم ممَّ هي خائفة، فأسوأ ما قد يحدث قد حدث بالفعل ونبيلة رحلت.

«أنا راغدة» قالت المرأة.

وحين سمعت أمل اسم المرأة شعرت بأنَّها ستنهمر بكاءً من

جديد، أغمضت عينَيْها ثم رفعت يدها لاإراديًّا والتقطت القلب المقضوم المعلَّق بقلادتها. من غير أن تسأل راغدة عن أحوالها ومن غير أيَّة مقدِّمات، ألقت حِملها دفعةً واحدة: «إمِّي عطتك عمرها يا خالتي راغدة. نبيلة توفّت»، قالت أمل. ساد الصمت لعدَّة ثوان، وعندما عاد صوت راغدة مختنقًا ومختلطًا بالدموع قائلة «خسارة كبيرة موت نبيلة الله يرحم روحها»، بَكَتا سويًّا في صمتٍ ووعدتها راغدة أن تكون حاضرةً وقت الدفن.

خارج جدران المنزل الغارق بالفقد، على بعد أقلّ من مئة مترٍ من النهر، جلس مهنَّدٌ على أرض فناء مسكنه وغرق في تأمُّلاته. كان يعلم أنَّ خبرًا ما في طريقه إليه. راقب ضوء الغرفة الذي لم ينطفئ طوال الليل وحركة الجارات اللواتي بدأن بالتوافد إلى منزل نبيلة منذ السابعة صباحًا واحدةً تلو الأخرى. خواءٌ ما في داخله جعله متيقِّنًا أنَّها لم تعد هنا ورغم ذلك بقي خائفًا. فهو لن يتحمَّل أبدًا سماع اسمها على مكبِّرات الصوت المنتصبة على سطح بيت المختار، الذي يبدأ النعي بجملة «إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون...» سيكون أسهل عليه أن يأتي بعصا مدبَّبةً ويبقر طبلتي أذنَيْه. وفجأةً وثب على قدمَيْه وأخذ يدور في الفناء مثل ذئبٍ داخل قفص، شعر برغبةٍ في العواء، في رفع رأسه نحو السماء وإطلاق صيحاتٍ طويلةٍ وحادَّةٍ حتى ينقطع نفسه... ثم فكَّر في الرحيل. إذا ما رحل الآن لن يكون عليه أن يواجه موتها. إذا رحل قبل أن يأتيه الخبر ستبقى نبيلة حيَّةً إلى الأبد. دخل إلى غرفته مسرعًا، أتى بحقيبته القماشيَّة الكبيرة وراح يتحرَّك في الغرفة مسعورًا يلتقط الأشياء من هنا وهناك ويرميها في داخلها من دون

أن يفحصها. استغرق الأمر دقائق قبل أن يستفيق من سعاره وما أن استفاق توقَّف عن الحركة، سند رأسه على الجدار وراح يطرقه طرقاتٍ خفيفةً متتالية: «جبااان.. جبااان»، قال بمرارةٍ قبل أن يخرج من الغرفة ويجلس في مكانه السابق على أرض الفناء.

لم تمض ربع ساعةٍ حتى رأى شابَّيْن يسيران تجاه مسكنه. تضرَّع إلى ربِّه أن يغيِّرا مسارهما، أن ينعطفا يمينًا تجاه الزقاق المؤدِّي إلى النهر أو يسارًا تجاه الحقول، لكنَّهما بقيا يسيران تجاهه. تسارعت أنفاسه وعَلِم قبل أن يصلا إليه، قبل أن ينبسا بحرف، أنَّهما هنا ليطلبا منه الطلب المعتاد. «صباح الخير عمّ مهنَّد»، قال أحدهما. «بدنا نعذّبك تقشِّش الطريق للمقبرة قبل الساعة 2»، قال الآخر. هزَّ مهنَّدٌ رأسه ليُعلِمهما أنَّه سمعهما ولم يسألهما شيئًا. وقف وذهب ليتناول المجرفة من تحت السلّم المؤدِّي إلى السطح ثم لبس جزمة الكاوتشوك وتوجَّه إلى المقبرة. رمى المعول جانبًا، وبيدَيْه العاريتَيْن راح يقلع الأعشاب القاسية الطويلة. أطبق كفَّيْه على ضمَّةٍ كبيرةٍ من الأشواك وراح يسحبها بكامل قوَّته حتى اقتلعها من جذورها، فارتدَّ جسده إلى الخلف وانطرح أرضًا. أعاد الكَرَّة مرَّة، اثنتَيْن، ثلاثًا... عشْرًا. حتى بدأت يداه تنزفان. اجتثاث ذلك الشوك، بكلِّ ما يتخلَّله من عنف، بكلِّ ما فيه من حزم، منحه شيئًا من اللذَّة. لذَّة؟ قد تكون لذَّةً أو أيَّ شيءٍ آخر. شيءٌ حاسم. حاسمٌ بما يكفي ليوقف دموعه وعواءه. حاسمٌ بما يكفي ليذكِّره بأنَّ الجذور التي تضرب عميقًا لا تُقتلع من دون أن تُخلِّف جروحًا أعمق.

24

بعد ثمانية أشهر

جونيه، صيف 2024

كانت أمل تعلم أنَّ حديثًا كهذا سيدور بينهما حتمًا في يوم من الأيَّام، لكنَّها لم تتخيَّل أنَّ رحمة ستختار هذا التوقيت بالذات وهذا المكان بالذات لتسألها عمَّا إذا تصالحت مع موت أمّها. كانتا معلَّقتَيْن بين السماء والأرض، مرَّ أكثر من نصف ساعةٍ على توقُّف قاطرة (التلفريك) المعلَّقة على الكابل بين حريصا وساحل جونيه. زاد السؤال المباغت من توتُّر أمل الذي بدأ بعد مرور عشر دقائق على توقُّف القاطرة وإدراكها أنَّ عطلًا تقنيًّا قد أصاب التلفريك. أدركت غرابة أن تسألها ابنتها ذات الستَّة عشر عامًا سؤالًا بهذا العمق في هذا التوقيت الغريب. للحظاتٍ شعرت أنَّها فتاةٌ صغيرةٌ في حالة استجوابٍ لم تكن مستعدَّةً لها، وبعد أن تنحَّى الذعر الأوَّل، رأت أنَّ سؤال رحمة يشبه نفقًا طويلًا أسفل

جبلٍ وأنَّ عليها أن تجتازه لتواجه نفسها في آخره.

لم تحبّ أمل الأسئلة يومًا، لطالما شعرت أنَّها تضعها تحت الضغط وتُجبرها على صياغة أفكارها ومشاعرها بما يتناسب مع سائلها. كانت تميل إلى الاعتقاد بأنَّ الأجوبة لا تشبهنا بقدر ما تشبهنا الأسئلة التي نسألها، وعلى الرَّغم من ذلك قرَّرت أن تُجيب ابنتها بكلِّ ما أوتيت من صدق. كان عليها أن تعود إلى الماضي لإحضار ذلك الجواب، لأنَّها تظنّ أنَّنا جميعًا أجوبةٌ تمتدّ من الماضي إلى الحاضر، بعضنا يعثر على سؤاله بين دروب الحياة، بعضنا يحفر داخل قلبه بحثًا عن ذاك السؤال، والأقلّ حظًّا يموتون كجوابٍ يتيمٍ لم يعثر على سؤاله يومًا.

جالت أمل بنظرها على التلال المحيطة المكسوَّة بالأشجار الخضراء وأخذت نَفَسًا عميقًا:

«كلّنا رح نموت حبيبتي. مشكلتي مش مع الموت»، قالت ثم أنزلت نظَّارة الشمس عن عينَيْها، وأضافت أنَّها ليست حزينةً على موت أمّها بقدر حزنها على الحياة التي لم تعشها.

بدا الاستغراب واضحًا على ملامح رحمة: «شو قصدك؟»، سألت رحمة.

اختارت أمل كلماتها بعنايةٍ لتوصل لرحمة فكرتها عن حقِّ نبيلة المبخوس في الحياة. حدَّثتها عن الجهد الذي تكبَّدته في حياتها من أجل تأمين لقمة العيش، وعن ضياع شبابها في قريةٍ بعيدةٍ لا يفهمها ولا يقدِّرها فيها أحد.

أصغت رحمة بعينَيْن يقظتَيْن إلى شرح أمّها المطوَّل عن حياةٍ

أفضل كانت جدَّتُها تستحقّها. حياةٌ فيها رفاهيةٌ فكريَّةٌ وجسديَّةٌ ومساحاتٌ للاستجمام والسفر، وحين توقَّفت أمل عن الكلام، قالت رحمة باندفاع «بس تيتا كانت مبسوطة! كنَّا نضحك كتير أنا ويّاها»، ابتسمت رحمة وكأنَّها تسترجع موقفًا بعينه، «ما بعرف حدا كان راضي قد تيتا»، أضافت بلهجةٍ واثقةٍ وكأنَّها حسمت موقفها. صمتتا لبرهةٍ وراحتا تراقبان المظلَّات الملوَّنة لهواة الطيران الشراعيّ التي تتهادى في سماءِ جونيه قبل أن تهبط في مساحةٍ مخصَّصةٍ لها على شاطئ البحر.

راحت أمل تفكِّر فيما قالته ابنتها، وحين لاحظت ميلها المُلِحَّ لرفض سرديَّة رحمة، سألت نفسها عن سبب تمسُّكها بفكرتها عن تعاسة أمّها. لا تنكر أمل أنَّها حاولت مرارًا أن تفهم حياة نبيلة بأثرٍ رجعيّ، أنَّها كانت دائمًا تبحث عن إجاباتٍ لفكِّ شيفرات علاقتها الملتبسة بها. لكنَّها تنبَّهت في تلك اللحظة بالذات، وهي تنظر إلى مظلَّةٍ كبيرةٍ رُسِم في وسطها أرزةٌ خضراء، أنَّ رغبتها في الفهم قد تكون جزءًا من المشكلة ولن تقودها إلى أيِّ جوابٍ حقيقيّ.

الرغبة في الفهم تحتِّم علينا أن نخلق تسلسلًا معيَّنًا للأحداث، وأن نكون انتقائيِّين في ذكرياتنا لنوظِّف منها فقط ما يخدم سرديَّتنا. الذكريات هي بمثابة حفناتٍ من الصلصال وما نصنعه منها هو نسخةٌ معدَّلةٌ من ذواتنا نستطيع التعايش معها. فنحن في قصَّتنا نبرِّر أخطاءنا لأنَّنا نجد طُرُقًا لتبرير اقترافنا لها، ونسامح من جَبنًا عن مواجهتهم، لأنَّه علينا أن نختار بين ثقل الضغينة وخفَّة التسامح، وقد نجلد أنفسنا أيضًا لأنَّ الاعتراف

بالتقصير في الماضي يهبنا نشوة الفضيلة في الحاضر.

«كيف كان بَدِّك ياها تعيش؟» استفاقت أمل من تأمُّلاتها على سؤال رحمة البريء. سؤال جعلها تشعر أنَّها تافهةٌ وحانقةٌ مثل طفلٍ مشاكسٍ يريد أن يتحكَّم في أمِّه.

«كان بدِّي ياها تكون سعيدة!» قالت أمل بنفاد صبر.

«قصدك تسافر وتشوف الدني؟ إنتي بتحبِّي السفر بس تيتا ما كانت تحبّ المشاوير أبدًا»، قالت رحمة برقَّة، وكأنَّها أصبحت هي الأمّ في هذا الحوار.

«ليك ماما شوفي!» أشارت رحمة إلى مظلَّتَيْن صفراوَيْن تحمل كلٌّ منها شخصًا واحدًا وتدور حول الأخرى فيما يشبه الرقصة. وتحتها كانت السيَّارات، التي تمرّ مسرعةً على الطريق المتاخم للبحر، تبدو صغيرةً وغير حقيقيَّةٍ كلعب الأطفال. تأمَّلتا الطريق السريع والبحر المترامي خلفه لدقائق. بدا لهما العالم في الأسفل مضغوطًا ومهرولًا بلا سبب. كانتا معلَّقتَيْن في الهواء حيث الوقت يخسر حدَّته ويتحوَّل إلى عجينةٍ ليِّنةٍ تُقلِّصانها بالنقاش أو تمُدَّانها بالتأمُّل والصمت.

لم تستطع أمل أن تشارك رحمة جرحها الأعمق المتعلِّق بقصَّة عاشقة الظلّ وعلاقتها بعليّ. لقد وعدت نفسها أن تحتفظ بهذا السرّ وأن تتركه يموت معها وكأنَّها بذلك تنفي حدوثه وتُبطل الوجع الذي سبَّبه لأمِّها عندما كانت على قيد الحياة. لكن رحمة كانت تعلم بشأن شخصيَّة مدام ندى وفقرتها الإذاعيَّة. اختارت نبيلة أن تأتمن حفيدتها على هذا السرِّ خلال إحدى سهرات الشتاء

فجلستا إلى جانب الصوبيا وراحتا تتوشوشان وتضحكان سويًّا.

«مثلًا كان فيها تكون مذيعة بشخصها واسمها الحقيقيّ. هيك قصدي... إنَّها تعيش حياة باختيارها!» قالت أمل أخيرًا بعد أن عثرت على الكلمات المناسبة لتترجم إحباطاتها.

«مين قلِّك إنُّو كلّ شي بحياتها ما كان باختيارها؟» سألت رحمة.

كانت طائرات الهليكوبتر قد بدأت تحوم حول المكان، وتستعدّ لإنزال منقذين لإفراغ المقطورات من ركَّابها عن طريق مدِّ الحبال.

مدَّت أمل يدها ولمست يد رحمة الجالسة على المقعد المواجه: «ما تخافي حبيبتي. رح نكون بخير»، قالت وكأنَّها تذكَّرت دورها من جديد.

«ماني خيفانة أبدًا. راح تكون مغامرة حلوة متل bungee jumping»، قالت رحمة وراحت تضحك.

ماذا لو كانت أمل تُسقِط مشاعرها على جميع من حولها؟ هذا ما سألته لنفسها قبل أن تغرق في تأمُّلاتٍ طويلةٍ حول ما أرادته وما لم تُرِده أمُّها. أليس من الممكن أن تكون نبيلة قد اختارت بكامل إرادتها أن تعيش تلك الحياة؟ ألم تختر أيضًا أن تخلق عاشقة الظلّ وتعطيها شخصيَّةً وصوتًا ودورًا؟ ألم تختر أن ترضى بدقائق السعادة المعدودة في حياتها، وتتفنَّن في مدِّها على عمرٍ كاملٍ من الضجر بالمهارة نفسها التي كانت تمدِّد بها كتلة العجين لتحوِّلها إلى رغيفٍ واسعٍ تقتات عليه كلّ العائلة؟ ألا

تتعالى أمل على حياة أمّها برفضها لخياراتها والحُكم عليها بسلبيَّة؟ امتلأت عيناها بالدموع وهي تفكِّر في تلك الأسئلة.

«ماما شو هذا يلي معلَّق بسلسلتك؟ سألتك مرَّة ونسيت»، قالت رحمة وهي تحدِّق في الحلية المتدلِّية من السلسلة المعلَّقة على عنق أمل.

«هيذا قلب»، قالت أمل.

مدَّت رحمة يدها وقلَّبته وعاينته «ما إلو خصَّة بالقلب»، قالت وضحكت عاليًا. «كأنُّو حبَّة زبيب»، أضافت ممازحة.

لم تسأل أمل نفسها عن سبب احتفاظها بقلب راغدة المقضوم وإبقائه في عنقها طوال تلك السنوات. والآن بعد سؤال رحمة، شعرت أنَّ هذا القلب جزءٌ من مشهد «العَلَقان» الذي يحاصرهما، وأنَّه أيضًا مثل جسدَيْهما المعلَّقَيْن في المقصورة ينتظر أن يُبَتَّ في أمره. نظرت أمل إلى رحمة، المشغولة بمراقبة طيَّارة الهليكوبتر نظرة امتنان، ثم فتحت ذراعَيْها، وقالت لها «أعطيني عبُّوطة!» ابتسمت رحمة، وانحنت من على المقعد المقابل لتحضن أمَّها. اقترب صوت الهليكوبتر ولوَّح لهما شابٌّ يلبس خوذةً وسترةً صفراء، ثم ابتسم ابتسامةً تبعث على الطمأنينة، أشار بعدها بيده إلى المقصورة، موضحًا لهما أنَّه سيقترب ويفتح الباب ليزوِّدهما بالعدَّة اللازمة للهبوط بواسطة الحبال. خفق قلب أمل بشدَّة، وهي تشاهد الشابّ يثبِّت الأحزمة حول ساقَي رحمة، لكنَّها تماسكت وعلمت أنَّ عليها أن تتظاهر بالشجاعة كي لا ينتقل خوفها إلى ابنتها.

قرَّروا بطبيعة الحال إنزال رحمة أوَّلًا، وكانت قد أعطت هاتفها لأمِّها وطلبت منها أن تلتقط لها صورةً جميلة، وهي تنزل على الحبل من أجل نشرها على إنستغرام. قبل مغادرة المقصورة، رفعت إصبعَيْها في الهواء على شكل علامة نصرٍ وابتسمت لعدسة الكاميرا ابتسامةً عريضة.

وبينما كانت تنتظر عودة الشابّ ليساعدها على النزول، جالت أمل بنظرها على البحر والجبال المقابلة، وفي تلك اللحظة، تجدَّد جمال المشهد أمام ناظرَيْها. على الرَّغم من استحسانها للمنظر منذ اللحظة الأولى التي صعدت فيها إلى المقصورة، إلَّا أنَّها شعرت الآن فقط أنَّ غشاوةً ما قد أُزيلت عن عينَيْها وجعلتها جزءًا من هذا الجمال الفسيح بدلًا من كونها متفرِّجةً عليه.

وضعت هاتف رحمة في حقيبتها وأخرجت تلفون نبيلة المطفأ. باستثناء الأوقات التي حملته من أجل وضعه على الشاحن أو إعادة تعبئة رصيده، لم تكن أمل قد لمست هاتف والدتها بعد وفاتها. الرهبة، التي كانت تسيطر عليها بمجرَّد التفكير في تصفُّح الرسائل، جعلتها تؤجِّل الموضوع إلى أجلٍ غير مسمّى. همَّت بإعادته إلى الحقيبة لتطرد الفكرة من رأسها، لكنَّها قبل أن تتركه ينزلق من أصابعها إلى عمق حقيبتها، فكَّرت في استثنائيَّة هذا النهار وفي سلسلة الأحداث الغرائبيَّة التي وجدت نفسها محاصرةً وسطها. ماذا لو اشتركت في لعبة القدر هذه المرَّة وأحجمت عن التمسُّك باستنتاجاتها ومبادئها؟ ضغطت على زرِّ التشغيل مطوَّلًا، فصدرت من الهاتف نغمة ارتجف لها قلبها. ماذا

لو كانت رحمة على حقٍّ بشأن إرادة نبيلة واختياراتها؟ تذكَّرت الحماس الذي كان يظهر في عينَي نبيلة حين تتحدَّث عن عاشقة الظلّ. ماذا لو فتحت حساب عاشقة الظلّ وأرسلت منه رسالةً إلى عليّ؟ تخيَّلته وحيدًا يجلس تحت العريشة وينظر إلى الجبل المقابل بعينَيْه الناعستَيْن.

أخذت الهاتف وفتحت الماسنجر، وإذا بعشرات الرسائل تظهر أمامها. تخيَّلت والدها في ورشته يعافر ليثبت قطعةً ما بالجزء الأعلى من ذراعه كي يصلحها بيده السليمة. بحثت عن اسم «نسر الأعالي» وبأصابع مرتجفةٍ فتحت محادثته وقرأت رسالته. تساءلت إن كان لا يزال ينتظر ردًّا على رسالته الأخيرة تلك؟ كتبت رسالةً قصيرة، ثم همَّت بمسحها... تخيَّلته يرفع نظره عن القطعة التي يصلحها لينظر إلى شاشة الهاتف الملقى إلى جانبه، تخيَّلت نظرة عينَيْه وهو يقرأ الإشعار الذي يظهر في أعلاها ويحمل عبارة «رسالة من عاشقة الظلّ». ثم ضغطت على زرِّ الإرسال وزفرت زفرةً طويلة.

ما لبث صوت الهليكوبتر أن اقترب، وظهر الشابّ ذو الابتسامة المطمئنة مجدَّدًا. بعد أن شدَّ الأحزمة على خصرها وحول ساقَيْها، طلب منها أن تنزل بوجهها للمقصورة وظهرها للحرش. ثبَّتت حقيبتها حول عنقها وكتفها وهي تهمّ بالنزول، لكنَّها ما لبثت أن لمحت القلب المقضوم على أرض المقصورة. «لحظة من فضلك. سقط منِّي شي»، قالت للشابّ وهي تنحني لتلتقط السلسلة. وقبل أن تصل أصابعها إليها، أغلقت قبضتها وأرجعت ذراعها. «مستعدَّة للهبوط»، قالت للشابّ تاركةً القلب

المقضوم الذي حملته لأكثر من ثلاثين عامًا لمصيره المجهول.

عندما وصلت إلى الأرض، كانت الشمس قد بدأت تغمس أطرافها في البحر وتسكب لونًا برتقاليًّا دافئًا على غيوم الأفق. كانت رُكْبَتا أمل ما زالتا ترتجفان قليلًا حين أمسكت بيد ابنتها، وبدأتا السير معًا نحو سيَّارتها المركونة في موقف مكتب التلفريك. في تلك اللحظة، شعرت بأنَّ قلبها أصبح أخفّ، كما لو أنَّ أحدهم قد سكب عليه ماءً باردًا، فغسله وأزال عنه بقعةً سوداء أثقلته لسنوات. كلّ شيءٍ حولها، من الألوان المتناغمة في السماء إلى الهواء الدافئ الذي يلامس وجهها، كان يملؤها بالامتنان ويذكِّرها بأثر نبيلة المستمرّ في حياتها وحياة ابنتها.

25

سيتكلَّم أهل قرية عينصورة عن مأتم نبيلة طويلًا، عن الطرقات التي غصَّت بسيَّارات المعزِّين الذين أتوا من قرى بعيدة، عن باقات الزهور التي وصلت من أشخاصٍ عرفوها وأكلوا من خبزها وشربوا من ضحكة عينَيْها. وبعد أن يستفيقوا من الصدمة، سيعدُّون على الأصابع الأشخاص الذين أتوا لوداع نبيلة بعد غياب سنواتٍ عن القرية. لم يكن أحدٌ يتوقَّع أنَّ ذوقان سيعود بعد خمسين عامًا من أجل أن يرى أخته المريضة، فينتهي به الأمر بوضع وردةٍ بيضاء جانب وجهها الأبيض المستدير وعينَيْها المغمضتَيْن اللتين لن ترياه أبدًا. سيقولون إنَّ بناتها لم يعدِّدنها كما يجب، لم يقفن ويذكُرْن حسناتها على الملأ، كما كان يفعل الجيل السابق. جلست أمُّ مكرم بجانب أمل وراحت تلقِّنها الكلمات: «الله يرحمك يا إمِّي، يا صاحبة الفضل عليّي وعلى أولادي، يا شوقنا لـ طلتك ولـ حنوتك»، لكنَّ أمل كانت ثملةً

بالألم، فنظرت إليها بعينَيْن حمراوَيْن شاردتَيْن.

«عندي بنت واحدة بس»، هذا كلّ ما قالته أمل قبل أن تشبك يدَيْها وتصمت. لم تخبر أمَّ مكرم أنَّ حزنها على أمّها لا يمكن أن يُسكَب في كلماتٍ تُعرَض على الملأ بهدف أن يعلم المعزُّون كم كانت نبيلة إنسانةً فاضلةً وتستحقّ الرحمة. لم تقل لها إنَّ هذا التقليد، الذي بدأ في زمنٍ ما بحُسن نيَّة، يجعل الميِّت جزءًا من استعراضٍ لم يختره. نبيلة أدَّت كلّ أدوارها في الحياة في صمتٍ وأحسنت للجميع، وحقُّها عليهم الآن أن يتركوها ترقد في سلام، أن يتركوا الستارة تنسدل بانسيابيَّةٍ من دون أن يطالبوها بالمزيد من المشاهد. ولو كانت أمل ستتكلَّم، لو كانت تملك الطاقة والتماسك اللازمَيْن لمخاطبة الآخرين على الملأ، كانت ستشير إلى مكرم الذي وقف منكَّس الرأس بين الرجال، إلى خالها ذوقان الثمانينيّ، إلى راغدة التي وصلت اليوم إلى القرية في سيَّارة أجرةٍ بعد غياب ثلاثين عامًا، وستقول:

«كلّ ما كنَّا نظنُّه مستحيلًا جعلته نبيلة ممكنًا. المجد لتلك المرأة التي أزالت الخيط الرفيع الذي يفصل الممكن عن المستحيل، المجد لها تلك التي عاشت وماتت بين هذه الجبال النائية حرَّةً في زمنٍ يكثر فيه التغنِّي بالحرِّيَّة بينما تكبّلنا سلاسل مرارتنا وحقدنا ورفضنا لكلِّ شيء. السلام على قلبها الراضي، على روحها الفراشة، وعلى موتها الذي خلَّصها من كلِّ ما لا يليق بها».

لا تسمح العادات في القرى الدرزيَّة بذهاب النساء إلى المقابر أثناء مراسم الدفن، فالرجال وحدهم يصلُّون على الميِّت

قبل أن يوارى الثرى. دخل وفد الرجال وكانوا جميعًا يردِّدون عبارات التعزية بالوتيرة نفسها وفي الوقت ذاته، فاختلطت أصواتهم وتحوَّلت إلى كتلةٍ من الضوضاء تبثّ في الأجواء ذلك الرعب الذي يترافق مع اللحظات الأخيرة للوداع. نقلوا جثمان نبيلة من السرير الأبيض ووضعوه داخل التابوت، حملوه بعدها على الأكتاف وتوجَّهوا إلى الساحة الكبيرة ليتقدَّم شيخ الضيعة ويصلِّي عليها ويهبها الرحماتِ التي ظنَّ أنَّها تستحقَّها.

حين دخل وفد الرجال كان عليٌّ بينهم. التقت عينا أمل بعينَيْه، حصل الأمر لثانيةٍ وربَّما لجزءٍ من الثانية ولكنَّه نظر بعيدًا أو على الأقلِّ هذا ما خُيِّل إليها. التفَّ حوله الرجال وكثرت الأيادي التي كانت تربِّت على كتفَيْه لتصبِّر وتعزِّي وتواسي. عندما التقت عيناهما شعرت أنَّ ملامحه قد تغيَّرت كلِّيًّا، وأنَّ وجهه أصبح مقفلًا. خُيِّل لها أنَّ ملامحه مصنوعةٌ من طين الفخَّار، وقد تعرَّض للتوِّ لدرجاتٍ مرتفعةٍ من الحرارة. كان من المفترض أن تعانقه وتبكي على كتفه كما يفعل المحزونون من أفراد العائلة الواحدة، لكنَّ الفاجعة كانت أكبر من البكاء، وحزنها كان أعمق من أن يترفَّع عن الغضب.

طوال فترة الجنازة، عاشت أمل حالةً مقلقةً من عدم التصديق. شيءٌ ما في داخلها، صوتٌ ما، وَعْدٌ ما، فكرةٌ تفوح منها رائحة الجنون كانت توشوش في آذانها وتقول لها إنَّ نبيلة لم تمت، إنَّ هذا الوداع شكليٌّ ومقتضبٌ ويفتقر إلى الخصوصيَّة اللازمة لوداع من لم نختبر العيش من دونهم. عندما غادر معظم المعزِّين، تناولت إحدى باقات الورد من الصالة التي أصبحت شبه

فارغة، وراحت تمشي بمحاذاة النهر باتِّجاه المقابر. كانت ستوفِّر نصف الوقت لو أخذت الطريق المعبَّدة التي تمرّ بين بيوت القرية، لكنَّها فضَّلت أن تسير بين الحقول. ملأ صوت النهر أذنَيْها، وسكَّن خريره آلامها بشكلٍ مفاجئٍ وغير مطْمئنٍّ كمريضٍ تحت تأثير البنج، يعي أنَّ بطنه مفتوح، لكنَّه لا يشعر بالألم.

قبل أن تصل، رأته هناك على بُعد أمتارٍ من المقبرة. كان يجلس فوق الصخرة الكبيرة، يضمُّ ركبتَيْه إلى صدره، ويحدِّق إلى دوَّامةٍ صغيرةٍ صنعها ارتطام تيَّار الماء بصخرتَيْن صغيرتَيْن. وقفت وراءه، لكنَّه لم يلحظ وجودها، راقبت معه الورقة الصفراء التي علقت على سطح الدوَّامة في حركةٍ دائريَّةٍ لا متناهيةٍ حتى انتبه لها. رفع رأسه ونظر إليها بعينَيْن غائبتَيْن، ومن دون أن تقرِّر، انحنت ومدَّت يدها مصافحة: «البقيَّة بحياتك عمّ مهنَّد»، قالت بصوتٍ متهدِّج. صافحها وهزَّ رأسه من دون أن ينبس بكلمة. تبادلا نظرةً أخيرة. نظرة اعترافٍ بوجعه الكبير، بقصَّة حبِّه التي لم يُخبرها سوى لتِلال الفحم ومياه النهر الجارية، اعترافٍ باليُتم الذي يجمعهما ويتركهما عالِقَيْن في مهبِّ الفقد كالورقة الصفراء التي ما زالت تدور وسط النهر على سطح دوَّامة المياه.

برلين 23 نوفمبر 2024

مكتبة
t.me/soramnqraa

رغم أنّها لم تغادر قريتها يومًا، إلّا أنّ نبيلة بَنَت عالمًا كاملًا في الخفاء، بأدواتٍ بسيطةٍ لا تتعدّى موادّ صناعة الخبز. في ظلِّ واقعها الصارم والجافّ، تستثمر نبيلة المساحات العاطفيّة المحدودة المتاحة لها، وتتقن فنّ التأثير الهادئ، متحايلةً على قيود مجتمعٍ محافظ.

روايةٌ عن الصبر الذي ينضج على نارٍ خافتة، وعن التفاصيل الصغيرة التي تشكّل لوحة الحياة الكبرى، وعن الحرّيّة التي تتحقّق من دون ثورةٍ أو حرق جسور.



حنين الصايغ روائيّةٌ وشاعرةٌ لبنانيّة، صدر لها ثلاث مجموعاتٍ شعريّة، ووصلت روايتها الأولى "ميثاق النساء" (دار الآداب ٢٠٢٣) للقائمة القصيرة للجائزة العالميّة للرواية العربيّة.



مكتبة
t.me/soramnqraa

دار الآداب